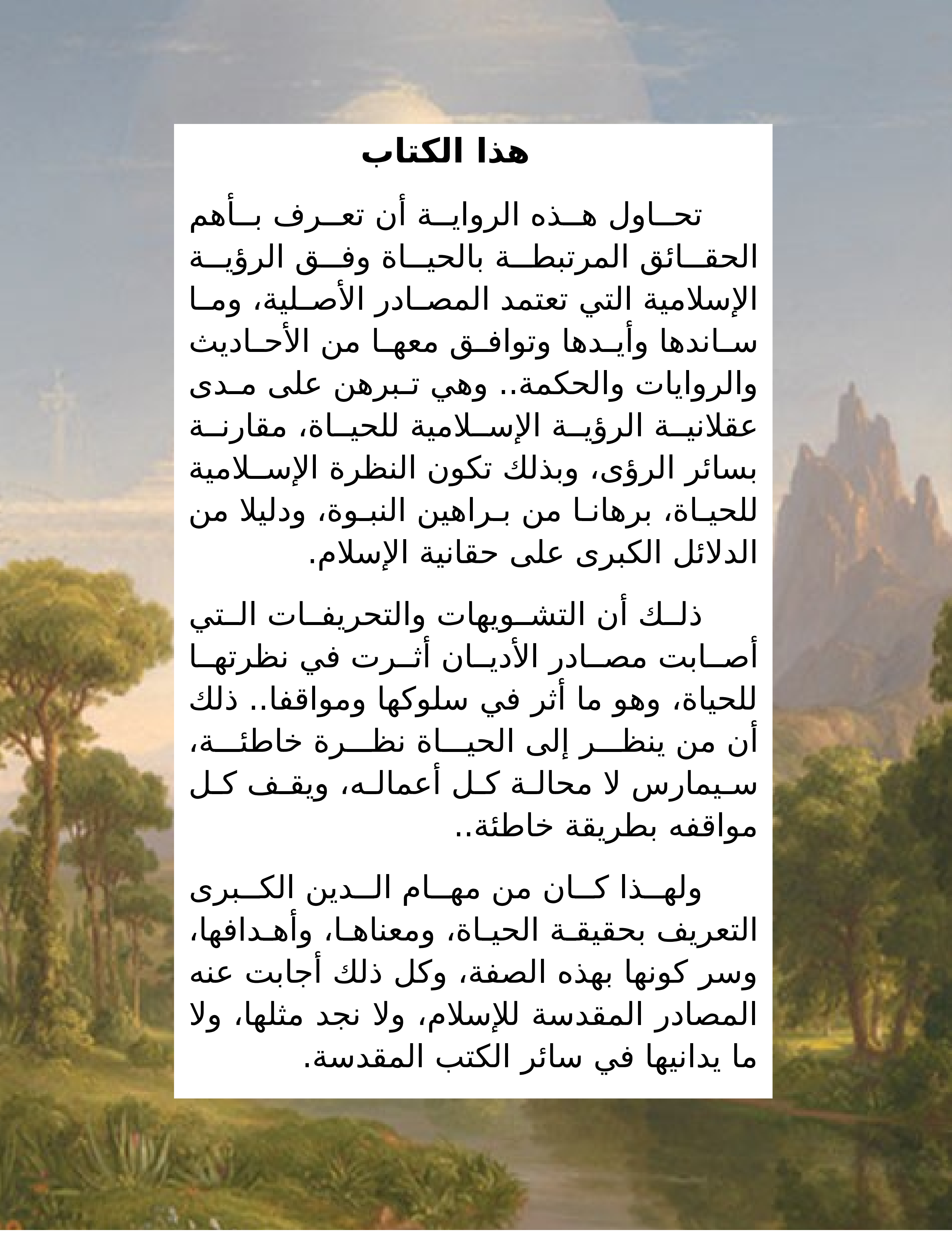


حقائق ورقائق
(١٥)

أسرار الحياة

رواية تصور الحياة وحقيقتها وفق الرؤية الإسلامية

د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

تحاول هذه الرواية أن تعرف بأهم الحقائق المرتبطة بالحياة وفق الرؤية الإسلامية التي تعتمد المصادر الأصلية، وما ساندها وأيدها وتوافق معها من الأحاديث والروايات والحكمة.. وهي تبرهن على مدى عقلانية الرؤية الإسلامية للحياة، مقارنة بسائر الرؤى، وبذلك تكون النظرة الإسلامية للحياة، برهانا من براهين النبوة، ودليلا من الدلائل الكبرى على حقانية الإسلام.

ذلك أن التشويهات والتحريفات التي أصابت مصادر الأديان أثرت في نظرتها للحياة، وهو ما أثر في سلوكها ومواقفا.. ذلك أن من ينظر إلى الحياة نظرة خاطئة، سيمارس لا محالة كل أعماله، ويقف كل مواقفه بطريقة خاطئة..

ولهذا كان من مهام الدين الكبرى التعريف بحقيقة الحياة، ومعناها، وأهدافها، وسر كونها بهذه الصفة، وكل ذلك أجابت عنه المصادر المقدسة للإسلام، ولا نجد مثلها، ولا ما يدانيها في سائر الكتب المقدسة.

حقائق ورقائق

(15)

أسرار الحياة

رواية تصور الحياة وحقيقتها وفق الرؤية الإسلامية

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2018 - 1440

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تحاول هذه الرواية أن تعـرف بـأهم الحقـائق المرتبطـة بالحياة وفق الرؤية الإسلامية الـتي تعتمـد المصـادر الأصـلية، ومـا سـاندها وأيـدها وتوافـق معهـا من الأحـاديث والروايـات والحكمة.. وهي تبرهن على مـدى عقلانيـة الرؤيـة الإسـلامية للحياة، مقارنة بسائر الرؤى، وبذلك تكون النظـرة الإسـلامية للحياة، برهانا من بـراهين النبـوة، ودليلا من الـدلائل الكـبرى على حقانية الإسلام.

ذلـك أن التشـويهات والتحريفـات الـتي أصـابت مصـادر الأديان أثـرت في نظرتهـا للحيـاة، وهـو مـا أثـر في سـلوكها ومواقفهـا.. ذلـك أن من ينظـر إلى الحيـاة نظـرة خاطئـة، سيمارس لا محالة كل أعمالـه، ويقـف كـل مواقفـه بطريقـة خاطئة..

ولهـذا كـان من مهـام الـدين الكـبرى التعريـف بحقيقـة الحياة، ومعناها، وأهدافها، وسر كونها بهذه الصفة، وكل ذلـك أجابت عنه المصادر المقدسة للإسلام، ولا نجد مثلهـا، ولا مـا يدانيها في سائر الكتب المقدسة.

فالقرآن الكريم يبين أن هذه الحياة التي نعيشها، ليست سوى نشأة من النشـآت، ومرحلـة بسـيطة في سـلم الحيـاة الطويل.. وأنها مع قصـرها مهمـة جـدا في تحديـد المسـتقبل الحقيقي للإنسان..

ولذلك كـانت الحيـاة ــ وفـق الرؤيـة الإسـلامية ــ مجـالا لزراعـة الأعمـال الصـالحة، واكتسـاب الأخلاق الطيبـة، الـتي تتحول بعـد ذلـك إلى ثمـار طيبـة، يجنيهـا صـاحبها في حياتـه الأبدية.

ولم تقتصـر نظـرة الإسـلام للحيـاة على هـذه الجـوانب العامة التي تشاركه فيها سائر الديانات السماوية، وإنما نـرى تفاصيل كثيرة في المصادر الإسلامية المقدسة لسنن الحياة، وكيفية التعامل معها.. وقد حاولنا إحصاءها في عشرة أسرار

كبرى، قسمناها إلى سبعة فصول بناء على الارتباط بين بعضها، وهذه الفصول هي:

أسرار العداوة: وذكرنا فيه الأعداء المتربصين بالحياة، والذين يريدون تحريفها عن مسارها، وقد بدأنا بها لأهميتها، فلا يمكن لأي أحد أن يبني حياة صحيحة دون أن يعرف أعداءه، والمواضع التي يتسللون منها إليه.

أسرار الصداقة: وذكرنا فيه الأصدقاء الحقيقيين للإنسان، والذين يمكن أن يستثمر صداقتهم في التعامل الصحيح مع الحياة، ذلك أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يستطيع أن يعيش لنفسه فقط.

أسرار السنن: وذكرنا فيه القوانين التي نظم الله تعالى بها الحياة، والتي يمكن من خلال التعامل الجيد معها الحصول على كل إمكانيات الحياة الطيبة.

أسرار الأقدار: ورددنا فيه على كل تلك الشبهات المرتبطة بالقدر، وكونه هو الذي يجبر الإنسان على سلوكاته ومواقفه، وبينا الحدود التي يتدخل فيها القدر الإلهي، ونوع تدخله.

أسرار الثبات والتطور: ورددنا فيه على تلك المقولات التي تريد أن تلغي باسم التطور كل الحقائق والقيم التي جاء بها الأنبياء، وبينا أن الثبات لا يتنافى مع التطور، بل يتكاملان جميعا للتعرف على الحقائق والقيم بطريقة صحيحة.

أسرار الفناء والبقاء: وبينا فيه استمرارية الحياة، ونوع الاستمرارية، وكيفيتها، ودور الأعمال في تلك الاستمرارية، وهو ما يبين الأسس التي تقوم عليها المنظومة القيمية الإسلامية.

أسرار السعادة والشقاء: وذكرنا فيه مدى ارتباط السعادة بالإيمان، وأنه إذا خلت منه حياة الإنسان حل به الشقاء لا محالة.

وقد صغنا الأفكار المتعلقة بهذه المواضيع على شكل رواية حوارية تحاول أن تصل بتلك الحقائق إلى العقول بطريقة سلسة سهلة.

وقد اختيرت فيها مشاهد متعددة تختلف بحسب الفصول، وغلب فيها ــ كالعادة في هذه السلسلة وغيرها ـ الجانب الرمزي، بحيث تدل كل قصة أو مشهد على معنى من المعاني الرمزية المرتبطة بالقضية المبحوث فيها.

البداية

في ذلك اليوم استيقظت على أصوات جميلة، لحنها عندليب خفيف الروح، حبسه ولدي في قفص في حديقة البيت..

حــاولت أن أقــرأ المعــاني الــتي أراد أن يتحــدث بهــا ذلــك العندليب في غياهب الليل المظلم، فلم أستطع.. لكني شــعرت أنــه يريــد أن يقــول كلامــا كثــيرا.. ربمــا نحن أعجــز من أن نفهم معانيه.. فلذلك رضينا بأن نتلذذ بنغماته عن أن نتدبر كلماته.

شــعرت بنشــوة تســري في عــروقي ممتلئــة بالتفــاؤل والجمال.. فذهبت إلى حديقة البيت.. وهنـاك أحسسـت بالحيـاة كلهـا.. بجميـع معانيهـا.. وبجميـع مسـمياتها.. وبجميـع أسـمائها.. تتحدث بألسنة عذبة.

نظرت إلى الأزهار ذات الألوان الجميلة، والأشـكال البديعـة، والعطور الفواحة، فشعرت، وكأنها تـدعو عيـني للتمتـع بمرآهـا، وتدعو أنفي للتمتع بأريجهـا.. فـاقتربت منهـا، وقلت: لقـد فقهت عيني وأنفي وجميع حواسي مـا أردت.. لكن عقلي لا يـزال كليلا دون معرفة ما تريدين أن تقوليه بالضبط..

أنا أعلم أن هذه الثياب التي تلبسـينها.. وهـذه العطـور الـتي تتعطرين بها مجرد شـباك تريـدين أن تصـطاديني بهـا.. لكن مـا الرسالة التي تحملينها.. وما المعاني الـتي تريـدين من عقلي أن يستوعبها؟

لم تجبني الزهور إلا بعطورها.. فتركتها.. ونظرت إلى الندى، وهــو يــتربع كــاللؤلؤ المكنــون على عــروش أوراق الأشــجار.. فامتلأت نفسي بجماله.. وجمال العرش الذي يعتليـه.. فسـألته، لكنه لم يجبني بغير تلك المشاعر الرقيقة التي بثها في نفسي..

نظرت إلى السماء.. فرأيتها ممتلئة بالسرج المنيرة..

ونظرت إلى القمر.. وهو يتجـول في أنحـاء السـماء.. وكأنـه يدعو أبصارنا لتتبع آثار خطواته..

وهكـذا بقيت أقلب طـرفي في السـماء والأرض لأنظـر إلى تلك الثياب الجميلة الرائعة التي كسيت بها الكائنات..

لكـني لم ألبث طـويلا حـتى زارتـني بعوضـة ثقيلـة الظـل..

راحت تنثر سمومها في جسدي.. فانصرفت عن كل ما كنت فيه.. ورحت أبحث عنها لأسألها عن سر شغبها.. وسر عشقها للإيذاء.. لكنها فرت عني.. ولم تقل لي شيئا.. أو لعلها قالت ما أرادت من خلال تلك الرسالة المؤلمة التي أرسلتها لي.. لكني لم أفطن لما أرادت أن تقوله بالضبط.

عدت إلى غرفتي.. وأطفأت جميع الأضواء.. وأغلقت عيني.. وصممت أذني.. ورحت أستجمع جميع قواي لأفهم تلك الرسائل المتناقضة التي ترسلها لي الكائنات كل حين.. لكن جارا ثقيلا راح يرفع صوت مذياعه، ونحن في منتصف الليل بأغنية تردد أبياتا من رباعيات الخيام يقول فيها:

لبست ثوب العمر لم	وحرت فيه بين
وسوف أنضو الثوب عني	لماذا جئت..أين

في بداية سماعي استجمعت جميع قواي المادية والمعنوية لأصبها على ذلك الجار الثقيل.. لكني.. وبعدما سمعت تلك الكلمات الجميلة.. المصبوبة في ألحان في منتهى العذوبة.. رحت أتأمل معانيها.. وأستغرق في التأمل.

لقد قلت لنفسي، أو قالت لي نفسي: نعم.. أنت لم تفهم لغة الطير.. ولا لغة الزهر.. ولا لغة الندى.. ولا جميع لغات الكائنات.. لكنك يمكنك أن تفهم هذه الكلمات..

لعل العندليب عندما كان يشدو لم يكن ينطق إلا بهذه الكلمات التي قالها الخيام..

ولعل الأزهار.. وهي تتفتح لتعود بعدها إلى ذبولها الطويل لم تكن تردد إلا هذه الكلمات..

وهكذا القمر.. فهو يسير.. ولكنه يعلم أنه سيأتي اليوم الذي يتوقف فيه سيره.. ولذلك تراه يترنح في سيره جذلان طربا يغتنم كل لحظة.

لم يكتف جاري بالسماع.. بل راح يرفع صوته ـ بحنجرته التي لا تختلف في غلظتها عن حناجر الحمير ــ يقول، وهو يترنح من السكر، يردد مع الخيام:

لم يكتف جاري بالسماع.. بل راح يرفع صوته ـ بحنجرته التي لا تختلف في غلظتها عن حنـاجر الحمـير ــ يقـول، وهـو يترنح من السكر، يردد مع الخيام:

اجعلوا قوتي الطلا ... كهرباء الخدود للياقوت
وإذا مت فاجعلوا ... ومن الكرم فاصنعوا
جاء من حاننا النداء ... يا خليعا قد هام
قم لكي نملأ ... قبل أن تمتلي كؤوس
هب الدنيا كما تهواه ... وكنت قرأت أسفار
وهبك بلغتها مئتين ... فماذا بعد ذاك سوى
ألبدر شق بنوره ... فاشرب فلن تلقى
واهنأ ولا تأمن فهذا ... سيضيء فوق ثرى لنا
إن نلت من حنطة ... وكوز خمر وفخذ شاة
وكان إلفي معي ... فقت بذا عيشة الولاة

قال ذلك.. ثم سقط كعادته لا أسمع إلا شخيره الذي ملأ الآفاق.

كان في مقابل هذا الجار جار آخـر.. كـان زاهـدا ورعـا.. ولكنه كان ممتلئـا تشـاؤما.. كـان لا يـرى الأشـياء إلا بمنظـار أسود.. وكان لا يكف كل حين من ترديد أبيات العتاهيـة الـتي يقول فيها:

لِدُوا للموتِ وابنُوا ... فكُلّكُمُ يَصِيرُ إلى
لمنْ نبنِي ونحنُ إلى ... نصِيرُ كمَا خُلِقْنَا
ألا يا مَوْتُ ! لم أرَ ... أتيتَ وما تحِيفُ
كأنّكَ قد هَجَمتَ على ... كَما هَجَمَ المَشيبُ
أَيا دُنيايَ ! ما ليَ لا ... أسُومُكِ منزِلاً ألا
ألا وأراكَ تَبذُلُ، يا ... لِيَ الدُّنيا وتسرِعُ

وإنَّكِ يا زمانُ لذُو	وإنَّكَ يا زمانُ لذُو

كان يرددها بصوت مختنق بحشرجة الدموع..

كنت بين هذين الجارين محتارا مترددا.. فبينا أنا مع الأول أحب الحياة.. وأحب اغتنام كل فرصة من فرص اللهو والمرح والسعادة فيها..

في نفس الوقت أجد نفسي تحن إلى الثاني.. فالحقائق كلها تدل على ما يذكره..

فالموت هو نهاية هذه الحياة.. ومن الغبن أن نشتغل بحياة تنتهي بالموت.. ثم لا ينكشف لنا بعدها أي سر.. ولا ينمحي لنا ونحن خارجون منها أي ظلمة من تلك الظلمات التي كانت أرواحنا ترقد فيها.

في ذلك الحين أصابني أرق شديد.. رحت أقلب أطراف فكري في هذه الحياة.. ما عشت منها، وما لعله ينتظرني.. ورحت أقلب طرفي في حياة الناس السعداء منهم والأشقياء.. المتفائلين منهم والمكتئبين.. الناجحين منهم والمحبطين.. فأصابني الذهول من تلك التناقضات الكثيرة التي تملأ الحياة..

فبينما أرى العبقري الذي يشق الشعرة بذكائه أرى بجانبه الغبي الذي لا يفكر ولا يريد أن يفكر، ولا يستطيع أن يفكر لو أراد.

وبينما أرى الغني الذي تنوء مفاتح كنوزه بالعصبة أولي القوة.. أرى الفقير الذي لا يجد في المزابل ما يسد به رمقه.

وبينما أرى الصحيح المعافى القوي الذي لا يعرف المرض، ولا يعرفه المرض.. أرى الذي لا يرحل عنه مرض إلا زاره آخر.. بل تزوره الأمراض العديدة في الوقت الواحد، فينشغل بتطبيب نفسه عن كل شؤون حياته.

وبينما أرى المعافى الذي لا يعرف البلاء.. أرى المبتلى الذي لا يعرف العافية، ولا يسمع بها.

***

كانت هذه المشاهد التي تمتلئ بها حارتي كما تمتلئ بها الأرض مثـار تسـاؤلات عميقـة عن سـر هـذه الحيـاة.. وسـر تقلباتها وتناقضاتها.

نعم.. أنا مؤمن بالله.. ومؤمن بأقدار الله.. ومـؤمن بعـد ذلك كله بالمصير الذي ينتظـر العبـاد.. ولكن هـذا الإيمـان لم يكن إلا قشرة طافية على بحر ذاتي.. ولـذلك لم يسـتطع أن يفك تلك الألغاز التي تقبع فيها روحي..

لم أجد نفسي إلا وأنـا أمـام ذلـك الشـيخ الصـالح الـذي شرفني بزيارتـه، وقبـل أن يطلـع الفجـر، أقـول لـه من غـير استئذان، ومن غير أن أحمل في يدي الفطـور الـذي تعـودت أن أحمله إليه: ما أسرار الحياة؟

ابتسم، وقال: أنت تريد مني أن أحـدثك عن رحلـتي إلى أسرار الحياة.. فلا يمكن لأحد أن يتنعم بشمس الحقيقة، وهو يجهل هذه الأسرار.

قلت: أجل.. إن كان لديك علم بهـذه الأسـرار، فهلم بـه إلي، فنفسي تكاد تنفطر شوقا لمعرفتها.

قال: لقد وقـع لـك مـا وقـع لي.. فقـد كـان أول سـؤال سألته بعد أن من الله علي بمعرفتـه، ومعرفـة ذاتي هـو أني تساءلت عن الحياة.. وأسرار الحياة..

قلت: فهل وجدت الجواب؟

قال: أجـل.. لقـد من اللـه علي بصـحبة العـارفين الـذي حلـوا لي من معضـلات الحيـاة، وأسـرارها مـا ملأني بـالأنس والسعادة والتفاؤل.. بل لم أجـد أنسـا ولا سـعادة إلا بعـد أن فكت لعقلي جميع تلك الألغاز التي كان يحتار في حلها.

قلت: وابشراي إذن.. فحدثني..

***

اعتدل الشيخ الصالح في جلسته، وحمد الله، وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك، ثم قال: بعد أن رجعت إلى بلدي من تلك الرحلة المباركة التي من الله علي فيها بصحبة العارفين الذين تعرفت منهم على الإنسان، وطاقاته ووظائفه وكمالاته[1].. رجعت إلى بلدتي..

وهناك.. وفي غابة من غاباتها الممتلئة بالطهر والجمال.. لقيت صاحبك معلم السلام.. تتبعته، فرأيته مرة يرمي الطعام إلى النمل.. ومرة يشذب بعض الأغصان.. أو يزيل عن الأشجار بعض ما علق بها من أشواك.. وقد عجبت إذ رأيت الطير لا تفر منه.. فقد كان يمد يديه إليها بأنواع الطعام.. وكانت الطير تأتي؛ فتأكل من يده، وتنصرف بعدها.. وهي تغرد تغاريدها..

اقتربت منه، وقلت: ما تفعل في هذه الغابة؟

قال: أنا أبحث عن أسرار الحياة.

قلت: أنا مثلك.. فلم أخرج من بيتي إلا لأبحث عنها.. فما وجدت من ذلك؟

قال: لقد وجدت عشرة أسرار.. من فك ألغازها وحل طلاسمها ظفر بالحياة الحقيقية.. ومن عجز عن حلها، أو تغافل عن البحث عنها لم يكن له من الحياة إلا رسومها وطقوسها وألوانها.. أما أرواحها، فلن يظفر بها إلا من فقه أسرارها.

قلت: ففك ألغازها لي، وعلمني مما علمك الله من أسرارها.

قال: سأذكر لك الأبواب.. أما البحث.. فلا يمكن لأحد أن يبحث بدلا عن غيره.

قلت: فما أبواب أسرارها؟

قال: سبعة.

1() أشير إلى كتاب [أسرار الإنسان]، من هذه السلسلة.

قلت: فما هي؟

قال: أولها أن تعرف أعـداءك الحقيقـيين الـذين يهمـون بـك، فلا يمكن أن تتنعم بالحيـاة، ولـك أعـداء يتربصـون بـك، وأنت لا تفطن إليهم ولمكايدهم.

قلت: صدقت.. وإني أرى الدول العظمى تصرف معظم ثروتهـا في تـدعيم الأمن، والبحث عن الأعـداء.. ولكن مـا مرادك بالأعداء الحقيقيين.. أهناك أعداء مجازيون؟

قال: نعم.. والخلـق كلهم انشـغلوا بأعـدائهم المجـازيين عن أعدائهم الحقيقيين.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا عنهم؟

قال: أنت تـرى من النـاس من يعـادي الحمى.. ويتصـور أنها عدوه اللدود.. ولو كان فطنا لعلم أنها صـديقته الحنـون.. فلولا الحمى ما عرف من يتربص به من الأعداء.

قلت: صدقت.. فلولا الجـراثيم وإخوانهـا من الأعـداء مـا بدت الحمى.. فحدثني عن الثاني.

قال: الأصدقاء الحقيقيون.

قلت: وهل هناك أصدقاء مجازيون؟

قـال: أجـل.. كـل صـديق شـغلك عن الحيـاة الحقيقيـة بالحيـاة المجازيـة هـو عـدو في صـورة صـديق.. أو هـو عـدو محتال مخادع لبس ثياب صديق.

قلت: فحدثني عن الثالث.

قال: السنن..

قلت: ما السنن؟

قال: هي القوانين التي نظم الله بهـا كونـه.. فلا يمكنـك أن تعيش في كون لا تعرف قوانينه.

قلت: صدقت.. وأنا في حياتي أفعل هذا.. فلا أزور بلـدة إلا اطلعت على قوانينهــــا.. فالقــــانون لا يحمي المغفلين.. فحدثني عن الرابع.

قال: الأقدار.

قلت: وكيف أعرف الأقدار.. وهي بيد الله.. وهو يصرفها كيف يشاء؟

قـال: من لم يعـرف الأقـدار.. ولم يتـأدب معهـا.. أدبتـه بسياطها.

قلت: عرفت هذا.. فما الخامس؟

قال: الثبات والتطور.

قلت: ما تريد بالثبات والتطور؟

قال: من لم يميز بين البـاقي الـذي لا يتحـول ولا يتبـدل ولا يتغـــير ولا يـــزول، وبين المتحـــول والمتبـــدل والمتغـــير سيصطدم بالحياة كما يصطدم بالجبال الرواسي من لا يراها.

قلت: صـــدقت.. فقـــد جعـــل اللـــه في كونـــه الثـــابت والمتطور.. والعاقل هو الذي يضع كل شيء في محلـه.. فمـا السادس؟

قال: الفناء والبقاء.

قلت: ما تريد بهما؟

قال: ألا ترى الموت كالحياة؟

قلت: بلى..

قال: فالعاقـل هـو الـذي يفهم أسـرار الفنـاء.. فلا يفهم البقاء من لا يفهم الفناء.

قلت: والبقاء.. فهل يمكن أن يكون في الدنيا بقاء؟

قال: إن لم يكن في الدنيا.. فابحث عن غيرها.. فلا خـير

في حياة لا بقاء فيها، ولا بقاء لها.

قلت: فما السابع؟

قال: الشقاء والسعادة.

قلت: ويلي.. ما علاقة الشقاء بالحياة؟

قال: ألا ترى الشقاء في الحياة؟

قلت: بلى..

قـال: فالعاقـل هـو من بحث عن أسـرار الشـقاء.. فلا يمكن أن يتقي الشقاء من لا يعرف الشقاء.

قلت: والسعادة.. أهي خاتمة الأسرار؟

قال: وهي قبلة الأسرار.. فلا حيـاة بلا سـعادة.. ومن لم يعرف الشقاء لم يعرف السعادة.

قال ذلك.. ثم انصرف كعهـدي بـه إلى النمـل يطعمهـا.. وإلى الأغصان يشذبها.

***

عنـدما رجعت إلى بيـتي مصـحوبا بتلـك الأنـوار الـتي استفدتها من صاحبك (معلم السلام) انبعثت في همـة عجيبـة لأرحل إلى العالم، وأجول فيه بحثا عن أسـرار الأبـواب الـتي حدثني عنها..

استأذنت أخي في ذلك.. فأذن لي، وهـو ممتلئ سـرورا وسعادة لهذا الطلب الذي طلبته..

لقـد تصـور المسـكين أن رحلـتي إلى البلاد المختلفـة سـتعطيني من الفقـه في الحيـاة مـا أنبـذ بـه دين محمـد ﷺ وشمس محمد ﷺ.. بل قد صرح بنيته هذه، قـال لي: اذهب.. فستعرف من أسرار الحياة ما يرغبك عن تلك الشمس الـتي تريد أن تحرقك.. ستعرف من دين الحياة ما يرغبـك عن دين الموت.

لم أشأ أن أرد عليه..

بل سرت إلى بيتي.. وجهزت متـاعي إلى رحلـة طويلـة شملت بلادا كثيرة من أرض الله..

قلت: فهل ستحدثني عن هذه الرحلة؟

قال: أجل.. فهي رحلة أهم من كـل رحلـة.. لم أكتشـف فيهـا البلـدان ولا العمـران.. ولكـني اكتشـفت فيهـا الحيـاة والإنسان.. وقد استفدت فيها من أشعة شمسه ﷺ ما جعلني مندمجا فيها اندماجا كليا.

أسرار العدواة

قلت: فحدثني عن السر الأول من أسرار الحيـاة.. ذلـك الذي سماه معلم السلام (العداوة)

قال: لقد شاء الله أن أكتشف أسـرار العـداوة وعلاقتهـا بالحياة في بلدة كانت ممتلئة بنيران العدوان..

عندما نزلت فيها كانت رحا حرب عنيفة تدور بينهـا وبين جارتها.. وكانت الحرب تأكل الأخضر واليابس.. وكان البلـدان كلاهمـا يمسـيان ويصـبحان على أنبـاء الـدماء المسـفوكة والأرض المحروقة.. والجو الممتلئ برائحة الجثث.

كان البلدان ينطقان لسانا واحدا.. ويـدينان دينـا واحـدا.. ولشعبيهما أعراق واحدة وألوان واحدة وتقاليد واحدة.. ولكن مـع ذلـك انـدلعت بينهمـا حـرب ضـروس لم تزدهـا الأيـام إلا اشتدادا..

كنت أمر على المقاهي، فأرى الأحقاد والضغائن.. كـانت كل أحاديث المقاهي عد سعيد لقتلى الأعـداء.. أو عـد حـزين لقتلاهم..

وكـان الشـعراء لا ينطقـون إلا بهجـاء الأعـداء وسـبهم والسخرية منهم..

وكان الحكمـاء.. أو من يسـميهم النـاس حكمـاء.. لا هم لهم إلا تعديد مثالب الأعداء وحماقتهم وغبائهم وغفلتهم.

وكان الساسة الـذين تركـوا ألبسـتهم المدنيـة.. ولبسـوا بدلها ألبستهم العسـكرية.. لا يتكلمـون إلا بـالخطب الناريـة.. وكـانوا بين الحين والحين يطلقـون الرصـاص في الهـواء.. ويطلقون معه من التهديدات المجلجلة ما لا يقل عن أصوات الرصاص.

في تلك البلاد الممتلئة بالأحقاد عرفت سـر العـداوة من أسرار الحياة..

وكان المبارك الذي جعله الله مفتاحا لحل هذا السر رجل من الصالحين.. رأيته منتحيا ناحية عن الناس، وقد تعجبت إذ رأيت الكل مسرورا بعد أن نزلت الهزيمة في ذلك اليوم بأعدائهم.. بينما رأيت الألم يعتصره اعتصارا، فاقتربت منه، وحاولت أن أستدرجه لأعرف سره.. قلت له: ما بالك.. ألم تسمع بالأخبار السعيدة التي جلبها لنا اليوم المبشرون؟

قال ببرودة: تقصد تلك الدماء التي سفكت.. وتلك الأراضي التي اغتصبت.. وتلك الديار التي دمرت..

قلت: أجل.. ولكنها ديار الأعداء، لا ديارنا.

قال: وأي فرق بين ديارنا وديارهم.. وبلادنا وبلادهم.. وأرضنا وأرضهم..؟

قلت: فرق عظيم.. نحن أبناء وطن واحد.. وهم أعداء لنا.

قال: هب أنك لم تكن ابنا لهذا الوطن، بل كنت ابنا لذلك الذي تفرح الآن بما حصل له.. هل كانت هذه الأفراح ستزور قبلك، أم تلك الابتسامة ستزور شفتيك.

لم أجد ما أقول له، فقال لي، والحزن قد طغا على وجهه: كل ما تراه ليس سوى مظاهر لأعداء أخطر وأعظم.. انشغل الخلق بهم، وتركوا الأعداء الحقيقيين الذين لولاهم ما قامت للحروب سوق.

قلت: فمن هم؟

قال: هم أربعة أعداء.. لم يقم سوق العداوة في الدنيا إلا بسببهم.. ولو أن البشر جميعا تخلوا عن عداواتهم المجازية وانصرفوا إليهم لوجدوا في ذلك الشغل عن ذلك الصراع الذي يطحنهم طحنا.

فرحت إذ سمعته يذكر العداوة المجازية التي ذكرها لي معلم السلام.. فلذلك رحت أقول له: أربعة أعداء؟.. من هؤلاء؟.. دلني عليهم عساني أنشغل بهم.

قال: أنا رجل حبب الله إلي الشعر والنظم.. فلذلك جمعتهم في أبيات قلتها.. لقد قلت في عدهم:

إني بليت بأربع ما ... إلا لأجل شقاوتي
إبليس والدنيا ونفسي ... كيف الخلاص وكلهم
إبليس يسلك في ... والنفس تأمرني بكل
وأرى الهوى تدعو إليه ... في ظلمة الشبهات
وزخارف الدنيا تقول ... حسني وفخر

قلت: فأعداء الحياة الأربع إذن هم: الشيطان، والدنيا، والنفس، والهوى..؟

قال: أجل.. ولولا هذه الأربع لم تقم في الدنيا عداوة.. ولم يسفك على الأرض دم..

قلت: فكيف انحصر الأعداء عندك في الأربع؟

قال: أنت تعلم أن الله خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وقد زوده من الطاقات ما يستطيع أن يؤدي به هذه الوظيفة.

قلت: أجل.. وقد ذكر الله ذلك في القرآن..

قال: وأنت تعلم أن تلك الطاقات التي زود بها الإنسان يمكن استثمارها في الخير.. ويمكن استثمارها في الشر؟

قلت: أجل.. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72).. فقد وصف الله بوصفين هما الظلم والجهالة.. وفي وصفه بالظلم دلالة على قدرته على العدل.. وفي وصفه بالجهالة دلالة على قدرته على الحكمة.

قال: ذلك صحيح.. وقد عبر القرآن الكريم عن تلك الاستعدادت الخبيثة بالنفس الأمارة.

قلت: أجل.. وقد نص على ذلك قوله تعالى: إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) (يوسف: من الآية53)

قال: فهذا هو العدو الأول.. وهو نفسك التي بين جنبيك..

قلت: عرفت هذا.. فمن العدو الثاني؟

قال: الشيطان..

قلت: أعرف أن الشيطان أقسم على عداوتي.. ولكني محتار في كيفية اختراقه لذاته.

قال: هو لا يخترق ذاتك التي هي حقيقتك.. وإنما يخترق مطامعك التي تمتلئ بها نفسك.. ألا ترى أنه دخل على آدم عليه السلام من هذا الباب؟

قلت: أجل.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى (طـه:120).. وفي موضع آخر قال تعالى: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) (الأعراف)

قال: لقد رأى في آدم عليه السلام حبه للخلود.. وحبه للملك الذي لا يبلى.. فلذلك أتاه من هذا الباب.

قلت: أجل.. وذلك واضح تدل عليه الآية.

قال: فقد عرفت العدو الثاني.. وعلاقته بالعدو الأول.

قلت: فما علاقة العدو الثالث بالعدوين جميعا؟

قال: العدو الثالث هو الدنيا..

قلت: فما علاقتها بالنفس وبالشيطان؟

قال: هل تعرف السر الذي جعل الشيطان يوسوس

لآدم عليه السلام في الجنة؟

قلت: أجل.. لقـد كـان للجنـة من الجمـال مـا جعـل آدم عليـه السـلام يمتلئ قلبـه محبـة لهـا وحرصـا عليهـا.. ولـذلك استغل الشيطان هذا الحرص، فراح يستثمره في وسوسته.

قال: فالدنيا هي الجنة..

قلت: شتان بين الدنيا والجنة.

قال: صدقت.. ولكن العبرة ـ كما يقـول الحكمـاء ــ بمـا تراه، لا بالحقيقة.

قلت: ما تعني؟

قال: لقد تخيل البشر ـ بسبب قصورهم ــ أن الـدنيا هي كل شيء.. وأنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أجمل منها.

قلت: صدقت.. وقد أشـار إلى هـذا قولـه تعـالى: فَأَمَّا عَـادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَقَـالُوا مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُــوَّةً (فصــلت: من الآية15).. وقــال عن صــاحب الجنــة الظالم: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَـا أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هَذِهِ أَبَداً (الكهف:35)

قال: فالدنيا هي المحل الـذي تحصـل فيـه الوسـاوس.. كما أن الجنة الـتي دخـل إليهـا آدم عليـه السـلام هي المحـل الذي حصلت فيه الوساوس.

قلت: فما علاقة العدو الرابع بهؤلاء الأعداء جميعا؟

قال: العـدو الرابـع هـو الأهـواء.. الأهـواء الـتي امتلأ بهـا تاريخ البشرية.. فأصبحت دينا بدل الدين.

قلت: ألا ترجع الأهواء إلى النفوس؟

قــال: هنــاك نفــوس بســيطة قــد لا تخطــر ببالهــا إلا الوساوس البسيطة.. لكن الأهواء تجعل من النفـوس نفوسـا معقــدة.. وتــتيح للشــيطان بســبب ذلــك من فــرص تنفيــذ مخططاته ما ييسر عليه مهمته.

قلت: هل تضرب لي مثالا يقرب لي ذلك؟

قال: أقرب مثال لذلك هو ما يحصل هذه الأيام بين الجارتين القريبتين.

قلت: تقصد الحرب الدائرة الآن بينكم وبين الدولة المجاورة.

قال: أجل.. فلولا الأهواء لم تقم بيننا أي حرب.

قلت: لم أفهم.

قال: أذكر جيدا أننا كنا في شبابنا نعيش مع من نسميهم الآن أعداءنا مثل الإخوة تماما، كنا نذهب لنفس المدارس، ونقرأ نفس الكتب، ونتردد على نفس المساجد.. ولدي منهم أصدقاء كثيرون.. بل ربما يفوق أصدقائي منهم أصدقائي من هذه الأرض التي لا أزال أعيش فيها.

قلت: ولكن ما الذي حصل؟ وكيف تغيرت الحال؟ وكيف تحول هؤلاء الأصدقاء إلى أعداء؟

قال: بسبب أولئك الأعداء الأربع تحول الأصدقاء إلى أعداء، ثم قامت الحروب، ثم غذيت تلك الحروب بكل ألوان الأسلحة.. ثم نتج عنها كل ما تراه من دماء ودمار وجثث.

1 ـ الهوى

قلت: فهلا حدثتني عن ذلك، وكيف بدأ؟

قال: لاشك أنك تعلم الحروب التي حصلت بسبب ناقة البسوس.

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفها، وهي حرب امتلأت بها كتب التاريخ والأدب.

قال: فما سببها؟

قلت: هم يذكرون أن البسوس كانت امرأة صاحبة عزة ومنعة، وقد استجار بها جار لها من قبيلة أخرى، ومعه ناقة

له.. يقال بأن اسمها أيضا [البسوس].. فرماها رجل من قبيلة أخرى، يقال له [كليب بن وائل] عندما رآها في الأرض التي حماها.. وحينها لجأ صاحب الناقة إلى البسوس، فقامت بإلقاء خطب كثيرة، ملأت قلوب القبائل غلا.. ثم سرعان ما هاجت الحرب بينهم سنين طويلة.. يقال بأنها استمرت أربعين عاما، حصدت من الأرواح ما لا يعلم عددهم إلا الله.

قال: فهل تعرف حرب داحس والغبراء؟

قلت: وكيف لا أعرفها، وهي حرب أسالت دماء كثيرة، خلدها التاريخ، وسجلها الأدباء.. لقد وقعت ــ كما يذكرون ـ بين قبليتي عبس وذبيان، وكان السبب في حدوثها أن قيس بن زهير، وحمل بن بدر، تراهنا على سباق خيول، فازت فيه الغبراء، بحيلة دبرها أصحاب داحس..ثم أدى ذلك إلى أحداث كثيرة متلاحقة سرعان ما وصلت إلى الحرب.. التي استمرت أربعين سنة، لم تنتج حينها في تلك القبائل ناقة ولا فرس، لاشتغالهم بالحرب.

قال: فهل تعلم أسباب الحرب العالمية الأولى؟

قلت: أجل.. هم يذكرون أن السبب المباشر لنشوب الحرب العالمية الأولى حادثة اغتيال ولي عهد النمسا [فرانز فرديناند] مع زوجته من قبل طالب صربي يدعى [غافريلو برينسيب] أثناء زيارتهما لسراييفو.. وبعدها بفترة قصيرة أعلنت النمسا الحرب على صربيا.. ثم سرعان ما بدأت التحالفات الأوروبية تتفاعل، حيث ناصرت روسيا صربيا، وأعلنت الحرب على النمسا؛ فقامت ألمانيا بإعلان الحرب على روسيا.. ثم توسعت دائرة التحالفات مع اتساع دائرة الحرب ودخول العديد من الدول فيها إلى جانب أحد الفريقين.

ويذكر المؤرخون أن الحرب دامت أكثر من أربع سنوات، تحولت خلالها من حرب أوروبية إلى حرب عالمية، بل كان من آثارها الحرب العالمية الثانية، ذلك أنه بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وقعت في انهيار

اقتصادي، جعل الألمان يـأتون بـأدولف هتلـر وحزبـه القـومي إلى الحكم، والذي استطاع بخطاباته النارية أن يحرق العـالم بالحرب العالمية الثانية..

قال: والتي ولدت فيها وبسببها القنبلـة الذريـة، ثم تلتهـا الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي..

قلت: أجل.. فما الغرض من كل هذا؟

قـــال: هـــل تعـــرف أســـباب الاســـتعمار الأوروبي للمستضعفين؟

قلت: هم يذكرون لذلك أسـبابا كثـيرة.. ولكن أهمهـا مـا انتشـر في ذلـك الحين من أفكـار ترتبـط بمـا يطلـق عليـه [العنصـرية العلميـة]، أو [الدارونيـة الاجتماعيـة]، فقـد كـان [ربرت سبنسر] مثلا يذكر أن نظريـة التطـور ليسـت قاصـرة على الصـراع بين أنـواع الحيـوان والنبـات للاسـتمرار في الوجود.. بل إنها تشمل أيضـا الإنسـان والمجتمعـات، ولـذلك أطلـــق على فلســفته لقب [الداروينيـــة الاجتماعيـــة]، وهي فلســفة تــدعو إلى ممارســة كــل الوســائل الــتي تزيــل المستضـــعفين من الوجـــود حـــتى لا يبقى في العـــالم إلا الأقوياء.. فالبقاء لهم وحدهم.. ولذلك لهم أن ينتهبـوا ثـروات الفقراء المستضعفين.. ولهم أن يبيـدوهم.. حـتى لا يبقى في الأرض إلا الأصلح والأقوى.. وهو بالتأكيد ليس سوى (الإنسان الأبيض)، والأوروبي على وجه التحديد.

قال: هل تعرف أسباب..

قاطعته قائلا: أظن أنـك تريـد أن تختـبرني في التـاريخ.. وأبشرك بأني أضعف الناس فيه.. ولـولا أن مـا طرحتـه علي من أسئلة مما يعرفه عوام الناس، ما استطعت أن أجيبك.

قال: لا.. أنا لا أريـد أن أختـبرك.. بـل أردت أن تكتشـف بنفسك أسرار العداوة.. فلا يمكن لأحـد أن يفهم سـر الحيـاة ما لم يفهم سر العداوة.

قلت: وعيت ما ذكرت.. ولكن ما الذي تقصـده من تلـك

الأسئلة جميعا؟

قال: لقد ذكرت لي الكثير من العداوات التي حصلت بين البشر، والكثير من الدماء التي سالت بسببها.. وذكرت لي أن ذلك كله كان نتيجة خطب نارية حولت البشر إلى أعواد ثقاب يحرق بعضهم بعضا.

قلت: أجل.. كلامك صحيح.

قال: أتدري مصدر تلك الخطب والفلسفات التي أنشأتها؟

قلت: أنا أسألك عن ذلك.

قال: إنها الأهواء.. فهي العدو الأكبر للإنسان.. ذلك أنها من يُلبس الباطل لباس الحق، ومن يحول من الأكاذيب والأراجيف قوانين للحياة.. والله لم يرتض للحياة من القوانين سوى الحق.

قلت: صدقت.. فكل أولئك الذين أوقدوا تلك الحروب الظالمة كانوا يبررونها بما يحول منها حروبا مقدسة مشروعة..

قال: أتدري ما سبب ذلك؟

قلت: ما سببه؟

قال: عندما يقتنع الإنسان بعقله ونفسه وكونه مصدر الحقائق.. هنا تنبعث الأهواء، لتشكل قوانينها الخاصة في نفسه، والمجتمع الذي يستطيع أن يؤثر فيه.

قلت: إن لم يستمع الإنسان لنفسه، فلمن يستمع؟

قال: لصوت الحق.. لقد أكرم الله البشر بأصوات كثيرة داعية إلى الحق، لكن البشر أعرضوا عنها، وعن سماعها، وعن سماع الحكماء الذين يدعون إليها، وراحوا يقفون خلف الشياطين الذين زينوا لهم تلك الأهواء.

قلت: صدقت.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال في شأن

المنافقين: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: 16]

قال: ألا ترى كيف اعتبر الله تعالى الإعراض عن رسل الله، وعن أهل العلم، سببا في الطبع على القلوب.. بحيث يُغض بصرها عن الحقائق أن تراها، وتُشل أقدامها عن السير في سراطها المستقيم؟

قلت: أجل.. وقد اعتبر الله تعالى ذلك سببا في اتباع الأهواء، وقيام أصحاب الأهواء الذين يتصورون أنهم يمكن أن يعوضوا البشر عن رسل الهداية الإلهية.

قال: ولذلك كان العدو الأكبر للإنسان هو اتباع الأهواء.. وأصحاب الأهواء.. فهم الذين يوقدون كل حرب.. وهم الذين ينشرون كل فترة.. وهم الذين يدعون لكل ضلالة.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بما ذكره الله تعالى عن السامري، فقد كان صاحب راية من رايات الهوى.. وقد عز عليه أن يعبد قومه الله العظيم المنزه عن كل تجسيم وتشبيه.. فلذلك راح يصنع لهم عجلا يعبدونه بدل الله.. وقد استغل في ذلك فترة غياب موسى عليه السلام.

قال: هو لم يستغل غياب موسى عليه السلام.. وإنما استغل تلك الأهواء الموجودة في نفوس قومه.. ولذلك سرعان ما راح يشعل فيها نيرانه.. لقد سمع قومه، وهم يطلبون من موسى عليه السلام ـ بمجرد خروجهم من مصر ـ أن يجعل لهم إلها كالآلهة التي تعبدها الأمم من حولهم، لأنه عز عليهم أن يعبدوا إلها لا يتمكنون من رؤيته.. وهكذا رآهم يرددون كل حين طالبين من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة.. ولذلك راح يسارع في تلبية أهوائهم.

قلت: هل تقصد أن قادة الأهواء ليسوا فقط أولئك الفلاسفة والمفكرين؟

قال: لا يمكن للفلاسفة والمفكرين والخطباء ورجال

الدين أن يتحركوا حركة دون أن يجدوا مـا يـدعمها في عـالم النفوس.. هم كالشـياطين تمامـا.. لا يزرعـون الأهـواء إلا في الأراض المستعدة لإنباتها.

قلت: صدقت.. فمع أن موسى عليه السـلام تـرك أثنـاء غيابـه أخـاه هـارون عليـه السـلام، وقـد كـان الإسـرائيليون يعرفـون نبوتـه.. لكنهم أعرضـوا عنـه، وراحـوا يتبعـون السامري..

قال: ما حصل في بني إسـرائيل حصـل في كـل الأمم.. حين تعرض عن وصـايا أنبيائهـا، وتضـع بـدلها من الأهـواء مـا يناسبها.. لتحول الدين من دين الله إلى دين البشـر، معجونـا بكل أهواء البشر.

قلت: أرانـا خرجنـا من الحـديث عن سـر العـداوة الـتي حصـلت بين قومـك إلى سـر العـداوات الـتي حصـلت بين البشر.. فهلا حدثتني عن قومك.

قـال: مـا حصـل بين قـومي، ومن يطلقـون عليهم لقب الأعداء، لا يختلف كثيرا عما ذكرته لي من قصة البسـوس، أو داحس والغبراء.

قلت: هل كانت بداية الحرب رهان بين فرسين.. أو قتل لناقة؟

ابتسـم ابتسـامة حزينـة، ثم قـال: أصـحاب الأهـواء لا يكـررون نفس المشـاهد.. بـل يسـتعملون كـل مـرة أدوات جديدة، وأساليب جديدة.

قلت: فما الأسلوب الذي استعملوه معكم؟

قال: لقد كنا ــ كمـا ذكـرت لـك ــ دولـة واحـدة، وشـعبا واحدا، وكانت لنا اهتمامات مشتركة في كل شيء.. ولم يكن يفرق بيننـا شـيء.. إلى أن جـاء ذلـك اليـوم المشـؤوم الـذي دعانا فيه بعضهم إلى الاهتمام بالرياضة، وإنشاء ملاعب لها.

قلت: ما بك يا رجل.. لقد كنت أحسبك عاقلا، وهـل في

الرياضة ما يسوء.. ألا تعلم ما ورد في النصوص المقدسة من الدعوة إلى الحركة والرياضة؟

قال: لقد كنا نمارس الرياضة قبل ذلك.. ونمارسها جميعا.. فقد كانت حياتنا كلها حركة ونشاط.. لكن أولئك لم يريدوا هذا.. وإنما أرادوا شيئا خفيا سرعان ما برز إلى السطح.. ثم بدأ يكبر إلى أن تحول إلى ما تراه.

قلت: فما فعلوا؟

قال: لقد دعوا إلى تأسيس فرق تمثل المناطق المختلفة.. ثم دعوا إلى إجراء المقابلات الودية بين هذه الفرق.. لكنها لم تدم بصيغتها الودية مدة طويلة..

قلت: كيف؟

قال: لقد بدأت تلك اللعبة تتحول من لعبة للتسلية إلى لعبة تتشكل منها العقول الجديدة.. والتي أصبحت تتعامل مع المناطق المختلفة على أساسها..

قلت: لم أفهم.

قال: سأضرب لك مثالا على ذلك.. كنا قبل انتشار تلك الملاعب، والمباريات المرتبطة بها نعرف المناطق المختلفة من خلال علمائها وصالحيها.. وقد كنا إذا قصدنا أي قرية أو مدينة بدأنا بزيارة أهلها من العلماء والصالحين، نستفيد منهم، ونتبرك بنصائحهم.

قلت: فما الذي حصل بعد ذلك؟

قال: بعد ذلك.. وبعد أن تحولت كرة القدم إلى ثقافة وقيم.. استبدلنا احترامنا وتعظيمنا للصالحين باحترامنا وتعظيمنا للاعبين..

قلت: هذا شيء طبيعي.. فما الذي حصل بعد ذلك؟.. وهل كان أولئك اللاعبون هم أصحاب الخطب النارية التي أشعلت بلادكم نيرانا؟

قال: لا.. أولئك اللاعبون لم يكونوا سوى وقود لتلك الحروب.. لقد خرج لنا بعض من يدعون الفلسفة والتفكير.. وراحوا يشحنوننا بكل ألوان العنصرية المقيتة.. لقد ذكروا لنا أن عرقنا مختلف عن عرقهم.. وأنهم لم يكونوا في الأصل سوى عبيد استقدموا لخدمة آبائنا وأجدادنا.. وأنهم سرعان ما احتلوا أرضنا.. ثم طالبونا بعد ذلك بطردهم منها، وتحرير أرضنا منهم.

قلت: وكيف فعلوا مع من أن أصبحوا أعداء لكم؟

قال: مثلما فعلوا معنا.. لقد كانوا يغرسون الأفكار بطريقة ذكية، لتنبت كل أنواع الأشواك والآلام.

قلت: لم أفهم.. هل كان السقي واحدا، والنبات مختلفا؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.. فقد استبدلوا حينها أخوتنا الإنسانية بما سموه الأخوة الوطنية.. حينها أنزلونا من العلاقة السماوية التي تربط بيننا إلى العلاقة الأرضية.. فحولوا من بلدتنا وطنا خاصا بنا.. وحولوا من بلدتهم وطنا خاصا بهم.. ثم راحوا ينشرون فينا التعلق بأرضنا.. وينشرون فيهم ذلك التعلق.. ثم راحوا يوحون لهم بأننا اغتصبنا بعض أرضهم.. ويوحون لنا بأنهم فعلوا ذلك بنا.

قلت: لقد فهمت ما تقصد.. أنت تريد أن الهوى الذي جر قومك إلى الحرب هي الوطنية..

قال: الوطنية المزيفة.. وهي ليست سوى الهوى الذي قامت عليه ما تراه من حروب.. فالحروب العالمية لم تكن إلا وقودا لهذه الوطنية المزيفة.

قلت: لكن حب الوطن شيء راسخ في النفوس..

قال: فرق بين أن تحب وطنك، وبين أن تجعله وقودا لإشعال الحروب، ونشر المظالم.. فقد خلق الله لنا الأرض لنسكنها، ونعرفه من خلالها، ولم يخلقها لنا لتكون ميدانا للحرب والصراع.

قلت: لقد ذكرتني بما ذكره الله تعالى عن أقوام الأنبياء، وكيف توهموا أن الأرض ملكهم، يدخلون من شاءوا، ويخرجون من شاءوا، لقد قال في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِين ﴾(إبراهيم:13)

قال: أنت تذكرني بما يقوله قومي عني؛ فهم يتهمونني كما يتهمون كل من دعاهم إلى الأخوة والإنسانية وإقامة الصلح بكونه مفتقدا للوطنية.. فهم يتصورون أنهم ــ بتلك الأهواء ــ وحدهم المواطنون والوطنيون وغيرهم عملاء أو خونة أو يريدون أن يخرجوا أهل الأرض من أرضهم.

قلت: لقد ذكر الله تعالى هذا أيضا.. فقد ذكر أن الوطنية هي الورقة التي كان يلعب بها فرعون عندما خاطب قومه وعيناه مغرورقتان بالدموع حزنا على الوطن الذي يريد موسى أن يسلبه من المصريين؛ فقد قال يذكر مقولة فرعون لقومه: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: 34، 35]

قال: ولذلك سير الجيوش لحربه.. كما سيرت جميع جيوش العالم من أجل هذا الهوى الذي استغله الشيطان لينفخ نيران العداوة بين الخلق.

2 ـ النفس

قلت: عرفت سرى الهوى، وأثره في إقامة أسواق العداوة بينكم وبين جيرانكم.. فما علاقة النفس بذلك؟

قال: لولا النفوس ما تحركت الأهواء.. فالأهواء لا تنبت إلا في أرض النفوس.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: 40، 41]؟

قلت: بلى.. ولكن لا يمكن لأحدنا أن يعيش من دون نفسه.. وقد قال الله تعالى: ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27)

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ [الفجر: 27 - 30]

قال: صدق الله تعالى.. وأنت ترى أنه ذكر النفس المطمئنة.. وهي تلك النفس التي تخلصت من كل أهوائها، والحجب التي تحول بينها وبين إدراك الحقائق، أو العمل بمقتضياتها.. فلذلك لم يبق للأهواء أي سلطان عليها.

قلت: هل تقصد أن المشكلة ليست في النفوس.. وإنما في الأهواء التي تتسلط عليها؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.. فـ (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه، حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)[1]

قلت: ولكن لم كان الأمر كذلك؟.. ولم كان للنفوس ذلك الاستعداد لتقبل الأهواء؟

قال: حتى يتردد السائرون في الميادين المختلفة، لتبرز حقائقهم، وتكشف سرائرهم، ويميز خبيثهم عن طيبهم.. ولذلك ترى من أصحاب النفوس من يصل إلى الكمال.. ومنهم من ينقطع دونه.. ومنهم من لا يفكر في السير أصلا لرضاه عن نفسه، وشغفه بها، وولهه بكل ما تطلبه منه.

قلت: أنت تشير بذلك إلى أنواع النفوس التي ذكر القرآن الكريم أنها ثلاثة.. فمنها النفس الأمارة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف:53).. ومنها النفس اللوامة التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:2).. ومنها النفس المطمئنة التي ذكرها الله في قوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر:27)

قال: هذه مجامع النفوس.. أما عددها؛ فلا يمكن لأحد من الخلق عدها، ذلك أنه تحدث مع كل نفس من الأنفاس

---

[1] شرح الرندى على الحكم العطائية، ج 2، ص 79..

نفس جديدة، إما ترتقي بصاحبها إلى المعالي، وإما تـنزل بـه إلى السفل.

قلت: كلامك صحيح.. فمراتب الخلق لا نهاية لهـا.. ذلـك أن منهم من يقترب من عالم الشياطين.. بل يتجرد، فيتحول إلى شـيطان رجيم.. ومنهم من يقـترب من عـالم الملائكـة.. ولولا أنه يلبس لباس البشر، لتصوره الخلق ملاكا.

قال: ولذلك جعل الله تعـالى هـذه النشـأة ميـدانا لبحث الإنسان عن نفسه.. وعندما يحددها بدقة، يرحـل إلى النشـأة الأخـرى ليعيش وفـق مـا اختـاره لنفسـه، أو مـا اختارتـه لـه نفسه.

قلت: أنت تذكرني بأحاديث كثيرة وردت عن رسول الله ﷺ يخبر فيها عن الخلق الذين يحشـرون بصـور مختلفـة بنـاء على البناء الذين بنوا عليه أنفسهم.. وقد ذكر رسول اللـه ﷺ كيف يحشر المستكبرون والظلمة، فقال: (يحشر المتكـبرون يوم القيامة أمثال الذر[1] في صـور الرجـال، يغشـاهم الـذل من كل مكان)[2]، وفي رواية: (يبعث الله يوم القيامـة ناسـاً في صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، فيقال: مـا هـؤلاء في صور الذر؟ فيقال: هؤلاء المتكبرون في الدنيا) [3]

قال: صدق رسول الله ﷺ.. والوصـف الـذي وصـفه بهم يتناسب تماما مع الطبيعة التي بنوا عليها أنفسهم في الدنيا.. عندما راحوا يغيرون خلق الله الذي خلقهم عليه..

قلت: هل تقصد أن ما قالـه الشـيطان من وعيـده لبـني آدم بتغيير خلق الله ينطبق على الآخرة، لا على الدنيا؟.. لكن الوعيـد واضـح في دلالتـه على الـدنيا، فقـد قـال اللـه تعـالى

1() قدرٌ ضئيل جدًّا، بالغ الصِّغر، مُثِّل بالنملة الصغيرة أو برأس النملـة أو الهبـاءَة المنبثّة في الهواء.

2() رواه الترمذي (2492)، وأحمد (2/ 179) (6677)، والبخاري في (الأدب المفرد) (557)

3() رواه البزار كما في (مجمع الزوائد) (10/ 337)

مخــبرا عن وعيــد الشــيطان: ﴿لَأَتَّخِــذَنَّ مِنْ عِبَــادِكَ نَصِــيبًا مَفْرُوضًـا (118) وَلَأُضِـلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء: 118، 119]

قال: الدنيا والآخرة وجهان لعملة واحدة.. فمـا تـراه في عالم الدنيا هو عين ما ستراه في عالم الآخرة، ولكن بصورته الحقيقية التي غطتهـا حجب الـدنيا.. ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَـاهِرًا مِنَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِـرَةِ هُمْ غَـافِلُونَ﴾ [الـروم: 6ـ 7]، فالآيـة الكريمـة تشـير إلى أن الغفلـة هي الحجـاب الـذي حـال بين الإنسـان وبين رؤيـة عـالم الآخـرة، وهي الـتي جعلتـه يكتفي بظاهر الحياة الدنيا، دون البحث عن باطنهـا، والـذي تتشـكل منه الآخرة.

قلت: لقد ذكرتني بمقولة قالهـا بعض العلمـاء الحكمـاء، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالْعَـذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـةٌ بِالْكَـافِرِينَ﴾ [العنكبــوت: 54]: (إنّ الحيّـات والعقارب، بل والنيران الـتي تظهـر في القـبر والقيامـة، هي بعينهـا الأعمـال القبيحـة والأخلاق الذميمـة والعقائـد الباطلـة التي ظهـرت في هـذه النشـأة بهـذه الصـورة وتجلببت بهـذه الجلابيب، كما أنّ الروح والريحان والحور والثمار هي الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة والاعتقادات الحقّة الـتي بـرزت في هذا العالم بهذا الزي وتسمَّت بهذا الاسم، إذ الحقيقة الواحدة تختلـف صـورها بـاختلاف الأمـاكن، فتحلّى في كـلّ مـوطن بحلية، وتزيّى في كلّ نشأة بزيّ، وقالوا: إنّ اسم الفاعل في قولــه تعــالى: ﴿يَسْــتَعْجِلُونَكَ بِالْعَــذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَــةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 54] ليس بمعنى الاستقبال بأن يكون المراد أنّها ستحيط بهم في النشأة الأُخرى)[1]

قال: صدق بهاء الدين العاملي.. فما ذكـره هـو الحقيقـة التي نطقت بها جميع النصوص المقدسة.

قلت: إن هذا يعني أن لنا صورتان.. ولنفوسنا حقيقتان.

[1] نقلا عن: بحار الأنوار: 7 / 229.

قــال: لنفوســنا حقيقــة واحــدة.. وهي الــتي نشــكلها باختياراتنا ورغباتنا التي تغذيها الأهواء، أو تغذيها الحقائق.. أما الصـور، فهي الـتي تتحـول بحسـب الوجهـة الـتي وجهنـا لهـا نفوسـنا، والطعـام الـذي أطعمناهـا بـه.. فـإن وجهنـا نفوسـنا للحق، وأطعمناها الطيبـات.. تجـوهرت بجـواهر أهـل الحـق.. وإلا تحولت إلى مستنقع من مستنقعات الخبائث.

قلت: وعيت هـذا.. ولكـني لا أبحث عن علاقـة النفـوس بالنشـأة الأخـرى.. وإنمـا أبحث عن النفـوس وعلاقتهـا بهـذه النشأة.. أنا أبحث عن علاقة النفوس بسـر العـدواة.. ولـذلك أنتظر منـك أن تـذكر لي دور النفـوس في الحـرب الحاصـلة بينكم وبين جيرانكم، كما ذكرت لي دور الأهواء في ذلك.

قال: لولا النفوس لما كـانت الأهـواء.. فتلـك الأهـواء لم تجد من يرددها إلا النفوس الأمارة الممتلئة بالخبث.

قلت: ولكن.. هل كل نفوس بلدتكم من هذا النوع؟

قال: لا.. ولكن كل الطيبين غُيبوا عن السـاحة.. بعضـهم قتـل، وبعضـهم سـجن، وبعضـهم شـوه.. ذلـك أن النفـوس الأمارة تستعمل كـل الوسـائل لتحقيـق غاياتهـا.. فهي تـركب كل المطايا.. وتستغل كل الشياطين لتنفيذ مآربها.

قلت: لم أفهم ما تقصد؟

قال: لقد ذكرت لك أن تلك الأهـواء بـدأت بلعبـة.. كـان يمكنها أن تظل لعبة للتسلية.. لكنها تحولت إلى ثقافـة وفكـر ومبادئ.. وهكذا تحول كـل شـيء يغـذي النفـوس إلى أدوات لغرس الفتنة.

قلت: عــرفت هــذا.. ولكن ذلــك هــو دور الأهــواء في العداوة.. فما دور النفوس؟

قال: أنت تعلم أن أخطر النفوس وأبعدها عن الحق تلك النفوس التي تشتهي السلطة والرئاسة، وتضحي في سـبيلها بكل شيء.

قلت: أعلم ذلك.. وهل مصائبنا إلا من ذلك.. وقد أشار إلى هذا المعنى تلك الآيات الكثيرة التي تذكر الملأ ودورهم في مواجهة الأنبياء عليهم السلام، ذلك أن أولئك الملأ قد أشبعت نفوسهم حب السلطة، ولذلك خشوا أن تتحول عنهم إلى الأنبياء؛ فراحوا يحاربونهم.

قال: حب السلطة لا يدفع إلى ذلك فقط.. بل قد يصل بصاحبه إلى ادعاء الألوهية.

قلت: بلى.. لقد ذكر الله تعالى ذلك فقال حاكيا عنه: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)﴾ [النازعات: 21 - 24]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: 38]

قال: وهكذا النفس.. ففرعون لم يكن سوى نموذج للنفس الأمارة بالسوء في قمة عنفوانها وطغيانها.

قلت: هل تقصد أن النفس في طغيانها تردد ما ردده فرعون من دعواه الألوهية؟

قال: أجل.. بل إنها لا ترضى بالشرك، ولذلك، فهي تردد في كل حين مع فرعون ومع كل الطواغيت قولهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].. ولذلك فهي تلبس من الألبسة المختلفة ما تعبد به من خلالها.

قلت: وعيت هذا.. ولكن كيف حصل هذا بين قومك، وكيف جلب العداوة لهم؟

قال: لقد كنا قبل قيام هذه الفتن بيننا نعيش تحت إمرة قيادة حكيمة مشكلة من إخواننا في البلدة الأخرى.. وبعد أن حصلت تلك النزاعات بيننا وبينهم بسبب تلك الكرة المشؤومة، دعا قومنا إلى التمرد على تلك السلطة، لا لكونها لم تكن حكيمة، وإنما لكونها تنتمي لأرض غير أرضنا، وتسري في عروقها دماء غير دمائنا.. ثم ما لبث أن أوجد

ذلـك نفوسـا فرعونيـة تحن إلى السـلطة؛ فأسـرعت تقـترح نفسـها، ثم وجـدت من أصـحاب المطـامع من يجيب نـداءها طمعا في هباتها وصلاتها.. ثم سـار الرعـاع يتبعـونهم، وبـذلك بدأت الحرب، ولا يمكن أن تنتهي أبدا.

قلت: أنت لم تـذكر نفس فرعـون فقـط.. بـل ذكـرت نفوسا أخرى.

قال: لا يمكن لنفس فرعون أن تنفذ أهواءها ما لم تجـد من يستمع لها، ويخضع لمطالبها.. لقد ذكر اللـه تعـالى ذلـك، فقال عن سبب طغيان فرعون واستبداده: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 54]

قلت: هـــل تقصـــد أن الشـــعوب هي الـــتي تصـــنع المستبدين؟

قـال: أجـل.. فهنـاك نفـوس خسيسـة تحب الاسـتبداد، وتحن إلى العصـا، وتخضـع للمطـامع؛ فلـذلك سـرعان مـا يستولي عليها الظلمة، ويحركونها لتحقيق مآربهم.

قلت: لقد ذكر الله تعالى ذلك عندما تحدث عن الغوغـاء والأتباع الذين يصيحيون يوم القيامة في وجـوه المسـتكبرين، وهم يطلبون منهم نجدتهم من تلك المهالك، فقـال: ﴿وَبَـرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَـالُوا لَـوْ هَـدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَـوَاءٌ عَلَيْنَـا أَجَزِعْنَـا أَمْ صَـبَرْنَا مَـا لَنَـا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21]

قال: هل رأيت إلى هؤلاء.. وكيف تشكلت نفوسهم بتلك الضعة والتبعية حتى أنهم في تلك المواطن الصعبة، وبعـد أن مـروا بمـا مـروا بـه من أهـوال بقيت لهم بعض الثقـة في الرؤوس التي اتبعوها، ولهذا راحوا يستجدونها أن تنقذهم؟

قلت: لقـد وعيت هـذا.. فـالأهواء لم تكن تنتشـر إلا بين النفـوس بمختلـف أنواعهـا.. نفـوس المسـتبدين.. ونفـوس أصحاب المطامع.. ونفوس الغوغاء الذين يصدقون كل ناعق.

قال: أجل.. فالحرب الجارية بين بلدينا ليس لها ما يدعمها من العقل، ولا من الحكمة.. بل دعامتها الوحيدة هي النفوس التي تمردت عن فطرتها.. فعوقبت بأفعالها، وتمردها.

3 ـ الدنيا

قلت: عرفت سر النفس، وعلاقتها بالهوى، وأثرها في إقامة أسواق العداوة بينكم وبين إخوانكم.. فما علاقة الدنيا بذلك؟

قال: الدنيا هي المضمار الذي تتسابق فيه النفوس، وترفع فيه رايات الأهواء.

قلت: ولكن الدنيا أيضا هي المزرعة التي نبذر فيها الأعمال الصالحة، التي نجنيها بعد ذلك في جنان الله الواسعة.

قال: أجل.. وذلك أصل الدنيا.. فهي دار الضيافة الإلهية لعباده، ليعرفوه من خلالها، ثم يعرجوا منها إليه بعد أن ينجحوا في كل الاختبارات التي تجري عليهم فيها.

قلت: لقد ذكرتني بكلمات جميلة، وحكم جليلة للإمام علي، قالها مخاطبا قوما بالغوا في ذم الدنيا، من دون تفريق بين دنيا الصالحين المترفعين، ودنيا العابثين المتثاقلين، لقد قال يخاطبهم: (ما بال أقوام يذمّون الدنيا وقد انتحلوا الزهد فيها؟!.. الدنيا منزل صدق لمن صدّقها، ومسكن عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، مسجد أنبياء اللّه، ومهبط وحيه، ومصلّى ملائكته، ومسكن أحبّائه، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا منها الجنّة.. فمن ذا يذم الدنيا وقد آذنت ببينها؟! ونادت بانقطاعها، ونعت نفسها بالزوال، ومثّلت ببلائها البلاء، وشوّقت بسرورها إلى السرور، وراحت بفجيعة، وابتكرت بنعمة وعافية، ترهيبا وترغيبا، فذمّها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون، خدمتهم جميعا فصدقتهم، وذكّرتهم فاذّكّروا، ووعظتهم فاتّعظوا، وخوّفتهم

فخافوا، وشوقتهم فاشتاقوا) [1]

قـال: بـوركت.. فهـذه الكلمـات توضـح حقيقـة الـدنيا، وجبلتها التي جبلها اللـه عليهـا؛ فاللـه تعـالى لم يخلـق الشـر ابتداء، ولكن الخلق هم الذين حولوا الخـير إلى شـر، وحولـوا النعمة إلى نقمة، وحولوا العافية إلى بلاء.

قلت: لقد ذكرتني بحـديث لرسـول اللـه ﷺ يقـول فيـه: (إن ممـا أخـاف عليكم بعـدي: مـا يفتح عليكـم من زهـرة الدنيـا وزينتها)، فقيل لـه: أوَيـأتي الخيـر بالشـر يـا رسـول الله؟ فقال ﷺ: (إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع يقتل حَبَطًا[2]أو يُلم[3]، إلا آكلة الخْضِر[4]، فإنها أكلت، حـتى إذا امتدت خاصِرتاها استقبلت عين الشـمس، فثلَطَت[5]، ثم رتعت)

وبعد أن قدم رسول الله ﷺ هذا التشـبيه قـال لهم: (إن هذا المال خَضِرٌ حلو، ونعم صـاحب المسـلم هـو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل.. وإن من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة)[6]

قال: صدق رسـول اللـه ﷺ فهـذا الحـديث يـبين حقيقـة الدنيا.. فهي مثـل الأرض الـتي يمكننـا أن نـزرع فيهـا العنب،

---

[1] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 352- 357 الخطبة رقم(117)

[2] () الحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض.

[3] () أو يلم: ألمَّ به يلمُّ: إذا قاربه ودنا منه. يعني: أو يقرب من الهلاك.

[4] () الخضِر: ضروب من النبات مما له أصل غـامض في الأرض كالنصـيِّ. وليس من أحرار البقول وإنما هو من كلأ الصيف. والنَّعمُ لا تسـتكثر منـه وإنمـا ترعـاه لعـدم غيره.

[5] () فثلطت: ثلط البعير يثلط: إذا ألقى رجيعه سهلاً رقيقًا.

[6] () رواه البخاري ومسلم.

ويمكننا أن نزرع فيها الشوك.. ويمكننا أن نزرع فيها أصناف السموم.

قلت: فكيف كانت الدنيا سببا لإشعال الحروب بينكم وبين إخوانكم؟

قال: لقد تحولت الدنيا إلى مضمار تتسابق فيه النفوس الممتلئة بالأهواء.. ولذلك راح كل فريق من أهل بلدنا ومن جيراننا يريد أن ينال منها أكبر قدر يستطيعه.. وحينها بدأ الصراع.

قلت: ولم بدأ الصراع.. والدنيا متسعة للجميع؟

قال: عندما تمتلئ النفوس بالمطامع لن يروي غليل محب الدنيا كل الكون..

قلت: صدقت.. وقد ذكرني حديثك هذا بقوله ﷺ: (لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ، فقد أشار إلى علة الحرص والطمع، والذي منه تنشأ دنيا المنحرفين المتثاقلين إلى الأرض الذين يتوهمون أنها الغاية، وأن ما بعدها العدم.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بقوله تعالى عن ذلك المتثاقل إلى الدنيا، والراغب فيها، والذي تحول بسبب إلى كلب من الكلاب، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون (176) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُون﴾ [الأعراف:175-177]

---

[1] أحمد (5/218، رقم 21956) قال الهيثمى (7/140) : رجاله رجال الصحيح. والطبرانى (3/248، رقم 3303)

قال: صدق رسول الله ﷺ.. وهذه الآيات الكريمة توضح لـك دور الـدنيا والتنـافس فيهـا في التحـريش بين البشـر، وإشاعة العداوة بينهم.. ذلك أنهم ينتكسون بسبب ذلك الحب انتكاسة خطيرة تحولهم من بشر محترمين إلى كلاب لاهثين.

قلت: لقـد ذكـر رسـول اللـه ﷺ دور الشـح في إهلاك القرى، فقال: (اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامـة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ، وهذا الحـديث يـبين لـك دور الطمع في الصراع.. ولو أنـك بحثت في كـل حـروب العـالم، فستجد حب الدنيا والطمع فيهـا والحـرص عليهـا هـو الوقـود الذي أشعل كل الحروب.

قلت: صدقت.. فكل أنواع الاستعمار لم تكن سوى نزوة نفـوس شـرهة ممتلئـة بالمطـامع، ولـذلك راح المسـتعمرون يضـمون يحرمـون المستضـعفين من قـوتهم ليضـموه إلى ترفهم.

قال: لقد ذكر الله تعـالى ذلـك عنـد بيانـه لأسـباب هلاك للقـرى، فقـال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَـا أَنْ نُهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَـدْمِيراً﴾ (الاسـراء: 16).. ألا تعلم السبب الذي جعل الترف حـائلا بين المـترفين والحق؟

قلت: ما هو؟

قال: الترف.. فالمترف مستغرق في ترفه مسـتعبد لـه، وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُـرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُـو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَـعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَـا أُتْرِفُـوا فِيـهِ وَكَـانُوا مُجْـرِمِينَ﴾ (هـود:116)، فالمترفين استهواهم ترفهم، فاستعبدهم من دون الله.

---

[1] () البخـارى فى الأدب المفـرد (1/170، رقم 483) ، ومسـلم (4/1996، رقم 2578)

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ: (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)[1]

قال: ولذلك كان حب الدنيا والطمع فيها والحرص عليها عبودية لها.. وكانت بذلك أساس كل خطيئة..

قلت: ألهذا جعلها الله طعما لتمييز أعدائه من أحبابه؟

قال: أجل.. فالمطامع هي التي تميز أهل الحق من أهل الباطل.. ولذلك ذكر رسول الله ﷺ هوان الدنيا على الله ليبين أنها ليست سوى طعم..

قلت: لقد ذكرتني بأحاديث كثيرة كان رسول الله ﷺ يذكر بها كل حين.. فقد كان يقول: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)(2)، وكان يقول: (ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يمشى أحدكم إلى اليم فأدخل أصبعه فيه فما خرج منه فهو الدنيا)(3)، وكان يقول: (ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)(4)

قال: صدق رسول الله ﷺ.. ونصح... وبلغ.. ولو أن الأمة اتبعت هديها ما وقعت في كل تلك الحروب التي فرقت صفها وشتت شملها..

1() البخارى (3/1057، رقم 2730) ، وابن ماجه (2/1385، رقم 4135)

2() الترمذى (4/560، رقم 2320) ، والطبرانى (6/157، رقم 5840)، والبيهقى فى شعب الإيمان (7/325، رقم 10465)

3() الحاكم (4/355، رقم 7898) ، وقال: صحيح الإسناد.

4() أحمد (1/301، رقم 2744) ، والطبرانى (11/327، رقم 11898) ، وابن حبان (14/265، رقم 6352) ، والحاكم (4/344، رقم 7858) وقال: صحيح على شرط البخارى.

قلت: لقد ذكر الله تعالى ذلك عن الأمم وتخلفها عن أنبيائها بسبب حبها للدنيا، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]، وذكر في مقابلهم الصالحين الذين تمسكوا بالكتاب بدل التمسك بالدنيا، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170]

4 ـ الشيطان

قلت: لم يبق من الأعداء إلا الشيطان، وأظن أنك بحديثك عن النفس والهوى والدنيا قد أخرجت الشيطان، حيث لم يبق له أي دور مع هؤلاء الأعداء الثلاثة.

قال: لا.. الشيطان هو الركن الأكبر من أركان العداوة.. ذلك أنه مشعل نيران الفتن، وموقدها، وهو الذي يحول بين الخلق وإطفائها.

قلت: ألم تذكر أن ذلك دور النفوس المغذاة بسموم الأهواء؟

قال: وهل تعلم مصدر الأهواء؟

قلت: النفوس..

قال: النفوس مستعدة للخير بقدر استعدادها للشر، ولذلك إن وجدت من ينفخ فيها روح الخير، ويشجعها عليه، لاكتفت به.

قلت: فهل هناك من يرجح جانب الشر فيها، ويحثها عليه؟

قال: أجل.. وهو الشيطان.. فكل ما تراه من غواية وضلالة وفتن وأهواء للشيطان يد فيها.. فمهمته هي الغواية.. ألم تسمع لقوله تعالى، وهو يخبرنا عن وعيد الشيطان

للإنسـان: ﴿ قَـالَ رَبِّ بِمَـا أَغْـوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39، 40]

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: الآيتان الكريمتان تخبران أن الشـيطان هـو مصـدر الغواية بما يملكه من خبرات وقدرات على التزيين والإغـواء، ولذلك فإن كل ما تسمع بـه من فلسـفات وأفكـار ومـدارس تصد عن الله، أو تنحرف بالبشرية عن القيم التي دعـا إليهـا، مصدرها الشيطان.. ألم تعلم كيف استطاع بحيلـه ودهائـه أن يخرج آدم عليه السلام من الجنة؟

قلت: بلى.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿فَوَسْـوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَـالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِـدِينَ (20) وَقَاسَـمَهُمَا إِنِّي لَكُمَـا لَمِنَ النَّاصِـحِينَ (21) ﴾ [الأعراف: 20 - 22]

قـال: لقـد ذكـر اللـه تعـالى في هـذه الآيـات الكريمـة الكيفية التي اسـتطاع أن يتوصـل بهـا إلى آدم عليـه السـلام، فهو قد قاسمهما، وصـور لهمـا وساوسـه بصـورة النصـح، ثم علل النهي الإلهي عن أكل الشجرة، بأنه ليس نهيا مطلقا، أو لأجل النهي، وإنما هو معقول المعنى.. ثم ذكر لهمـا أن ذلـك النهي معلل بأن يصيرا ملكين أو يصيرا من الخالدين.

قلت: أو ربما قال لهمـا مـا يقولـه لنـا الكثـير من الـذين يدعون إلى التسـاهل في مراعـاة أحكـام الشـريعة: إن اللـه الرحيم بكما ما كان ليمنعكما من هذه الشجرة وأنتما ضيفان عنده، فاتهما فهمكما، ولا تتهما ربكما.

قال: أو ربما قال لهمـا مـا قالـه لنـا دعـاة الفتنـة الـذين حرضوا على الصراع بيننا وبين إخوتنـا: إن النهي الـذي صـدر لكما من ربكما لم يكن نهيا مطلقا، بل هو مقيـد بأكـل جميـع الشجرة، لا بمجرد تذوق ما فيها.. أو قـال لهمـا: إن النهي لم يكن عامـا في جميـع الأوقـات، بـل كـان مخصوصـا بـأول

دخولكما الجنة لعدم تناسب أكلها مع أجهزتكم الهاضمة حينذاك.. أو قال لهما: لقد ورد النهي قبل نضجكما وصلابة يقينكما، أما بعد ذلك فلا تكليف بعد يقين ولا حركة بعد معرفة.

قلت: أبهذه الحيل استطاع أن يلقي في روعهما مخالفة أمر الله؟

قال: أجل.. لقد عرف أن في نفسيهما حبا للخلود، وحبا لأن يكونا ملكين، ولذلك راح يستعمل حيله في هذا الجانب.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22].. فحبل الشيطان الممدود للإنسان هو تلك الأوهام التي تجعله مغترا، بعيدا عن حقيقته.

قلت: أنت تصور لي الشيطان، وكأنه المركز الذي تبث منه الفتن.

قال: أجل ذلك صحيح.. فهو مثل تلك القنوات التي تبث كل أنواع الميوعة والضلال والفتن.. وأي نفس أشربت ذلك، وتأثرت به، تحولت إلى جندي من جنود الشيطان، وتابع من أتباعه.. وقد تتحول بمرور الأيام إلى شيطان رجيم لا يختلف عن شيطان الجن في شيء.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى عن الوسائل التي يستعملها الشيطان في الغواية، فقد قال: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: 64]

قال: أجل.. فكل ما تراه من قنوات فتنة، ورؤوس ضلالة هم تلاميذ وأدوات للشيطان يستعملها للغواية.. فالشيطان لا يكتفي بتضليل البسطاء، بل هو يستعمل كل الوسائل للوصول إلى الكبار، وتحويلهم إلى شياطين يؤدون جميع أدواره.

قلت: ولكن كيف يستقيم ما ذكرت مع رحمة الله

بعباده.. كيف يأذن للشيطان في أن يضل الخلق من غــير أن يدركهم بالهداية؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدًى فَمَنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]؟

قلت: بلى..

قال: فالله تعالى وضع أعلاما كثيرة للهداية مقابل غواية الشيطان.. وأول تلك الأعلام ما وضعه في نفس الإنسان من حب للخير، وميل إليه.. ففطرة الإنسان السليمة لا تميل إلى الشر، ولا تجنح إليه.

وهكـذا أرسـل اللـه تعـالى الرسـل عليهم السـلام.. فلم يترك أمة إلا وأرسل فيها من الرسل، وأنزل عليها من الكتب ما يدلها على السراط المستقيم.

قلت: ولكن مع ذلك كله؛ فـإن غوايــة الشـيطان دائمــة، وهو فوق ذلك يرانا من حيث لا نراه.. ويـزين لنـا من الأهـواء ما نتوهم أنه من بنات أفكارنا.

قال: والله تعالى كذلك برحمته وهدايته لخلقه جعل لكل إنسان واعظا وملكا يوجهه ويحـذره من وسـاوس الشـيطان، ومن كل تزييناته.. لقد قـال رسـول اللـه ﷺ يـذكر ذلـك: (إن للشيطان لمة[1] بابن آدم وللملـك لمـة فأمـا لمـة الشـيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأمـا لمـة الملـك فإيعـاد بـالخير وتصديق بالحق فمن وجـد ذلـك فليعلم أنـه من اللـه فليحمـد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان) [2]

قلت: فدور الإنسان إذن هو الترجيح بين كلا المصدرين: مصدر الهداية ومصدر الضلالة.

1() (اللمة) : المرة الواحدة من الإلمـام، وهـو القـرب من الشـيء، والمـراد بهـا: الهمة التي تقع في القلب من فعل الخير والشر والعزم عليه.

2() رواه الترمذي (2988) ، و النسائي في الكبرى، تحفة الأشراف (9550)

قال: صدقت.. وذلك ما يحدد حقيقة الإنسان.. فـإن جنح للشـيطان ووساوسـه تحـول إلى شـيطان رجيم.. وإن جنح للملاك وإلهاماته أفـاض اللـه عليـه من العصـمة والحفـظ مـا يجعله كالملائكة في طيبته ونوره وصفائه.

قلت: لقد ذكرتني بكلمة للغزالي في هذا المعنى يقـول فيها: (والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك، ولقبول آثـار الشـيطان، صـلاحا متسـاويا ليس يـترجح أحـدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهـوى، والإكبـاب على الشهوات، أو الإعـراض عنهـا ومخالفتهـا. فـإن اتبـع الإنسـان مقتضى الغضـب والشـهوة ظهـر تسـلط الشـيطان بواسـطة الهوى، وصار القلب عش الشـيطان ومعدنـه، لأن الهـوى هـو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهـد الشـهوات ولم يسـلطها على نفسه، وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام، صـار قلبـه مستقر الملائكة ومهبطهم، ولما كان لا يخلو قلب عن شـهوة وغضب، وحرص وطمع وطول أمل، إلى غير ذلك من صـفات البشرية المتشعبة عن الهـوى، لا جـرم لم يخـل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة) [1]

قال: ولذلك فإن الشيطان لا يتصرف في نفس الإنسان إلا بعد أن يأذن له الإنسان في ذلك.. وذلك عندما يسير وفـق مقتضى شهوته وغضبته، ويترك السير وفق ما يقتضيه الحق.

قلت: ألهذا يتبرأ الشـيطان يـوم القيامـة من كـل الـذين يتهمونه؟.. فقد قال الله تعالى يذكر خطبته في ذلك: ﴿وَقَـالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ وَمَـا كَـانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَـا بِمُصْـرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَـرْتُ بِمَـا أَشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْـلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]

قـال: أجـل.. بـل إن اللـه تعـالى ذكـر براءتـه منهم في الـدنيا.. ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿كَمَثَـلِ الشَّـيْطَانِ إِذْ قَـالَ

---

[1] إحياء علوم الدين، 3/ 49.

لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16]

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: إن غاية الشيطان الكبرى لا تقتصر على تلك التضليلات البسيطة.. بل إن طموحه الأعظم هو قمع كل منابع الخير في نفس الإنسان، وإغلاق كل منافذ الفكر فيه، ليطبع على قلبه، ويختم على عقله، فلا يرى الحق حقا، ولا يرى الباطل باطلا، بل يتحول كل شيء في ذهنه إلى النقيض؛ فيرى الحق باطلا، والمعروف منكرا.

وهنا ـ كما يذكر الله تعالى ـ يتخلى الشيطان عن هذا الذي أضله ضلالا كليا، لأن هذا الإنسان لم يعد إنسانا، بل صار شيطانا في صورة إنسان، وهو حينها أخطر من الشيطان نفسه، لأن عمل شيطان الجن عمل خفي، بينما عمل شيطان الإنسان عمل ظاهر للعيان، قد نراه على شكل كتب نقرؤها، أو مناهج دراسية نعتمدها، أو أفلام نشاهدها، أو سلوكات نتصور أنها ترمز للحضارة والتطور والتقدم.. بينما هي في حقيقتها لا ترمز إلا للضلال والتيه والشيطنة.

قلت: ألهذا يحذرنا القرآن الكريم من اتباع أي خطوة من خطوات الشيطان، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21]

قال: أجل.. فكل من لم يحاكم خواطره وأعماله وأفكاره إلى معايير الحق، سيسير لا محالة في طريق الشيطان.. وقد يصل في سيره إلى مرحلة اللارجوع، وحينها ينتكس انتكاسة عظمى، يتحول بموجبها إلى شيطان في صورة إنسان.

قلت: أرانا ابتعدنا عن تحليل أسباب العداوة بين قومك.

قال: لا.. لم نبتعد.. بل نحن نبحث في جذور العداوة وأساسها.. ذلك أن الشيطان استطاع أن يستخلص من بيننا أصحاب نفوس شرهة، ملأها بالأهواء، ثم صار يلقنها كل حين كل ما تعلمه من صنوف الغواية إلى أن صارت عميلة له تؤدي كل أدواره.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48]

قال: أجل.. الشيطان بعد أن يحرش بين البشر، ويشعل نيران العداوة بينهم، ينتحي جانبا، ليتفرج على المهازل التي يقعون فيها، وهو يضحك من خفة عقولهم.

***

بينما كنا مستغرقين في تلك الأحاديث وأمثالها، إذ سمعنا جلبة كبيرة في الشارع، ثم سرعان ما اجتمع الناس.. وإذا بالخطباء والشعراء يتقدمون إلى منصة كبيرة، وهم يرقصون فرحا لتلك الانتصارات الوهمية التي حققوها.. ولم يؤلمني شيء كما آلمني أولئك الذين يتكلمون باسم الله، لينفخوا في نيران العداوة بدل أن يطفئوها.

وآلمني أكثر من ذلك أنهم بمجرد أن رأوا صاحبي أخذوا يصيحون في الناس: ها هو العميل الذي حذرنا من هذه الحرب، تعالوا لنقدم رأسه قربانا لانتصاراتنا.

اجتمع الناس عليه، ورموه أرضا، ثم أخذوا يجرونه، وهم يكبرون ويهللون، وينشدون أناشيد النصر.

لم تكن لي حينها الجرأة على تخليصه أو الدفاع عنه، لأني أعلم أنهم سيفعلون بي مثلما يفعلون به، فلم يكن لأولئك من عقول تستطيع السماع ولا التفكير، وكيف تستطيع ذلك، وهي غارقة في نشوة تلك الانتصارات

المزيفة.

ما هي إلا أيام قليلة، وبعد أن غادرت تلك البلدة، حتى سمعت بأن جارتهم المهزومة عقدت عقدا خطيرا مع الدولة التي كانت تستعمرهم، وكان ذلك العقد ينص على قيام وصاية تامة للدولة المستعمرة على تلك البلدة وجارتها.. وكانت تلك الوصاية استعمارا جديدا قضى على كل المنجزات التي حققتها كلتا البلدتين في الوقت الذي كانتا فيه متحدتين.

ومن العجيب أني بعد سنوات من تلك الحادثة وما عقبها سمعت أن تنظيما قويا قام في مواجهة الاستعمار، وأنه شكل من أبناء كلا البلدتين، وكان يضم فروعا مختلفة، منها السلمي الموجه لتوعية الناس، ومنها المسلح الموجه لضرب العدو المستعمر.

والأعجب من ذلك كله أن الأمين العام لذلك التنظيم لم يكن سوى صاحبي الذي أهين أشد إهانة، واعتبر عميلا.. لكنه استطاع بحكمته وبصيرته أن يجمع الإخوة المتصارعين، وأن يواجه بهم عدوهم الأكبر، وأن يقدم أثناء مواجهته له أروع الدروس في القيادة والبذل والتضحية.

ومصدر ذلك كله هو علمه بالأعداء الحقيقيين، والذين وجه إليهم كل سهام حربه، واستطاع بذلك أن يحقق الكثير من الانتصارات ليس على الأعداء المزيفين فقط، بل على الأعداء الحقيقيين أيضا.

أسرار الصداقة

قلت: حدثتني عن أسرار العـداوة.. فحـدثني عن أسـرار الصداقة.. وعلاقتها بأسرار الحياة.

قال: بعد أن كشف الله لي من أسرار العـداوة مـا شـاء أن يكشفه لي.. رحت أبحث عن أسرار الصداقة..

وقـد دعـاني إلى ذلـك البحث أني كنت أعلم علم اليقين أن الله ما أودع في فطـرتي الحـنين إلى اتخـاذ الأصـدقاء إلا وقد وفر لي في هذه الحياة من يصلح أن أتخذه صديقا..

علمت ذلـك علم اليقين.. لكنـه لم تنكشـف لي أسـرار ذلك، ولا كيفياته إلا بعد تلك الرحلـة الـتي سـرتها في الأرض، وكنت فيها كذلك الصـحفي الجـوال الـذي أراد أن يحقـق في قضية من القضايا المعقدة، ولذلك اضـطر لأن يلبس في كـل مرة لباسا جديدا ينسجم مع القضية التي يريد التحقيق فيها.

وقد شاء الله أن يكون أول من ألتقي بهم ـ أثنـاء بحـثي عن أسرار الصداقة ـ نفـرا من الشـعراء، وأنت تعـرف قـدرة الشـعراء على تصـوير الواقـع.. وقـد رأيت منهم جميعـا من التشـاؤم مـا ملأني رغبـة عن الصـداقة.. وعن جميـع أسـرار الصداقة..

كـان أولهم شـاعرا، رأيتـه عنـدما زرت قبيلـة خزاعـة.. وكان يضع كلتا يديه على جميع خديه، وهو يردد بحزن قائلا:

أيا رب كل الناس أبناء ... أما تعثر الدنيا لنا

وجوه بها من مضمر ... ذوات أديم في

إذا اعترضوا دون اللقاء ... قذى لعيون أو شجى

وإن أظهروا برد الوداد ... أسروا من الشحناء

ألا ليتني حيث انتوت ... بأقصى محل في

أخو وحدة قد آنستني ... بها نازل في

فذلك خير للفتى من   بمسبعة من صاحب

اقتربت منه، وسألته عن سره، وسر تشاؤمه؛ فراح ينشد من غير أن يلتفت لي:

وصاحب كان لي   أشفق من والد على
كنّا كساق تسعى   أو كذراع نيطت إلى
حتّى إذا دانت   عظمي وحلّ الزّمان
ازورّ عنّي وكان   طرفي ويرمي

صحت فيه: ما بالك هلا حدثتني كما يحدث الخلق بعضهم بعضا.

نظر إلي، وقال:

أشرّق أم أغرّب يا   وأنقص من ذمامي
عدتني عن نصيبين   فبختي أبله فيها
وخلّفني الزّمان   وجوههم وأيديهم
لهم حلل حسنّ   وأخلاق سمجن
ألا ليت المقادر لم   ولم تكن العطايا

تركته بعد أن يئست من أن أستفيد منه شيئا، لكني ذهبت إلى شخص ذكر لي أنه الصديق الذي سبب له كل ذلك الاكتئاب، وعندما التقيت به وجدته لا يختلف عنه في الشكوى، ولا في الاكتئاب، فقد قال لي عندما سألته عنه، وعن سر العداوة التي حصلت بينه وبين صديقه:

وخليل لم أخنه   في دمي كفيه ظلماَ
كان في سري   لست عنه في مهم
ستر البغض بألفاظ   وادعى الود بغش
إن رآني قال لي   غبت عنه قال شراً
ثم لما أمكنته   حمل السيف على

وأراد الروح لكن قدر أيقظ من كان

طلبت منه أن يترك الشعر، ويحدثني كما يحـدث الخلـق بعضهم بعضا، فنظر إلي، وقال:

شرّدتني خيانةٌ من أنا مستسلمٌ له وهو

مضمرٌ للنفاق مبطُنٌ بغضه وباديهِ

قلت يوماً له وإن هُ فعال أتى بها أنتَ

قال: للمزح قلتُ ذا قلتُ للثلبِ قال ما

شيمةُ الكلب حفظه وعن الحيِّ في دجا

يحفظُ الجار للجوار ساهِرَ المقلتين يحنوهُ

يرقُدُ النائمون أمنا خائفُا هلكهم يحاكيهم

وتر الكلب في ويجيب اللهيف والنار

وتراه ينابحُ الكلب وإلى الصوت في دجا

فلماذا أنحَستَه الحظّ لِمْ تُشِن حُسنَه وما

تركته، وانصرفت.. وفي بلدة المعرة من بلاد الشـام التقيت شاعرا مزج بين الفلسفة والشعر، كان ممتلئا شؤما، كان يقـال له (أبو العلاء)، سمعته ينشد، وعيناه تسحان بالدموع:

ليس الذي يُبكى على مثل الذي يُبكى

قالوا فلانٌ جَيِّدٌ لصديقه لا يكذبوا، مافي

فأميرهمْ نالَ الإمارةَ وتقيهمْ بصُلاتِه

كنْ من تشاءُ مُهجَّناً أو وإذا رزقتَ غنىً

واصمتْ فما كثرَ الكلامُ إلا وظُن بأنه متزيدُ

أردت أن أكلمـه.. فأشـاح بوجهـه عـني هـو الآخـر.. وراح يقول(1):

كم صديقٍ كنتَ منه غَرَّني منهُ زماناَ

---

(1) هذه الأبيات في الأصل لمحمد بن إبراهيم البصري.

كان يلقاني بوجهٍ وكلامٍ كاللآلي

فإذا فتشتهُ عن لم أجدْ ذاكَ لودٍ

فدعِ الإخوانَ إلا كلِ يضمرُ الودَّ كما

وفي بلاد الشام.. وفي حماه.. التقيت شاعرا يقال له أسامة كان من نسل (أسامة بن منقذ).. كان ممتلئا همة وشجاعة، لكني ما إن سألته عن أسرار الصداقة حتى رأيت وجهه قد تغير، وهمته قد خارت.. ثم انصرف عني، وهو يقول:

قلّ الصديقُ وإن أصبحتَ مكانهُ، فأبنْ لي أينَ

كم قد عرفْتُ صديقاً بعد إياهُ صرْتُ فراراً منه

كفرتُ بالودِّ منه حين وكنتُ وُجْداً به في

دعِ العدوِّ وكن ما عِشْتَ من الصديقِ الذي

وليس فتكةُ من بالذمِّ كفتكةٍ من حميمٍ أنتَ

ولا يغرنْكَ ثَغْرٌ لاحَ من بياضُهُ، فبياضُ المَكّرِ

بقيت أتردد على مضارب القبائل المختلفة.. إلى أن وصلت إلى الكوفة.. وهناك التقيت رجلا وهب من صناعة الكلام ما جعل أعداءه يتهمونه بدعوى النبوة.. وقد كانوا يطلقون عليه لذلك ـ حسدا ـ (المتنبي).. عندما سألته عن أسرار الصداقة نظر إلى الأفق البعيد بحزن، وقال:

عدوُّك من صديقِكَ فلا تستكثرَنَّ من

فإن الداءَ أكثرُ يحولُ من الطعامِ

إذا انقلبَ الصديقُ مُبيناً، والأمورُ إلى

ولو كان الكثيرُ مصاحبةُ الكثيرِ من

ولكن قلّما سقطّتَ على ذئابٍ

فدعْ عنكَ الكثيرَ يُعافُ وكم قليلٍ

بعد أن لقيت هؤلاء الشعراء وغيرهم امتلأت يأسا من

أن أجد صديقا صدوقا يفضي إلي من أسرار الصداقة ما يجعلني أفقه هذا السر الخطير من أسرار الحياة..

لكني وأنا في تلك الحال الممتلئة باليأس والإحباط رأيت رجلا قد التف به جمع من الناس يسألونه؛ فاقتربت منه، فسمعته يقول[1]: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزلة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور.

قال له بعض الحاضرين: فما تقول في صداقة الملوك؟

ابتسم، وقال: الملوك فقد جلوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف.

قال آخر: وما تقول في خدمهم وحشمهم والمقربين منهم؟

قال: هم على غاية الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم، لانتشابهم بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويرد عليهم.

قال آخر: فما تقول في صداقة الفلاحين وأصحاب الضياع والتجار؟

قال: أما أصحاب الضياع، فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير.. وأما التجار فكسب الدوانيق سد بينهم وبين كل مروءة، وحجزهم عن كل مكرمة.

قال آخر: فما تقول في صداقة الكتاب وأهل العلم؟

قال: لا خير لك في صحبتهم.. فإنهم ممتلئون بالتنافس، والتحاسد، والتماري، والتماحك، ولذلك لا تصح لهم الصداقة، ولا يظهر منهم الوفاء.

1() هذا النص وما بعده مقتبس بتصرف من كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي (ص: 32)

قال آخر: فما تقول في صداقة عامة الناس؟

ابتسم، وقال: أولئك رجرجة بين الناس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مخازي فتنشر، ولذلك قيل لهم همج، ورعاع، وأوباش، وأوناش، ولفيف، وزعانف، وداصة، وسقاط، وأنذال، وغوغاء، لأنهم من دقة الهمم، وخساسة النفوس، ولؤم الطبائع على حال لا يجوز معها أن يكونوا في حومة المذكورين، وعصابة المشهورين.

وهكذا بقي ينفرهم من كل من يذكرون له، حتى يئست تاما من أن يفتح الله علي من أسرار الصداقة ما فتح لي من أسرار العداوة.

1 ـ أصدقاء الغيب:

لكني بعد ذلك اليأس، فوجئت، وأنا أسير في بعض الحدائق برجل يجلس مع نفسه، وهو في غاية السرور، وكان يبتسم كل حين، حتى توهمت أن به مسا من الجن.

لكن لست أدري كيف وجدت نفسي أشعر أن لديه علما بالسر الذي أبحث عنه.. فاقتربت منه بحيث أراه ولا يراني.. ففوجئت به يقرأ بصوت جميل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ: 10]

ثم فوجئت به، وهو يتحدث مع داود عليه السلام نفسه، وكأنه جالس بين يديه، وكان يقول له: بورك لتلك الجبال والطيور التي سمعت صوتك يا حبيبي يا داود.. ليتني كنت معهم لأسمع كما سمعوا، وأطرب كما طربوا..

ثم راح يقول: بلى.. يمكنني أن أكون معهم.. فحجاب الزمن الرقيق يمكنني أن أمزقه وأتجاوزه، لأرحل إليك، وأسمع منك.

ثم رأيته يتمايل مثلما يتامل الناس عند سماعهم لما يطربهم.. فاقتربت منه، وقلت، وأنا ممتلئ خوفا من أي مفاجأة قد تحدث لي معه: مرحبا بحبيب داود.

فنظر إلي مبتسما، وهو يمد يده، ويقول لي بكل لطف: مرحبا بك أخي الكريم.. وشكرا لأنك خاطبتني بهذا الخطاب الجميل، وأسأل الله أن يجعلنا جميعا من أحباب داود عليه السلام، وجميع الهداة الكرام، والملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام.

قلت: هلا أخبرتني عن شأنك، فقد رأيتك تنفعل انفعالا كبيرا أثناء قراءتك للآيات التي تتحدث عن داود عليه السلام، ثم رأيتك تحدثه.. فما قصتك معه؟

قال: ليست قصتي معه وحده.. بل مع كل الصالحين المذكورين في القرآن الكريم.. فأنا أريد أن تنعقد بيني وبينهم الصحبة في الدنيا، قبل ملاقاتهم في الآخرة، حتى أفد عليهم، وهم يعرفوني، وأنا أيضا أعرفهم.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد علمت أن الصديق الحقيقي هو الذي ينفعك في دينك ومآلك، ولذلك لم أكتف بأصحابي في عالم الشهادة، وإنما رحت أبحث عن أصحاب لي في عالم الغيب.

قلت: ولكن الزمان يحول بينك وبينهم.

قال: الزمان لم يخلق لأصحاب البصائر، وإنما خلق للمحجوبين، الذين استغرقوا في عالم الملك، ونسوا عالم الملكوت.

قلت: أمن الممكن أن يخترق أحدنا حجاب الزمن الكثيف؛ فيرحل لكل العصور.. إن هذا لا نسمع به إلا في الأساطير، وقصص الخيال.

قال: عندما ترفع الحجب عن عقلك؛ فسيصبح كل شيء أمامك حاضرا.. الماضي والمستقبل.. والقريب والبعيد.. والزمان والمكان.. والحس والمعنى.. والكثيف والمجرد.

قلت: لا أكاد أفهم ما تقول.

قال: ألم تقرأ في القرآن الكريم ذلك الطلب الغريب

الذي طلبه سليمان عليه السلام من المقربين إليه، والذي قال لهم فيه: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: 38]؟

قلت: بلى.. وقد قال العفريت حينها: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: 39]

قال: لكن سليمان عليه السلام لم يقبل هذا العرض..

قلت: أجل.. لأنه حدد زمنا بعيدا.. ولذلك راح يقبل العرض الآخر، والذي قال فيه صاحبه: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40]

قال: ألا ترى أنه عرض مرتبط بتمزيق حجاب المكان؟

قلت: بلى.. فهو قد موعدا لا يمكن تحقيقه إلا لمن مزق هذا الحجاب.

قال: فكما يمكن تمزيق حجاب المكان؛ فتطوي ما تشاء من المسافات لتصل لما تشاء من الغايات.. فكذلك يمكنك أن تطوي حجاب الزمن، لترحل لمن تشاء، وتلتقي بمن تشاء.

قلت: ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك؟

قال: الأداة التي تمزق بها حجاب المكان هي نفسها التي تمزق بها حجاب الزمان.

قلت: وما هي؟

قال: لقد ذكرها الله تعالى، وبين أنها العلة التي استطاع بها سليمان عليه السلام اختراق تلك الحجب.

قلت: هل تقصد قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: 40]؟

قال: أجل.. فبقدر ما يكون عندك من العلم بالكتاب، بقدر ما يمكنك أن تخرق الحجب.. وتسير في العوالم.. ظاهرها وباطنها.

قلت: لكن كيف ذلك؟

قال: لاشك أنك تعرف هذه الأجهزة التي يقال لها الحواسيب.. والتي يتفنن قومي وقومك في التعامل معها والاستفادة منها.

قلت: وكيف لا أعرفها، وهي من نعم الله علينا في هذا العصر؟

قال: ألا تراهم بمجرد الضغط على أيقونات معينة يصلون إلى كل ما يرغبون فيه من البرامج والكتب المودعة فيه؟

قلت: بلى.. فكل ما أودع فيه يمكن الوصول إليه بضغطة زر، بل أحيانا بكلمات تقال للجهاز، وإذا به يطبقها حرفيا.

قال: فكذلك العلم من الكتاب.. فمن كان له هذا العلم استطاع أن يصل به إلى كل ما أودع فيه من الحقائق.

قلت: هل تقصد علم المفسرين؟

قال: علم المفسرين قد يرتبط بالحروف والكلمات.. لكني أقصد علم العابرين، أولئك الذين يرحلون من الحروف والكلمات إلى الحقائق والمعاني.. أو أولئك الذين تتجسد لهم الحروف والكلمات في قوالبها الحقيقية.

قلت: لم أفهم علاقة كل هذا بحديثك مع داود عليه السلام.

قال: لقد جلست مع كلام ربي أردده، وأحاول بكل كياني أن أعيشه، فكلام ربي أعظم من أن نعطيه ألسنتنا، ونحجب عنه قلوبنا.

قلت: فما الذي حصل؟

قال: لقد كان لذلك الترديد والاستغراق أثره في نفسي وبصري وبصيرتي.. لقد رفع عن عيني الحجب.. وأراني

الحقائق رأي العين.

قلت: هل تقصد أنك في هذا المحل كنت تجلس مع داود عليه السلام، وأن عينيك كانتا تشاهدانه؟

قال: لقد طغت بصيرتي على بصري؛ فجعلتني أرى ذلك رأي العين.

قلت: ألهذا كنت أسمعك تحدثه؟

قال: أجل.. وهل يمكن أن يحدث أحد ما لا يرى؟

قلت: ولكن كيف ذلك.. ألا ترى أن هذا نوعا من الخرافة؟

قال: لا.. بل هذا هو التدبر.. وهذه مرحلة من مراحله.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24]؟

قلت: بلى.. والتدبر واجب، والقرآن يوبخ من لا يتدبره؟

قال: لقد وصف الله القلوب التي لا تتدبر القرآن بكونها مقفلة.

قلت: أجل.. فهي مقفلة عن فهم الحقائق الواردة في القرآن.

قال: وهي مقفلة عن رؤيتها.

قلت: ما تعني؟

قال: التدبر الذي يجعلك تفهم الحقائق بعقلك تدبر المبتدئين.. وقد يقعون بسببه في أخطاء كبيرة.

قلت: فهل هناك تدبر أصحاب المستويات العالية؟

قال: أجل.. وهو تدبر المستبصرين والمتوسمين.. أولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر:75).. أولئك الذين تتحول الحروف والكلمات في

أعينهم وقلوبهم إلى حقائق يرونها بأبصارهم وبصائرهم، ولا يرددونها فقط بألسنتهم.

قلت: هل يمكن أن يحصل هذا؟

قال: ألم تسمع بحديث الحارث بن مالك الأنصاري؟

قلت: هل تقصد ذلك الذي قال له النبي ﷺ: كيف أصبحت يا حارث؟ فقال: أصبحت مؤمنا حقا، فقال ﷺ: انظر ما تقول! فإن لكل شئ حقيقة؛ فما حقيقة إيمانك؟ فقال الحارث: (عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال ﷺ: (يا حارث! عرفت فالزم)[1]

قال: ألا ترى كيف خرق للحارث حجاب المكان؛ فأصبح يرى عرش ربه.. وخرق له حجاب الزمان، فأصبح يرى أهل الجنة وأهل النار؟

قلت: بلى.. والحديث واضح..

قال: العبرة ليست بحديث الحارث.. وإنما بحديث رسول الله ﷺ.. فقد قال له: (يا حارث! عرفت فالزم).. فالمعرفة التي لا يندمج لها كل الكيان معرفة ناقصة.

قلت: هل تقصد بذلك أن نعيش كل الحقائق القرآنية؟

قال: هذه هي المعرفة.. وبها يمكنك أن تصاحب من تشاء، وبها يمكنك أن تعرف أسرار الصداقة الحقيقية.

ثم أخذ يردد بصوت جميل:

قلوب العارفين ... ترى مالا يري
وألسنة بأسرار ... تغيب عن الكرام
وأجنحة تطير ... إلى ملكوت رب

[1] () رواه الطبرانى (3/266، رقم 3367)

هزتني كلماته وإنشـاده؛ فقلت، وأنـا ممتلئ طربـا، وقـد زالت عني كل تلك الآلام الـتي عاينتهـا عنـد تـرددي على من ذكرت لك من الشعراء المتشـائمين: لا شـك أنـك أنت الـذي كنت أبحث عنه.

قـال: أجـل.. فأنـا الـذي كلفت بـأن أكشـف لـك أسـرار الصداقة.. فلا يمكن لأحد أن يعرف الحياة، ولا أن يتنعم فيهـا دون أن يعلم هذا السر.

قلت: فهل كان ما تحدثني عنه من هذا السر؟

قـال: أجـل.. كنت أحـدثك عن أشـرف صـداقة، وأعظم صـداقة، وأكـرم صـداقة.. ومن ظفـر بهـا فلن يـذوق طعم الوحشة حتى لو هجره الخلق جميعا.

قلت: أتقصد صداقة الغيب؟

قـال: بـل هي صـداقة الشـهادة.. فـالغيب غيب المحجـوبين، أمـا الـذين امتلأوا بالأسـرار القرآنيـة، وأنوارهـا القدسية؛ فإن الحجب ترفع عن أعينهم ليصـبح الغيب عنـدهم شهادة، والملكوت عندهم ملكا.

صحبة الله:

قلت: فمن أول أصدقاء الغيب؟

قال: ما هو أعظم الأسماء في القرآن الكـريم، وأكثرهـا تكرارا؟

قلت: إنه بلاشك اسم [الله]

قـال: فهـل يمكنـك أن تـردد هـذا الاسـم بلسـانك، ثم لا تستشعره بقلبك.. أو لا تراه ببصيرتك؟

قلت: ما تعني؟.. وهـل يمكن لأحـد أن يـرى اللـه؟.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصَـارَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 103]

قال: وقد قرأت معها قول الإمام علي عندما سئل: هـل

رأيت ربك حين عبدته؟ فقد أجاب بقوله: (مـا كنت أعبـد ربّـا لم أره)، فقيل له: وكيف رأيته؟ فقال: (لا تدركـه العيـون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)[1]

قلت: أجل.. وقد قرأت معها ما روي عن الإمام الصادق أن أبا بصير سأله، فقال: أخبرني عن الله عزّ وجل هـل يـراه المؤمنون يوم القيامة؟ فقال الإمام: «نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة)، فقال أبو بصير: متى؟.. قال الإمام: (حين قال لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعـراف: 172]، ثم قـال: (وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامـة، ألسـت تـره في وقتك هذا؟)، فقال أبو بصير: جعلت فداك فأحّدِّث بهذا عنك؟ فقال الإمام: (لا، فإنك إذا حدثت به فأنكر منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثم قدّر ان ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤيـة بـالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون)[2]

قال: فقد أجاباك.. ولا حاجة لك إلى جوابي.

قلت: فكيف تجمع بين ما ذكر القرآن الكريم، وما ذكـره هذان الإمامان الجليلان؟

قال: الجمع بينهما بسـيط.. فالرؤيـة القلبيـة تتوجـه إلى المعـــاني لا إلى الحس، وإلى اللطـــائف لا إلى الكثافـــات.. ولذلك لا تختلط بأوثان المجسمة، ولا بدنس المشبهة.

قلت: لم أفهم.

قال: ألم تسمع قول الشاعر:

صفاءٌ، ولا ماءٌ، ولُطْفٌ، ولاهَواً، ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ

قلت: بلى.. فما يعني بها؟

1() أصول الكافي، 1/ 98.

2() التوحيد: ص117ح20..

قال: الرؤية المقدسة ليست رؤية الماء، وإنما رؤية الصفاء.. وليست رؤية النار.. وإنما رؤية النور.. وليست رؤية الجسم.. ولكن رؤية الروح.. فمن أطاقت بصيرته التجرد؛ فسيرى كل الحقائق من غير أن يقع في دنس القوالب الكثيفة.

قلت: أبهذا تصاحب الله؟

قال: أجل.. فلا يمكنك أن تصاحب من لا تراه ولا تسمعه.

قلت: أبعلم الكتاب أيضا تصاحب الله، وترحل إليه؟

قال: أجل.. بل هو أشرف علوم الكتاب.. فالعلم الذي لا يدلك على مولاك حجاب.. والطريق الذي لا يوصلك إليه طريق هلاك لا طريق نجاة.

قلت: لكن كيف ذلك؟

قال: ألم تسمع قول الإمام علي: (فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه)[1] ومثله قال حفيده الإمام الصادق: (لقد تجلى الله سبحانه وتعالى لعباده في كلامه ولكنهم لا يبصرون)

قلت: بلى.. وقد ذكرتني بما يروى عنه من أنه كان يكرر بعض آيات القرآن الكريم، ثم يقول: حتى كأني سمعته من قائله..

قال: أجل.. فقد جعل الله تعالى القرآن الكريم بذلك النظم الخاص، حتى تتحول القلوب إلى عيون ترى الحقائق، ولا تكتفي بقراءتها.

قلت: ألا ترى أنه قد يشنع عليك المغرضون بهذا.. بل قد تحشر في زمرة المبتدعة، وأنت تعلم أنها النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

---

[1] نهج البلاغة، الخطبة 147.

قال: ولم ذلك؟

قلت: نحن نعبد الله تعالى، ولا نصاحبه.. فنحن عباد الله لا أصدقاء الله.

قـال: أعظم العبوديـة هي أن تصـحب ربـك.. وتسـتأنس به.. وتمتلئ شوقا إليه.. حتى يصير هو أنيسك الأعظم..

قلت: أجل.. وقد ذكرتني بما روي أنه ﷺ كان إذا أسـحر في سفر قال: (سمع سامع بحمد الله وحسن بلائـه علينا[1]، ربنا صاحبنا وأفضل علينا، عائذا بالله من النار)[2]

ومثلـه مـا وري عنـه ﷺ أنـه كـان من دعائـه إذا سـافر: (اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل)[3]

قال: أجـل.. فالصـالحون لم يكـون لهم أنس إلا بصـحبة ربهم.

قلت: لقد ذكرتـني بـذلك الـدعاء الرقيـق الـذي ورد عن بعض أئمة الهدى، والذي يقـول فيـه ــ مناجيـا ربـه ــ: «وأنـر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليـك، حـتى تخـرق أبصـار القلـوب حجب النور، فتصل الى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك)[4]

قـال: كـل أدعيـة ومناجيـات أئمـة الهـدى تسـأل اللـه الصحبة، ألم تسمع تلك المناجاة التي يقول فيها ذلـك الإمـام

1() سمع سامع بحمد الله وحسـن بلائـه: أي ليسـمع السـامع، وليشـهد الشـاهد على حمد الله سبحانه وتعالى على نعمه وحسن بلائـه.. وقيـل : معنـاه : انتشـر ذلـك وظهـر، وسـمعه السـامعون. وحسـن البلاء : النعمـة. والبلاء : الاختبـار والامتحـان فالاختبار بالخير : ليتبين الشكر، والابتلاء بالشر : ليظهر الصبر.

2() رواه مسلم: 4/2086 ح2718.

3() رواه مسلم رقم (1342)

4() هـذا الـدعاء من المناجـاة المشـهورة في شـهر شـعبان، انظـر: الإقبـال: ص 687..

السجاد: (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك، فرام منك بدلا؟ ومن ذا الذي أنس بقربك، فابتغى عنك حولا؟ إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقآئك، ورضيته بقضآئك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيمت قلبه لارادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك)[1]

قلت: بلى.. وفيها يقول: (اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والانين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سآئلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك، يامن أنوار قدسه لابصار محبيه رآئقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شآئقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين أسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي مما سواك وأن تجعل حبي إياك قائدا إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائدا عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك علي وانظر بعين الود والعطف إلي، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهل الاسعاد والحظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين)[2]

قال: وقد قال إمام آخر من أئمة الهدى مخاطبا ربه: (أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك.. وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك.. أنت المونس لهم

1() الصحيفة السجادية الكاملة، ص 294.

2() الصحيفة السجادية: 294..

حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم.. ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟!)[1]

قلت: بلى.. وهو الذي يقول فيها: (لقد خاب من رضي دونك بدلا، وقد خسر من بغى عنك متحولا)

قال: ويقول فيها: (يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين.. ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين.. أنت الذاكر قبل الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب، ثم لما وهبت لنا من المستقرضين.. إلهي، اطلبني برحمتك حتى أصل إليك.. واجذبني بمنك حتى أقبل عليك)

قلت: إن ما تذكره جميل.. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟

قال: لقد ذكرت ذلك لبعض شيوخي، فقال لي: (حدّد بصر الإيمان تجد اللّه في كل شيء وعند كل شيء ومع كل شيء وقبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء وتحت كل شيء وقريبا من كل شيء ومحيطا بكل شيء بقرب هو وصفه وبحيطة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو هو هو، كان اللّه ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)

قلت: ولكن هذه المعاني لم ترد في القرآن الكريم.. بل هي من كلمات الشيوخ، وربما تكون من شطحاتهم وترهاتهم.

قال: بل هي معان قرآنية.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

---

[1] إقبال الأعمال: 349.

[الحديد: 3]؟

قلت: بلى.. لكن المسافة كبيرة بينها وبين ما قالوا؟

قال: عندما تزيل حجب الكثافة، وتبعد عن بصيرتك أوهام الحس، وتشرب من شراب التنزيه المقدس.. فسترى أن كل شيء من الله وبالله ولله، وستسمع حينها من سرادقات الغيب ربك، وهو يقول لك: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ [النساء: 126].. ولذلك لن ترى شيئا إلا وترى الله معه وقبله وبه.. بل ترى كل شيء مجرد حروف، أو مرائي تتجلى فيها حقائق الأزل.

صحبة الملائكة:

قلت: وعيت هذا.. فهل لك صاحب آخر غير الله؟

قال: كل ما في القرآن الكريم من حقائق يمكنك أن تصاحبها وتعيشها.. فالله تعالى لم ينزل لنا هذه الحقائق لنقرأها، وإنما أنزلها علينا لنراها، ونعيشها.

قلت: كيف تقول ذلك، والعادة جارية بأن يصاحب كل جنس جنسه الخاص به؛ فهل يمكن أن يصاحب الإنسان الملائكة؟

قال: وما المانع من أن يصاحبهم.. هم لا يمانعون في ذلك.. بل هم يتمنون ذلك.. والبشر هم الذين يستكبرون عن صحبتهم.

قلت: ما تعني؟.. هل حقا يمكننا أن نعقد صداقة مع الملائكة عليهم السلام، أولئك المعصومون المبرؤون المطهرون الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6]

قال: أجل.. فإنك إن لم تعقد صحبتك مع المعصومين المطهرين، فستقع في أدناس صحبة الشياطين.. ذلك أنك في كل نفس من أنفاسك بين أحدهما.. بين قرين من

الملائكة، أو قرين من الشياطين.. فإن وجهت وجهتك نحو شيطانك، صرفته عن ملاكك.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ: (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الآخرى فليتعوذ بالله من الشيطان)[1]

قال: أرأيت أنه لابد لك من صحبة ترتبط بعالم الغيب شئت أم أبيت..

قلت: أجل.. وقد ذكرني هذا بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ق: 27]، فقد ذكر الله تعالى أن ذلك الشيطان مصاحب للإنسان في كل حين.

قال: ومثله الملاك.. فالله تعالى أجل وأكرم من أن يدع الإنسان مع أعدائه من الشياطين، من دون أن ينقذه بأحبابه من الملائكة.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: 4]، فقد قرن الله تعالى الصالحين من المؤمنين بالملائكة.. واعتبرهم جميعا من المناصرين لرسول الله ﷺ.

قال: وهم مناصرون لكل من سار على سيره ﷺ، واقتفى أثره.. فكل من سار خلف رسول الله ﷺ نال من الفضل العظيم، والهدايا الجسام ما لا يمكن تصوره.

قلت: أجل.. ونسأل الله أن يرزقنا حسن الصحبة لرسول الله ﷺ..

قال: وحسن الصحبة لملائكة الله.. فلا يمكن لمن يريد

---

[1] () رواه الترمذي (2988) ، و النسائي في الكبرى، تحفة الأشراف (9550)

أن يصاحب رسول الله ﷺ أن يتخلف عن صحبة ملائكة الله.. فكل ملائكة الله رسل لله وسفراءه إلى خلقه.

قلت: أصدقك القول.. فمع ما ذكرت لي من النصوص المقدسة إلا أن عقلي لا يزال كليلا دون استيعاب ما قلت.. ذلك أن مما حفظته في جميع مراحل دراستي أن الملائكة لا تتنزل إلا على الأنبياء.. فهل ترى أن الخلق كلهم أنبياء؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: 23، 24]؟

قلت: بلى.. ولكن ذلك في الآخرة.. لا في الدنيا.. وفي الجنة.. لا في أي محل آخر؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]؟

قلت: بلى.. ولكن ما تقول لأولئك الأساتذة.. وما شحنوا به عقلي من المعارف والعلوم.. وهل تشككني فيها؟

قال: لا أشكك فيها.. ولكني أدعوك إلى سماع كلام ربك.. فالله تعالى لم يذكر في تلك الآيات الرسل، وإنما ذكر ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت: 30]

قلت: أجل.. وهي تنطبق تماما على الأنبياء عليهم السلام.

قال: بل هي تنطبق على كل من قال قولهم، وفعل فعلهم.. وقد كان بعض الصالحين إذا أصبح يخاطب الملائكة، ويقول: (مرحبا بملائكة الله، اكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).. وكان آخر يقول مخاطبا لهم: (يا ملائكتي طالت صحبتي لكما

فإن كان لكما عندالله شفاعة فاشفعا لي)

قلت: أجل.. ولعلي قد وجدت حلا يجمع بين مـا ذكـرت، وما ذكر أساتذتي.

قال: وما هو؟

قلت: صـحبة الملائكـة عليهم السـلام مرتبطـة بأولئـك الذين يعيشون معنا من الملائكة الكتبة أو الحافظين.. والذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، وقـال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـافِظِينَ (10) كِرَامًـا كَـاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10 -ـ 12].. أمـا غـيرهم؛ فلا مطمع في صحبتهم.

قال: ومن الذي قال ذلك.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِـإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكَـالَ فَـإِنَّ اللَّهَ عَـدُوٌّ لِلْكَـافِرِينَ﴾ [البقرة: 97، 98]؟

قلت: هاتان الآيتان الكريمتان تـردان على اليهـود الـذين أظهروا عداوتهم لجبريل عليه السلام.. وقد ذكـر المفسـرون في ذلك قصصا.

قال: وهما تردان كذلك على الذين يحجبون قلـوبهم عن حب جبريل وميكائيل وكل الملائكة المكرمين.

قلت: ليس في الآيتين ما يدل على ذلك.

قال: بل فيهما كـل مـا يـدل على ذلـك.. فمـا ذكـر اللـه تعالى اسم جبريل وميكائيل وغيرهمـا في القـرآن الكـريم إلا لنعقد الصـحبة معهم.. فالأسـماء في القـرآن الكـريم معـارج نرحل بها إلى الحقائق.. فهـل تـرى أنـه يمكن لأحـد أن يـذكر هذه الأسماء ثم لا ينفعل لها، أو يتأثر؟

قلت: صدقت.. ووعيت مـا قلت.. لكـني لا أعـرف كيـف أعيش هذا المعنى.. وكيف تتحول كلمات اللـه في عيـني إلى

مرائي أبصر بها الحقائق.

قـال: عنـدما يتحـول علمـك من علم اليقين.. إلى عين اليقين.. فسترى كل الحقائق القرآنية.. وعندما يتحول علمـك من عين اليقين إلى حق اليقين، فستصحبها وتعيشها..

قلت: أليس علي سوى أن أرتقي بعلمي؟

قـال: بلى.. فهـل تـرى في إمكانـك أن تـرى الكـواكب البعيدة بعينك المجردة؟

قلت: بل أحتاج إلى مراصد ضخمة.

قال: فزود بصيرتك بتلك المراصد الضخمة لترى الكـون من العرش إلى الفرش.

صحبة الصالحين:

قلت: وعيت هـذا.. فهـل لـك أصـدقاء آخـرون غـير من ذكرت.

قال: لا يمكنك عد أصدقائي، فأنا أعيش في كون ضـخم مملوء بالأصدقاء.

قلت: لقد رأيتك تتحدث مع داود عليه السلام..

قال: أنا أصادق جميع الأنبياء والأئمة والصـالحين.. وكـل من تراه في القرآن الكريم ممن ذكرت أسماؤهم أو لم تذكر أشعر بالعلاقة الوثيقة التي تربط بيني وبينهم.

قلت: فأنت تصادق عباد الرحمن إذن.

قال: أجل.. وكيف لا أصادقهم.. بل أنا أهـتز طربـا كلمـا رأيتهم، أو مررت عليهم، أو جلست بينهم.. يا لله مـا أجملهم، وأجمــل تواضــعهم، ولينهم وطيبتهم.. لا تصــدق كم يملــؤني السرور عندما أرى قيامهم وخشوعهم وأخلاقهم العالية.

قلت: وهل تصادق المخبتين.. أولئك الـذين ذكـرهم اللـه تعــالى، فقــال: ﴿وَبَشِّــرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِــرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الحج: 34، 35]

قال: أجل.. وأصحب معهم كل المتبتلين والسائحين والساجدين.. وكل أولئك الطيبين الطاهرين الذي ذكرت أوصافهم أو أسماؤهم في القرآن الكريم.. أنا أصحبهم جميعا، وأستفيد من علمهم وأخلاقهم.. ألم تسمع قوله ﷺ: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)[1]

قلت: بلى.. ورسول الله ﷺ يبين في هذا الحديث مدى تأثير الصاحب.

قال: ولذلك انتقيت أولئك الأصحاب المضمخين بأجمل عطور الدنيا والآخرة.

قلت: ولكن القرآن الكريم لم يذكر سوى أوصافهم.. فهل تراك تصحب الأوصاف؟

قال: يستحيل على القرآن الكريم أن يذكر الأوصاف التي لا موصوف لها.. ولذلك كانت تلك الأوصاف أسماء لمسميات حقيقية.

قلت: ولكنك لا تعرفها.. والقرآن الكريم لم يذكر أسماء أصحابها.

قال: قد تستفيد من صاحبك، وتعيش معه جميع عمرك من غير أن تعرف اسمه.. فالاسم مجرد شكل من أشكال التمييز.. وأنا لا تهمني الأسماء، بل تهمني المسميات.. ولا تهمني المسميات، بل تهمني تلك الحقائق والقيم التي تملأ تلك المسميات، وقد كفاني القرآن الكريم كل تفاصيلها.

قلت: ولكن القرآن الكريم لم يكتف بذكر الأوصاف،

[1] () رواه البخاري 4 / 271 ، ومسلم رقم (2628)

وإنما ذكر أسماء.

قال: أنا أصحب الجميع.. أصحب أصحاب الأوصاف بأوصافهم.. وأصحب أصحاب الأسماء بأسمائهم.

قلت: فأنت تصاحب كل النبيين في القرآن الكريم إذن؟

قال: أجل.. فالله تعالى ما ذكرهم لنا إلا لنذكرهم ونصحبهم ونعيش معهم.. ألم تسمع قوله تعالى بعد ذكر أسمائهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]

قلت: بلى.. ولكن الله تعالى ذكر الاهتداء، ولم يذكر الصحبة.

قال: لا يمكني أن تهتدي بأحد دون أن تصاحبه.. فهل يمكنك أن تتعلم من أستاذك من دون أن تجلس إليه؟

قلت: ذلك أستاذي.

قال: ورسل الله عليهم السلام هم سادة الأساتذة.. فهل ترى نفسك أكبر من أن تتتلمذ على أيديهم؟

قلت: بل أرى نفسي أصغر من ذلك.

قال: فهل كان أبو جهل وأبو لهب أكرم على الله منك؟

قلت: ما تعني؟

قال: لقد عرض رسول الله ﷺ صحبته على أبي جهل وأبي لهب، لكنهما رفضا استكبارا وعلوا.

قلت: ولكنه لو عرضها علي لطرت فرحا.

قال: بل قد عرضها عليك.. ألم تسمع قوله، وهو يخاطب من صحبه من أهل زمانه: (وددت أني لقيت إخواني)، فقالوا: أوليس نحن إخوانك؟ قال: (أنتم أصحابي،

ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)[1]

قلت: بلى.. هو من الأحاديث المشهورة المعروفة.. فما فيه من العلم؟

قال: ألا ترى من العجب أن يشتاق رسول الله ﷺ إلينا، ثم لا نشتاق نحن إليه؟

قلت: ولكنه سمى من لم يكن في زمانه من أمته إخوانا، لا أصحابا.

قال: وهل الإخوان إلا أصحاب.. بل إن الأخوة أعظم من الصحبة وأشرف منها.. فهل ترى أخاك دون صاحبك؟

قلت: نحن في واقعنا نرى إخواننا أقرب إلينا.

قال: ذلك في كل واقع.. ولهذا طلب الله تعالى من المؤمنين أن تكون العلاقة بينهم علاقة أخوة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10]

قلت: أيمكننا أن نصاحب رسول الله ﷺ، ونحن في هذا العصر البعيد؟

قال: خاب من لم يتخذ رسول الله ﷺ صاحبا.. وهل هناك أشرف أو أكرم على الله منه.

قلت: لقد ذكرتني ببعض الصالحين، وهو أبو العباس المرسي؛ فقد كان يقول: (لو غاب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسي من المسلمين)[2].. ومثله الشيخ علي الجمل العمراني، فقد كان يقول: (مما منَّ الله به عليَّ أني ما ذكرتُ رسول الله ﷺ ولا خطر على قلبي إلا وجدتني بين يديه)[3]

---

[1] رواه أحمد 20/ـ 38 ح (12579)، وأبو يعلي (3390)، والطبراني في الأوسط (5490).

[2] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (3/ 54)

صحبة الكون:

قلت: لقد ذكرت لي أن أصدقاءك بحدود الكون.. فهل تراك تصادق الشجر والحجر.. وتلك الحيوانات العجماوات اللاتي لا تعرف إلا مرعاها؟

قال: وما لي لا أصادقها، ونحن جميعا إخوان في مملكة واحدة، لرب واحد.. نتطلع جميعا إليه بشوق وحنان، ليمدنا بفضله ومدده.

قلت: لقد قبلت منك ما ذكرت لي سابقا.. لكني الآن أراك بدأت تخرج عن حدود العقل.. فهل هناك عاقل في الدنيا يقول ما تقول؟

قال: ألم تسمع كتاب ربك، وهو يذكر تسبيح الكائنات جميعا؟

قلت: بلى.. فقد سمعت قوله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الحديد:1)، وقوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (الجمعة: 1)، وغيرها من الآيات الكريمة.

قال: أنت قرأتها.. ولكنك لم تسمعها.

قلت: بلى.. لقد سمعتها من أفواه كبار القراء، وبأجمل التراتيل، وطربت لها كثيرا.

قال: لكنك لم تسمعها من الحق.. لأنك لو سمعتها منه لأسرعت تصادق هؤلاء الجالسين في حلقة الذكر العظمى يسبحون الله ويحمدونه.

قلت: لقد سمعت بعض الشيوخ يذكر أن تسبيح الكائنات وحمدها لله من باب الإشارة.. لا من باب الحقيقة.. أي أن الكائنات كلها دلائل على وحدانية الله وقدرته، فهي تنزهه عن الشرك والعجز.. وليس المقصود من تسبيحها أنها تفعل ذلك.. لأن ذلك يقتضي منها قدرات كبيرة لا تتوفر لها.

---

(3) المرجع السابق.

قال: مثل ماذا؟

قلت: أولها الحياة.. فلا يمكن للجماد أن يمارس ما يمارسه الأحياء..

قال: ومن ذكر لك أن هذه الكائنات الجامدة ليست حية؟

قلت: أنت الذي ذكرت ذلك.. فمجرد وصفك لها بكونها جامدة، يعني عدم حياتها.

قال: وما شروط الحياة التي تراها؟

قلت: لست أنا الذي يراها.. بل كل العقلاء يرونها.. فهم يذكرون أن الحي يحتاج إلى أن يكون مدركا على الأقل..

قال: فهل ترى أن هذه الكائنات التي مدحها الله تعالى بأنها تسبحه ليست مدركة لما تقول؟

قلت: ما تعني؟

قال: لو أن أحدا وضع في آلة تسجيل تسبيحا لله، ثم راح يقول لقومه: انظروا كيف تسبح هذه الآلة الله.. هل يقبلون منه ذلك؟

قلت: لا شك أنهم لن يقبلوا منه ذلك؛ فالتسبيح يحتاج إلى وعي.. والآلة ليس لها وعي.

قال: ولو أن أحدا اخترع روبوتا، ثم راح يبرمجه على هيئة الصلاة، فيصلي في كل وقت.. ويذكر الله بين الصلوات، ويقرأ القرآن، هل يمكن اعتباره روبوتا عابدا؟

قلت: لاشك أنه لا يمكن اعتباره كذلك.. لأن حركاته مجردة عن الوعي.

قال: فهل سمعت قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد:15)

قلت: بلى.. وقد سمعت معها قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَـرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (النحل:48)

قال: فهل ترى الله تعالى يثني على هذه الكائنات، وتعظيمها لله، وتسبيحها له، وسجودها لعظمته، ثناء فارغا لا معنى له؟

قلت: بل هو ثناء حقيقي، فتعالى الله أن يثني على من لا يستحق الثناء.

قال: فأنت تقر إذن بأنها مدركة لما تقول.

قلت: لا يمكنني أن أقول خلاف ذلك.. ولكني لم أستطع أن أتصور أن هناك كائنا يمكنه أن يكون مدركا من غير أن تتوفر له شروط الإدراك التي نعرفها..

قال: ذلك من كبرنا نحن البشر.. فقد رحنا نتوهم أننا وحدنا في الكون.. وأنه لا عاقل غيرنا.. ولذلك صرنا نتهم كل شيء بالعجز والجهل والموت المطبق.. مع أن كل شيء يسبح بحمد الله ويقدسه ويقنت له ويسجد بين يدي عظمته.

قلت: لا بأس.. أظن أنك أقنعتني بحياة الكائنات.. ولكن ذلك وحده لا يكفي لعقد الصداقة معها.. فالصداقة تقتضي مشاعر المحبة والمودة.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ عن جبل أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[1]؟

قلت: ولكن رسول الله ﷺ لم يكن يقصد بذلك ظاهر ما فهمته.. بل كان يقصد أن ذلك الجبل بمن دفن فيه من أصحابه وقرابته صار يحبه.. مثلما قال الشاعر:

أَمُرُّ عَلى الدِيارِ دِيارِ ... أُقَبِّلَ ذا الجِدارَ وَذا

(1) البخاري: 2/539، مسلم: 2/993.

وَما حُبُّ الدِيارِ   وَلَكِن حُبُّ مَن

قال: فما تقول في وصف حب الجبل لرسول الله ﷺ.. أم ترى أن رسول الله ﷺ ذكر ذلك من دون أن يكون لكلامه معنى واقعيا؟

قلت: معاذ الله.. وأستغفر الله.. وقد ألقمتني الحجة، فبورك فيك.. فقد حجبتني الغلظة أن أسمع ذلك.. وقد تذكرت لتوي حنين الجذع لفقد رسول الله ﷺ، فلم يسكن حتى ضمه ﷺ، فقد روي عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى لزق جذع فأتاه رجل رومي فقال أصنع لك منبرا تخطب عليه فصنع له منبرا هذا الذي ترون، قال فلما قام عليه النبي ﷺ يخطب حن الجذع حنين الناقة إلى ولدها، فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسكن فأمر به أن يحفر له ويدفن) (1)

قال: لقد ذكر القرآن الكريم ما يحمله هذا الكون الذي يراه الخلق جامدا من المشاعر النبيلة التي لا يستطيع أن يعيها القاسية قلوبهم من ذكر الله، ومنها ذكر مشاعر الحجارة وهي تهبط أو تتفجر أو تتشقق من خشية الله، كما قال تعالى:﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه﴾(البقرة: 74)

قلت: أجل.. بل إن الله تعالى وبخ العتاة الغلاظ حين قارن قلوبهم بالجبال التي يرونها قاسية، بينما هي أكثر لينا منهم، فقال: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21]

قال: وهكذا أخبر عن تأثر الكون جميعا بتلك الشتائم التي يسب بها البشر ربهم من دون أن يعوا ما يقولون.. لقد قال في ذلك: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي

---

(1) الترمذي: 2/379، الدارمي: 29.

لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: 90 - 92]

قلت: أجل.. وقد ذكرني حديثك هذا بأحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ أنستنيها الغفلة.. ومنها قوله ﷺ:(إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة) قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: (هم الذين إذا فسد الناس صلحوا)، ثم قال: (ألا لا غربة على مؤمن، وما مات مؤمن في غربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض) ثم قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾، ثم قال:(ألا إنهما لا يبكيان على الكافر) [1]

قال: إن هذا الحديث يبين لك ما ذكرته من كثرة أصدقاء المؤمن، حتى لو بدا غريبا بين الخلق.. ذلك أن الكل معه.. الله وملائكته ورسله وجميع الصالحين.. بل جميع الكائنات.. كلها معه.

قلت: لقد جعلني حديثك هذا أعي جيدا سر ذكر الله تعالى لكلب أصحاب الكهف في كل مرة يذكرون فيها.. بل إنه اعتبر أحدهم، حين ذكر ما قيل في عددهم، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: 22]

قال: أجل.. فقد كان ذلك الكلب الذي اتبعهم، وحرص على صحبتهم أفضل حالا من أولئك الجبابرة الذين أخرجوهم من بيوتهم، واضطروهم إلى أن يأووا إلى الكهف.

قلت: صدقت، وقد ذكرني حديثك هذا بنهي رسول الله ﷺ عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، ثم علل ذلك بقوله: (فرب مركوبة خيرا أو أكثر ذكرا لله تعالى من راكبها)[2]

---

[1] تفسير الطبري (25/75) ورواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت كما في الدر المنثور (7/412) وهو مرسل..

[2] رواه أحمد، 3/439.

قال: ولهذا أمرنا أن نذكر الله تعالى عند ركوبنا لها، لأنه أجرتها؛ فهي تستمع بذكرنا لله، وتستمع بـذكرنا للقائـه، قـال تعـالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَـقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـا وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْـكِ وَالْأَنْعَـامِ مَـا تَرْكَبُـونَ (12) لِتَسْـتَوُوا عَلَى ظُهُـورِهِ ثُمَّ تَـذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُـبْحَانَ الَّذِي سَـخَّرَ لَنَـا هَـذَا وَمَـا كُنَّا لَـهُ مُقْـرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَـا لَمُنْقَلِبُـونَ ﴾ [الزخرف: 12 - 14]

قلت: لقد ذكرتني بحـديث لرسـول اللـه ﷺ يقـول فيـه: (من قال إذا ركب دابة: باسـم اللـه الـذي لا يضـر مـع اسـمه شيء، سبحانه ليس له سميّ، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كمـا لـه مقـرنين، وإنـا إلى ربنـا لمنقلبـون، والحمـد للـه رب العالمين، وصلى الله على محمد وعليه وسلم، قـالت الدابـة: بارك الله عليك من مؤمن خففتَ عن ظهري، وأطعتَ ربــك، وأحسنتَ إلى نفسك، بارك الله في سفرك، وأنجح مقصدك)[1]

قـال: أجـل.. ولهـذا كـان من بركـات هـؤلاء الأصـدقاء الطيبين هذه الدعوات التي تنالها منهم.

قلت: أجل.. وقد ذكر رسـول اللـه ﷺ ذلـك، فقـال: (إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحـر يصلون على معلم الناس الخير)[2]

2 ـ أصدقاء الشهادة

قلت: وعيت هـذا، وقـد تمـنيت لـو أن أولئـك الشـعراء المتشائمين الـذين مـررت عليهم قبـل المـرور عليـك عرفـوا هذا، لأنهم لو عرفوه لما أصابهم ذلك التشـاؤم، ولاكتفـوا بمـا اكتفيت بــه أنت من أصــدقاء الغيب؛ فلا خــير إلا في عــالم الغيب.

1() الدعاء للطبراني (ص: 247)

2() رواه الترمذي (2609)

قال: الخير في عالم الغيب والشهادة..

قلت: ولكــني أراك قنعت بأصــدقائك من عــالم الغيب، وقليت بهم عالم الشهادة، وما يعج به من الضجيج والفوضــى واللغو.

قـال: لا تقـل هـذا.. فكمـا يوجـد في عـالم الشـهادة مـا ذكرت، يوجد أيضـا غـير مـا ذكـرت، والعاقـل هـو الـذي يـزن الأمور بموازين الحقيقة، لا بموازين الهوى.

قلت: ولكن الكل متفقون على أنـه لا صـداقة في عـالم الشهادة، وقد أثبتت لهم التجـارب ذلـك؛ فكـل من يصـادقونه يغدر بهم.

قال: وقد يغدرون هم به..

قلت: ذلك ممكن.

قال: الصديق الصادق هو الــذي لا يطلب من صــديقه إلا شيئا واحدا، وهو أن يسير معـه إلى اللـه، ويتعـاون معـه على عبادة الله، فيجتمعـان عليـه، ويتفرقـان عليـه.. أمـا الصـداقة الـتي تجمـع بينهـا المطـامع والأغـراض؛ فسـرعان مـا تـزول بزوالها، أو تتأثر بكل ما يؤثر فيها.

قلت: جميل ما تذكر.. وقد ذكرني حديثك هـذا بقولـه ﷺ في حديث السبعة الذين يظلّهم اللّه في ظلّه يـوم لا ظـلّ إلّا ظلّه؛ فقد ذكـر منهم: (.. رجلان تحابّـا في اللّـه اجتمعـا عليـه وتفرّقا عليـه)[1].. لكن وجـود هـذا الصـنف في عصـرنا يكـاد يكون مستحيلا، أو هو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.. وإن شئت الصراحة، فإني اقتنعت بكل ما ذكرته لي عن أصدقائك من عالم الغيب، لكني لن أصدق أبدا مـا تـذكره من أصـدقاء عالم الشهادة.

ابتسم، ثم نظر إلى الشمس، وهي تكاد تنحدر للغروب، فقال: أظن أن الشمس تكاد تغرب، ولذلك أرجو أن تشرفني

1() رواه البخاري، 1357 ، ومسلم 1031.

بالذهاب معي إلى بيتي؛ فقد دعوت بعض أصدقائي الليلة.. فلعلك تجلس معهم، ولعلك ترى منهم ما يقنعك بأن الله الذي رزقنا أصدقاء الغيب، يمكنه أن يرزقنا أصدقاء الشهادة.. فالله رب الغيب والشهادة، وكرمه يشمل الغيب والشهادة، ويتجاوزهما.

لم أجد ما أقول له، فقد كانت فرصة عظيمة لي لأكتشف المزيد من الأسرار عن الصداقة.. وبالفعل، فقد كان لتلك الزيارة إلى بيته أثرها الكبير على نفسي، ليس في تلك البلدة فقط، بل في كل البلاد، وليس في تلك الفترة فقط، بل في حياتي جميعا.

لقد رأيته مع أصدقائه مثل الأنوار الطاهرة المليئة بكل ألوان الجمال.. فقد كان الاحترام والمودة والأخلاق العالية هي الحاكمة في العلاقة بينهم.. ولم أكن أسمع بينهم أي لغو.. بل كانوا مثالا صادقا لتلك الأخوة التي ذكرها الله تعالى عن المؤمنين في الجنة حين قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: 47]

وقد كانوا يجتمعون كل حين، وكانت مجالسهم كلها مجالس خير وصلاح؛ فهم بين مذاكرة علم، أو قراءة قرآن، أو سماع وعظ، أو ممارسة رياضة، أو سياحة في الأرض، أو تعاون فيما بينهم في شؤون الدنيا، أو في شؤون الدين.

ولم تكن علاقتهم مرتبطة بهم فقط، بل كانت تشمل أسرهم أيضا، حيث كانوا يشكلون مع بعضهم مجتمعا إيمانيا راقيا لم أر مثله في حياتي.

والأعجب من ذلك كله هو دوام تلك العلاقة بينهم، لتشمل معظم حياتهم؛ فكلهم يعرف بعضهم بعضا منذ الطفولة الباكرة.. والأعجب منه تنوع وظائفهم تنوعا شديدا من غير أن يحول ذلك بينهم.

بعد أن رأيت كل ذلك، وعند عزمي على السفر لاستكمال رحلتي، سألت صاحبي عن سر نجاحه في اختيار أصدقائه؛ فابتسم، وقال: ألم تسمع قوله ﷺ: (إنما الأعمال

بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) [1]

قلت: بلى.. هذا الحديث يتحدث عن الأعمال، وارتباط الأجور بنيات أصحابها، لكن لست أدري ما علاقته بما نحن فيه.

قال: الأصدقاء الطيبون المخلصون من الأجور التي يقدمها الله لعباده في الدنيا، إن أحسنوا نياتهم.. فإن كانت نيتهم لله، وفي الله أثمرها الله، وأدامها، أما إن كانت لدنيا يطلبونها أو أهواء يتبعونها؛ فإن الله يرفع عنهم بركتها، وما كان لشيء رفعت بركته أن يدوم.

قلت: صدقت.. وقد ذكرني حديثك هذا بقوله تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: 67]؛ فقد أخبر الله تعالى فيها أن المودة البادية بين الأخلاء في الدنيا، ستنقطع إلا مودة المتقين..

قال: أجل.. فما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

قلت: كم كنت أتمنى أن أقضي عمري بينكم.. لكن شاء الله لي أن أكمل سياحتي في الأرض.. فهناك الكثير من المهام التي تنتظرني.

قال: أجل.. وكم تمنينا أن تبقى بيننا.. لكن عليك أن تؤدي ما كلفت به؛ فهناك الكثير ممن ينتظرك ليعلمك من أسرار الحياة، ما ينيلك خيرها، ويقيك شرها.

قلت: فهلا نصحتني قبل أن أكمل رحلتي.

قال: أنت لم تأخذ بعد عني كل أسرار الصداقة.. فهلم أكملها لك.

---

[1] البخاري: 1/ 3.

قلت: لقد تصورت أني اغتنيت بما رأيته منك، ومن أصدقائك.

قال: إن ما رأيته لم يكن ليتحقق لولا تلك النصائح الجليلة التي سمعناها جميعا من أفواه الصالحين الهداة.. أولئك الذين علمونا أسرار كل شيء.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد ذكرت لك أن صداقتنا كانت مؤسسة على طاعة الله، ومبنية على محبته.

قلت: أجل.. ألا يكفي ذلك لتأسيس الصداقة؟

قال: ما ذكرته جميل، ولكنه لا يكفي؛ فنحن نحتاج إلى دراسة متأنية في نوع الأصدقاء الذي يتناسبون معنا ومع طباعنا وتكاليفنا.

قلت: هل تقصد أننا نحتاج إلى انتقاء من نصاحبه؟

قال: أجل.. فقد يكون بعض الناس من المؤمنين الصادقين، ولكنك لا تجد في نفسك ما يدعوك إلى صداقته، ليس كبرا، وإنما لاختلاف الطباع والأمزجة.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بقوله ﷺ: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[1]

قال: أجل.. وقد أشار ﷺ إلى ذلك في قوله: (إن أرواح المؤمنين تلتقي على مسيرة يوم، ما رأى أحدهم صاحبه قط)[2]

قلت: لقد عبر الشاعر عن هذا المعنى، فقال:

وقائل كيف ... فقلت قولا فيه

---

[1] () رواه البخاري، 3158 ، ومسلم (2638)

[2] () رواه أحمد (6636)

لم يك من ... والناس أشكال

قال: أجل.. ولذلك لا ينبغي لمن يبحث عن الصداقة الحقيقية أن يرغم نفسه على من لا يتشاكل مع نفسه من الأصدقاء؛ فقد يؤدي ذلك إلى العداوة، وبها يتجاوز حدود الله، ويقع في الكثير من المحرمات.

قلت: لقد ذكرتني بالطعام؛ فمع كونه قد يكون حلالا إلا أن بعضنا يرغب في طعام، والآخر في غيره.

قال: أجل.. وقد كان من سنة رسول الله ﷺ أنه (ما عاب طعاماً قطُّ، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه)[1].. وهكذا الأصدقاء؛ فإنك إن رحت ترغمهم على نفسك حصل الشنآن بينك وبينهم، وتقع بذلك في الهجران المحرم، مع أنه كان في إمكانك ألا تقيم العلاقة أصلا.

قلت: صدقت.. وربما يكون أولئك الذين مررت بهم من المتشائمين لم يدركوا هذا؛ فلهذا تحولت صداقتهم إلى عداوة.

قال: أجل.. فالصداقة مثل البناء.. إذا بني على غير أسس صحيحة انهار.

قلت: لكن وضع ما ذكرت من الأسس صعب.. فهل عندك من العلم ما يجعلني أضع به المعايير التي أميز بها الأصدقاء الذين تنفعني صحبتهم عن غيرهم.

قال: لقد ذكر لنا الهداة الذين تتملذنا على أيديهم الكثير من الموازين التي نزن بها الأصدقاء الذين يمكننا أن نستفيد منهم.

قلت: فهلا ذكرتها لي.

قال: سأذكر لك أربعة منها.. إن ظفرت بمن توفرت فيه ظفرت بالإكسير الأحمر الذي يغنيك عن كل أصدقاء

---

[1] مسلم (2064) (188)

الدنيا.

صحبة العقلاء:

قلت: فما أول موازين الأصدقاء؟

قال: ما أول شروط التكليف؟

قلت: العقل.. فلا يمكن أن يكلف مجنون.

قال: فكذلك الصداقة، لا يمكنك أن تصاحب مجنونا، وإلا عداك بجنونه.

قلت: لا أحد من الناس يرغب في صحبة المجانين، وهم لا يكادون يرغبون في صحبة أحد.. ولذلك لم تكن بحاجة لوضع هذا الميزان، لأنه موجود في الفطرة.

قال: الجنون ليس فقدان العقل فقط.. فمن الجنون ما لا يختفي فيه العقل، وإنما يختفي فيه استعماله.

قلت: ما تقصد؟

قال: هل تعرف قصة ذلك الرجل الذي صاحب دبا؟

قلت: أجل.. وأحفظها منظومة.. فقد قال الشاعر ينظمها [1]:

كفعل ذاك	بِخِلِّه المُحِبِّ
روى أولوا	عن رجل
أبصر في	فسيحة
دُبًّاً عظيما	في سِرْحة
يعوي عواء	من شدة
فأدركته	عليه حتى

1() انظر: منظومة نغمة الأغاني في عشرة الإخوان، وناظمها هو ابن معصوم أحمد بن علي الحسني.

وحله من قيده   لأمنه من كيده

ونام تحت   منام من قد

طولَ الطريق   فنام من فرط

فجاء ذاك   عن وجهه

فقال هذا   جَفَّاه لا يحِلُّ

أنقذني من   وفك قيدَ

فحقه أن   من كل سوء

فأقبلت ذبابه   ترن كالربابه

فوقعت لحينه   على شِفار

فجاش غيظُ   وقال لا وربي

لا أدع الذبابا   يُسِيمُه عذابا

فأسرع الدبيبا   لصخرة قريبه

فَقَلَّها وأقبلا   يسعى إليه

حتى إذا حاذاه   صكَّ بها

ليقتل الذبابة   قتلاً بلا إرابه

فَرَضَّ منه   وفرق

وأهلكْ الخليلْ   بفعله الجميلْ

قال: فهل فهمت القصد من هذه الرواية؟

قلت: أجل.. وقد ذكره صاحبها، فقال بعد ذكره لها:

فهذه الرواية   تنهى عن

في طلب   عند أولي

إذ كان فعل   هذا لفرط

قال: وقد ذكر في مقدمتها ما يبين غرضه منها، فقال:

لا تصحبنَّ   المائقَ

عدو سوء عاقلُ ولا صديق جاهلُ

إن اصطحاب من أعظم

فإنه لحمقه وخَبطه في

يحب جهلاً فعله وأن تكون مثله

يستحسن ويبغض النصيحه

بيانه فهاهة وحلمه سفاهة

وربما تمطَّى فكشف

لا يحفظ ولا يخاف عارا

يعجب من غير يغضب من غير

كَثيرُه وجيز ليس له تمييز

وربما إذا نظر أراد نفعا فأضر

قلت: أجل.. وقد قال قبله أبو العتاهية:

احذر الأحمق أن إنّما الأحمق كالثّوب

كلّما رقّعته من زعزعته الرّيح يوما

أو كصدع في زجاج هل ترى صدع زجاج

فإذا عاتبته كي زاد شرّا وتمادى في

قال: فقد نصحك هؤلاء الشعراء؛ فاستمع لنصائحهم، واستفد من تجاربهم؛ فالحكمة ضالة المؤمن أين وجدها؛ فهو أحق بها.

قلت: ولكني لم أؤمر أن آخذ ديني من الشعراء، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: 225، 226]

قال: وقد قال ذلك الحكماء، بل سادة الحكماء، ألم تسمع وصية الإمام علي التي يقول فيها: (لا عليك أن تصحب ذا العقل وإن لم تحمد كرمه، ولكن انتفع بعقله واحترس من سيء أخلاقه، ولا تدعن صحبة الكريم وإن لم تنتفع بعقله،

ولكن انتفـع بكرمـه بعقلـك، وافـرر كـل الفـرار من اللـئيم الاحمـق)[1]، وقـال في درر حكمـه: (صـحبة الأحمـق عـذاب الروح)[2]

قلت: بلى.. وقـد ذكـرني حـديثك هـذا بمـا رواه الإمـام الصادق من وصية ورقة بن نوفل لخديجة بنت خويلـد، والـتي قال لها فيها: (يا بنت أخي، لا تمـاري جـاهلا ولا عالمـا، فإنـك متى ماريت جـاهلا آذاك، ومـتى مـاريت عالمـا منعـك علمـه، وإنمـا يسـعد بالعلمـاء من أطـاعهم.. أي بنيـة، إيـاك وصـحبة الأحمق الكذاب، فإنه يريد نفعك فيضرك، يقرب منك البعيـد، ويبعد منك القريب، إن ائتمنته خانك، وإن ائتمنك أهانـك، وإن حدثك كذبك، وإن حدثتـه كـذبك، وأنت منـه بمنزلـة السـراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا)[3]

قال: ويكفيك أن تقرأ القرآن الكريم لترى قيمة العقل

قلت: ولكن لم لا نصادق الحمقى بنية توجيههم وتربيتهم وإصلاحهم، ومنعهم من ارتكاب أي حماقات؟

قـال: مجاهـد من يفعـل ذلـك.. لكن عليـه أن يلبس من الدروع، ويسـكن من الحصـون مـا يتقي بـه هجمـات الحمـق ونوباته.

قلت: ما تعني؟

قال: ألم تسمع قول الشاعر:

لكلّ داء دواء يستطبّ به   إلا الحماقة أعيت من يداويها

قلت: بلى.. وقد سمعت معه قول المتنبيّ:

1() الكافي 2: 446 | 1.

2() غرر الحكم: 5839.

3() الأمالي للطوسي ص : 45.

ومن البليّة عذل من لا يرعوي   عن جهله وخطاب من لا يفهم

قال: وقبلهم جميعا ما روي عن المسيح عليه السلام، وأنه أتي بأحمق ليداويه، فقال: (أعياني مداواة الأحمق، ولم يعيني مداواة الأكمه والأبرص)[1]

صحبة الحلماء:

قلت: وعيت هذا؛ فما الميزان الثاني لاختيار الأصدقاء.

قال: العقل عقلان.. عقل يعقل به صاحبه المعاني، وعقل يعقله عن الطيش والعجلة والعنف.. ويملؤه بالحكمة والتؤدة واللطف.

قلت: أراك تومئ إلى الحلم.

قال: أجل.. فلا خير في صديق عجول، يغضب لأدنى الأسباب، ويقطع حبال المودة والألفة لأقل خطأ يراه.

قلت: إن مثل هذا لا يحسن له أن يصحب إلا المعصومين، وإلا فإن كل البشر خطاءون.. ولا يمكن أن يجد معصوما.

قال: إن مثل هذا لن يقبل حتى بصحبة المعصومين.

قلت: كيف؟

قال: ألم تسمع بذلك الرجل الذي قال لرسول الله ﷺ: (اعدل يا محمد فإنك لم تعدل)

قلت: بلى.. وقد قال له رسول الله ﷺ حينها: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل.. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل)[2]

---

[1] () محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (1/ 28)

[2] () البخاري (3610) ومسلم (1064)

قال: فهذا الرجل كان يملك عقلا مملوءا بالطيش والتهور والجهل، ولذلك اعتبر نفسه ميزانا يزن به الحقائق والقيم.. بل يزن به أعمال رسول الله ﷺ نفسها.

قلت: هل تقصد أن مثل هذا لا تحسن صحبته؟

قال: أجل.. لأنه لا يريدك أن تمارس حياتك بحسب ما ترتضيه من القيم، وإنما يريد أن يقلب حياتك لما يراه منها.. ولذلك قد يرى صوابك خطأ، وعدلك ظلما.

قلت: ولكنه قد يكون ناصحا بذلك.

قال: فرق كبير بين الناصح الحليم، والناصح الجهول.. فالناصح الحليم يتأنى ويستعمل كل ألوان الحكمة، حتى يوصل لك نصيحته من حيث لا تشعر، وأما الجهول الذي يعتبر نفسه ناصحا، فإنه يثور فيك، ويحتقرك، ويملأ حياتك مهانة.. ولذلك كانت نصيحته في حال صحتها فضيحة، وكان نهيه عن المنكر منكرا لا يقل عن نهيه.

قلت: لقد ذكرتني بأولئك الجهال من المشركين الذين راحوا يفرضون على رسول الله ﷺ أن ينزل مستواهم حتى يقبلوا صحبته.. لقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: 7، 8]

قال: أجل.. ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: 90 ـ 93]، وقد أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 93]

قلت: وعيت هــذا.. وأصــدقك القــول؛ فــإن الصــديق الحقيقي هو الذي لا تشعر معه بأي تكلف، ولا ثقل، بل تكون معه كما تكون وحدك.. ذلك أن الـذي يحاسـبك على الصـغير والكبير لن تنال من صحبته إلا الغصص.

قال: ولـذلك كـان هـذا المـيزان مكملا لمـيزان العقـل.. فالجهول لا يختلف عن الأحمق.. بـل قـد يكـون الأحمـق ألين جانبا من الجهول.

قلت: صدقت.. فبعض الجهلة يريد من صديقه أن يكـون عبدا من عبيده، يأتمر بأوامره، وينتهي عند نواهيــه، ولا يقبــل منه إلا ذلك.

قــال: أجــل.. فعلامــة اكتمــال العقــل اكتمــال الحلم.. والجهـول والمسـتعجل لم يكتمـل عقلـه، ولـذلك يحكم على الأشياء من غير ترو ولا بصيرة ولا نظر.

قلت: صدقت.. وقد قال الشاعر يذكر ذلك:

ما تم حلم ولا علم بلا أ ... ولا تجاهل في
وما التجاهل إلا ثوب ... وليس يلبسه إلا

قــال: ليس ذلــك فقــط، بــل إن الجهــول غــير مكتمــل الإيمان.. ولو كان مؤمنا حقا، لردعـه إيمانـه عن الجهـل على خلق الله.. وقد روي عن بعض الصالحين أنـه قـال لابنـه: (إذا غضـبت فـانظر إلى السـماء فوقـك، وإلى الأرض تحتـك، ثم عظم خالقهما)

صحبة الطاهرين:

قلت: وعيت هذا؛ فما الميزان الثالث لاختيار الأصدقاء؟

قال: ذلك الذي الـذي أشـار إليـه قولـه تعـالى: ﴿وَثِيَابَـكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: 4]

قلت: تقصد أصحاب الثيـاب الطـاهرة النظيفـة الـذين لا تشم منهم إلا الروائح الطيبة..

قال: وأقصد معها أصحاب القلوب الطاهرة النظيفة التي لا تسمع منها غيبة ولا نميمة، ولا تشم منها روائح حقد ولا حسد ولا ظغينة.

قلت: أتلك التي قال الله تعالى في وصف أصحابها: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: 47]

قال: أجل.. فلا يمكنك أن تثق في صديق يزين ظاهره، ويخرب باطنه.. لأن باطنه سيسيطر على ظاهره، ليعديك أو يؤذيك.. ولذلك سبق الآية التي ذكرتها قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر: 46]، ذلك أنه لا يمكن أن يحل السلام مع صديق ممتلئ بدنس العداوة.

قلت: ولكن الآية الكريمة تصف أهل الجنة.

قال: لن يدخل أحد الجنة حتى يصبح أهلا لها.. وأول شروط دخول الجنة طيبة القلب وطهارته، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73]؟

قلت: بلى.. وقد سمعت معها قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام، وهو يصف منهاج النجاة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 87 - 89]

قال: وقد قال الله تعالى بعدها: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: 90]، ليبشرنا أن الجنة أقرب ما تكون لأصحاب القلوب السليمة، بل تعجل لهم في الدنيا قبل الآخرة..

قلت: أجل.. لكن ما علاقة هذا بالصداقة، وباختيار الأصدقاء؟

قال: بم شبه رسول الله ﷺ الصديق الصالح؟

قلت: شـبهه بحامـل المسـك، فقـال: (مثـل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحـذيك، وإمـا أن تبتـاع منـه، وإمـا أن تجـد منـه ريحـا طيبة، ونافخ الكير: إمـا أن يحـرق ثيابـك، وإمـا أن تجـد ريحـا خبيثة)[1]، وفي رواية: (مثل الجليس الصـالح كمثـل العطـار، إن لا يحذك يعبق بك من ريحه)[2]

قـال: فقـد دعانـا رسـول اللـه ﷺ أن نعيش إخوانـا على سـرر متقـابلين في جنـة الـدنيا قبـل أن نعيشـها في جنـة الآخرة.. ذلك أن روائح الأعمال الصالحة، والقلوب الطـاهرة، والنفوس النقية هي التي نراهـا عيانـا يـوم القيامـة في ذلـك النعيم الأبدي.

قلت: أجل.. وقد ذكرني حديثك هذا بقوله ﷺ: (إذا دخـل أهـل الجنـة الجنـة اشـتاقوا إلى الإخـوان؛ فيجىء سـرير هـذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدثان بما كانـا فى الـدنيا، فيقـول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدرى أى يوم غفر الله لنا، يوم كذا، فى موضع كذا وكذا؛ فدعونا الله فغفر لنا)[3]

قال: لقد ذكر رسول اللـه ﷺ نـوع الأحـاديث الـتي كـان يتحدث بهـا هـؤلاء الإخـوان في الـدنيا، والـتي أهلتهم لـدخول الجنة.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: من أول ثمـرات صـحبتك للطـاهرين أن المجـالس التي تجلس معهم فيها تفوح بروائح الطهارة الزكية.

قلت: لقـد ذكرتـني بقصـيدة جميلـة للشـيخ أبي مـدين التلمساني يقول فيها:

1() رواه البخاري ، 5534..

2() رواه ابن المبارك في الزهد (358) ، وابن أبي شيبة 13/385-386.

3() رواه البزار، جامع الأحاديث (3/ 117)

تحيا بكم كل أرض ... كأنكم في بقاع الأرض

وتشتهي العين فيكم ... كأنكم في عيون الناس

ونوركم يهتدي الساري ... كأنكم في ظلام الليل

لا أوحش الله ربعاَ من ... يا من لهم في الحشا

قـال: وقـد قـال في قصـيدة أخـرى يصـف أصـدقاءه الصالحين من الفقراء إلى الله:

ما لذة العيش إلا صحبة ... هم السلاطين والسادات

فاصحبهموا وتأدب في ... وخل حظك مهما قدموك

واستغنم الوقت واحضر ... واعلم بأن الرضا يختص

ولازم الصمت إلا إن ... لا علم عندي وكن

ولا تَرَ العيب إلا فيك ... عيباً بدا بيِّناً لكنه استترا

وحط رأسك واستغفر بلا ... وقف على قدم الإنصاف

إن بدا منك عيب فاعتذر ... وجه اعتذارك عما فيك

وقل عبيدكموا أولى ... فسامحوا وخذوا بالرفق

هم بالتفضل أولى وهو ... فلا تخف دركا منهم ولا

وبالتغني على الإخوان ... حساً ومعنى وغض

قلت: ما أجمل هذه الكلمات.

قال: وأجمل منها المعاني التي تحملها.. فمن عـاش في صـحبة الطـاهرين، تطهـر قلبـه، وكـانت صـحبته لهم معراجـا يعرج به إلى ربه.

قلت: أجل.. فالصداقة ليست مجرد محل للأنس فقــط، بل هي محل للتطهير والطهارة..

قال: كما أنها محل للتنجيس والنجاسة.

قلت: أجل.. ولذلك أخـبر اللـه تعـالى عن النـدم العظيم الذي يصـيب أولئـك الـذين لم يسـتعملوا عقـولهم في اختيـار

أصـدقائهم.. لقـد قـال اللـه تعـالى في شـأنهم: ﴿وَيَـوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَـبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَـا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُلَانًـا خَلِيلًا (28) لَقَـدْ أَضَـلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَـانَ الشَّـيْطَانُ لِلْإِنْسَـانِ خَـذُولًا ﴾ [الفرقان: 27 - 29]

قـال: وفي مقابـل ذلـك وصـف رسـول اللـه ﷺ أولئـك الأصدقاء الطيبين الممتلـئين بالطهـارة، فقـال: (إن من عبـاد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبيـاء والشـهداء يوم القيامة بمكانهم من الله)، قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بـروح اللـه على غـير أرحـام بينهم ولا أمـوال يتعاطونهـا، فواللـه إن وجـوههم لنـور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62]

قلت: أجـل، وقـد ورد في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ سئل: يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: (من ذكـركم اللـه رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم في الآخرة عمله)[1]

قال: هـذه هي الصـداقة الحقيقيـة.. وهي سـر دوامهـا.. فالطاهر لا يمل منه، ولا يحمـل في قلبـه من الأحقـاد مـا قـد ينفجر في أي لحظة.

قلت: صـدقت.. فـالكثير من أسـباب انقطـاع المـودة والتآلف بين الأصدقاء تلك الأحقـاد الـتي تنتشـر بينهم، والـتي تحولهم إلى أعداء بعد أن كانوا أصدقاء..

قال: بل لم يكونوا أصـدقاء أبـدا.. فالصـداقة تبـنى على الصدق، ولا محل فيها للأحقاد والضغائن.

صحبة الناصحين:

قلت: وعيت هذا؛ فما الميزان الرابع لاختيار الأصدقاء؟

1() البيهقى فى شعب الإيمان (7/57، رقم 9446)

قال: ذلك الذي الذي أشار إليه قوله تعالى في الســورة التي تشرح موازين الربح والخسارة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)

قلت: هل تقصد التناصح والتواصي بالبر والتقوى؟

قال: أجل.. فلا خير في الصديق الذي يحمي صاحبه من نيران الدنيا، ثم لا يبالي أن تحرقه نيران الآخرة.

قلت: لقد قـرن اللـه تعـالى التواصـي بـالحق بالتواصـي بالصبر؛ فهل لذلك علاقة بالصداقة؟

قــال: أجــل.. فلا يمكن أن يصــدق في نصــيحته من لم يتحل بحلية الصبر، ألم تسمع وصية لقمان عليه السلام لابنه، والتي يقول له فيها: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ﴾ (لقمان:17)؟

قلت: بلى.. فقــد قــرن دعوتــه إلى الأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكر بدعوته للصبر.. ولكـني لا أزال أسـأل عن سر ذلك.

قال: الصديق الصادق الصدوق هـو الـذي يبـذل نصـيحته بكل شفقة ومحبة، ثم لا ينتظر بعدها جزاء ولا شكورا، بل قد ينتظـر سـبابا وشـتائم.. لـذلك دعانـا اللـه تعـالى إلى الصـبر والتحمل، وعدم المقابلة بالمثل، وعدم قطـع الصـداقة لأجـل ذلك، وإلا كان القاطع شريكا للمخطئ.

قلت: ألا يمكن أن يصــبر أحــدنا على أخطــاء أخيــه؛ فلا يغيرها حتى لا يتسـبب ذلـك في قطـع حبـال المـودة.. فـأكثر الناس الآن يعتبرون النصيحة تدخلا في الشؤون الشخصية.

قــال: صــديقك من صــدقك، لا من غشــك، ومن رأى منكــرا، وهــو قــادر على أن يغـيره فلم يفعـل كـان شــريكا لصاحبه.

قلت: إن هذا يهدد الصداقة.

قال: بل هو يؤسس لها أساسا صحيحا.. ذلك أن صديقك الذي تغضبه نصيحتك، وقد يقاطعك بسببها، سرعان ما يعود إليك، وهو أكثر احتراما لك، لأنه يشعر أنك كنت صادقا معه.

قلت: أنت تذكرني بما حصل لي في بعض الفترات من حياتي مع بعض أصدقائي؛ فقد حذرته من بعض الجهات التي كانت تحرضه على الفتنة.. وقد ثار في وجهي حينها، وغضب غضبا شديدا، لكنه بعد فترة قصيرة جاء إلي معتذرا، وأخبرني أنه قد فطن إلى ما كان يراد منه، وأن نصيحتي التي رفضها في ذلك الحين، بقيت تعمل عملها في خاطره إلى أن دعته للتثبت والتحقيق، وقد اكتشف بنفسه كل ما ذكرته له.

قال: ولهذا يقرن الله تعالى النصيحة بالصبر.. فالناصح الصادق هو الذي يلقي كلمته، مثلما يلقي الفلاح البذرة.. ثم لا ينتظر أن تنتج في ذلك الحين.. بل قد يحتاج نباتها إلى زمن طويل.

قلت: فالنصيحة إذن هي بذر بذور الخير دون انتظار حصادها.

قال: هذا هو الناصح الصادق.. فهو يتعامل مع ربه قبل أن يتعامل مع صديقه.. وهو يؤدي ما وجب عليه، ولا ينتظر أن يرى ثمار ما غرسه.

قلت: صدقت.. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى لأشرف خلقه ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ (الشورى: 48)، وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: 54)، وقال حاكيا عن رسله: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (يّس:17)

قال: الهداية بيد الله، والناصح ليس سوى دال عليها، وله أجر ذلك.. ولذلك كان أدبه فيها أن يراعي حقوقها، ويؤديها كما أمر بها، ثم يترك صاحبها وشأنه.

قلت: فما حقوقها؟

قال: أولها أن ينظر في نصيحته، وهـل هي من المعـاني المتفق فيها، أم من المختلف فيها؛ فـإن كـانت من المختلـف فيه؛ فليس عليه أن يتشدد فيها، بل يكفيه أن يذكر مـا يـراه، ويحترم رأي غيره.. بل ليس له أن يسوقها في قالب النصـح، وإنما أن يسوقها كما يسوق سائر الحديث.

قلت: أجـل.. ولهـذا نص الفقهـاء على أنـه لا إنكـار على المختلف فيه.. وقد قـال في هـذا بعضـهم: (إذا رأيت الرجـل يعمـل العلم الـذي اختلـف فيـه، وأنت تـرى غـيره فلا تنهـه)، وقال: (ما اختلف فيه الفقهاء، فلا أنهي أحـداً من إخـواني أن يأخذ به)، وقال آخر: (لا ينبغي للفقيـه أن يحمـل النـاس على مذهب، ولا يشدد عليهم)[1]

قلت: ألهـــذا كـــان أصـــدقاؤك من مـــذاهب متعـــددة، ومشارب متنوعة؟

قال: أجل.. وقد استفدت من تنوعهم الكثير من العلــوم والمعارف والقيم التي لم أكن لأسـتفيد منهـا لـو كـانوا نوعـا واحدا.

قلت: ولكن.. ألا تتألم عنـدما تـراهم مختلفين معـك في الكثير من القضايا؟

قـال: ولم أتـألم؟.. أليس اللـه هـو الـديان، ونحن لسـنا سوى عبيده؟

قلت: ألهذا لم أرك مع طول مقامي معكم تنصحهم؟

قال: وكيف عرفت أني لا أقوم بذلك؟

قلت: لقد كنت معكم، ولم أرك تقوم بذلك.

قال: لو قمت بذلك لكان مـا فعلتـه فضـيحة لا نصـيحة.. فالنصيحة تحتاج إلى اختيار الزمـان والمكـان المناسـبين، وألا

---

[1]() انظر: الآداب الشرعية: 1/ 186..

يكون فيها أي أذى للمنصوح.

قلت: صدقت.. وقد ذكرني قولك هذا بما ذكره بعض الفقهاء عند ذكره لآداب النصيحة، فقد قال: (من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه)[1]، وقال آخر: (المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير)، وقال آخر: (وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلابد من التصريح)[2]

قال: على هذا نص الكل.. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.. فالمؤمن هو الذي يراعي مشاعر الآخرين، ويتسلل إلى قلوبهم بكل هدوء، وإن أراد نصحهم استعمل لذلك كل الحيل المناسبة حتى يوصل لهم رسالته من غير أن يشعروا.

قلت: لقد ذكرتني بحديثك هذا عن الإمامين الجليلين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، فقد روي أنهما مرا على شيخ يتوضأ ولا يُحسن، فأخذا في التنازع يقول كل واحد منهما: أنت لا تحسن الوضوء، فقالا: أيها الشيخ كن حكما بيننا، يتوضأ كل واحد منا، فتؤضآ، ثم قالا: أيّنا يحسن الوضوء؟ قال: (كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يُحسن وقد تعلّم الآن منكما، وتاب على يديكما ببركتكما، وشفقتكما على أمة جدكما)[3]

بعد هذه الأحاديث وغيرها رحلت عن هذه البلدة، وأنا أشعر بأن الله قد من علي؛ فعرفت سرا من أسرار الحياة العميقة، التي لا يمكن لأحد أن يفلح، ولا أن يفوز، ولا أن يجتاز العقبات دون أن يعرفها.

---

[1] جامع العلوم: (ص:77)

[2] الأخلاق والسير: (ص 44)

[3] بحار الأنوار 43/319.

قلت: عـرفت أسـرار العـداوة والصـداقة.. فحـدثني عن أسرار السنن.. وعلاقتها بأسرار الحياة.

قال: بعد أن كشف الله لي بفضله ومنته أسرار العـداوة والصداقة.. رحت أبحث عن أسرار السنن.. فقد عرفت أنه لا يمكن أن أصـادق الحيـاة والكـون، ولا يمكن أن أنسـجم في النظام الذي نظم الله به الكائنات ما لم أعرف القوانين التي بنى الله عليها الكون والحياة؛ فأراعيها وأحفظها وأسـير على مقتضاها.. فمن لم يراع السـنن صـدمته من حيث يحتسـب.. أو من حيث لا يحتسب.

وقـد رزقـني اللـه ــ أثنـاء ذلـك البحث ــ لقيـا كثـير من العارفين والصالحين والعلماء المحققين الذين كشفوا لي من أسرار السنن الإلهية ما ملأني تعظيما لله.. ولقوانين الله.

وقد رأيت أن الكثير من تلك التفاصيل التي تعلمتها على أيديهم يمكنها أن تجتمع في نوعين من السنن: سنن التغيـير، وسنن التمكين.

لن أقص عليك هنا كل ما رأيته وسمعته؛ فذلك يستدعي أسفارا ضـخمة لا يفي هـذا المجلس بهـا.. ولكـني بـدل ذلـك سأقص عليك قصة رحلة من رحلاتي تعلمت منهـا الكثـير من القوانين المرتبطة بذينك النوعين من السنن.

1 ـ سنن التغيير:

في رحلـة من رحلاتي.. قـدر اللـه للطـائرة الـتي كنت أمتطيهـا أن يحـدث لهـا بعض العطب الـذي جعلهـا تتوقـف اضـطراريا في بعض المطـارات المهجـورة في بلـدة نائيـة ممتلئة بـالآلام، كـان الاسـتعمار والاسـتعباد والاسـتذلال وكـل أنواع القهـر والظلم تسـكن فيهـا جنبـا إلى جنب مـع بشـرها وحجرها ووبرها ومدرها.

وقد جعلني ذلك أتألم كثيرا لهـذا البلاء الـذي اختـير لهـا، واختبرت به، وقـد زاد في طينـة بلائي مـا كنت أراه فيهـا من ظهور المتمـردين على اللـه، أولئـك الـذين اتهمـوا اللـه بأنـه سبب ما يحصل لهم، وأنه هو الذي اختـارهم من دون النـاس جميعا ليكونوا نماذج للقهر الإلهي.

وقد ساعد على انتشارهم أولئـك الـذين يحملـون صـورا مشـوهة عن اللــه والوجــود والكــون والحيــاة.. لقــد كــانوا يسيرون بين الناس، وينشـرون فيهم أن كـل مـا يحصـل لهم ليس سوى قدر إلهي، وأن عليهم أن يسـتقبلوه بصـدر رحب، وأن أي معترض يعترض على ذلك، إنما يعترض على الله.

وقـــد رأيت آخـــرين منهم يواجهـــون ذلـــك الاســـتعباد والاستعمار بطرق غريبة يختلط فيهـا الـدين بالشـعوذة.. فهم يستعملون الطلاسم والأوفاق، ويتصـورون أنهم بهـا يمكن أن يتغلبوا على عدوهم.

ورأيت بعضهم يكتفي بالدعاء بتجميد الدماء التي تسري في عـــروق المســـتعبدين لهم، ويكتفي بـــذلك، ويتصـــور أن الدعاء وحده سهام الله التي تصيب أعداء الله، وأن من فعل ذلك فهو المجاهد الحقيقي، حـتى لـو لم يتحـرك بـأي حركـة، ولم يبذل أي جهد.

وقـد رأيت فـوق ذلـك كلـه أسـواق الشـعوذة منتشـرة بكثرة، ولهذا لا يواجهون ما يحصـل لهم من البلاء بمـا يقابلـه من العمل، وإنما يواجهونه بطرد الشياطين والسحرة والفرار من العين وتوابعها وأزلامها.

وقد رأيت غير ذلك.. أشياء كثيرة لا يمكن أن أصفها لك، وربما لا ينفعك وصفي لها.

أما عدوهم؛ فقد كان يجثو فوق أرضهم، ويضرب بعضهم ببعض، ويستثمر كل نقاط الضعف الـتي امتلأوا بهـا، ليجعلهم خدما وسدنة لأغراضه، ومطالبه التي لا تنتهي.

في غمـــرة تلـــك الآلام ســـمعت برجـــل صـــالح ممتلئ

بالحكمة، وأنه انفرد دون الناس في محل محصن لا يسـتطيع أن يصل إليه عدوهم بما لديه من عتاد وأسلحة.

وسمعت أيضا أن شباب المدينة يتسللون إليه كـل حين، ليسمعوا منه، ثم يعودوا إلى مدينتهم ليحدثوها بما سمعوه..

وقد استفزني ذلك إلى البحث عنه، والسـير إليـه.. وقـد وفقني الله لذلك بعد المـرور على إجـراءات أمنيـة مشـددة؛ فقد كان يضع الحرس والعيون في كـل مكـان، حـتى يراقبـوا الداخلين والخارجين..

عنـــدما دخلت إليـــه بـــادرني بالتحيـــة، والكلام الطيب اللطيـف، واعتـذر لي عن تلـك الإجـراءات الأمنيـة المشـددة التي مررت بها، وأخبرني أن ذلـك لم يكن إلا للضـرورة الـتي تستدعيها الظروف التي يعيشها، والتي تهدد حياته كل حين.

وقد حاولت حينها أن أبدو لـه مثـل سـائر النـاس الـذين يسكنون المدينة، ويمتلئون بالضـعف، لأعـرف أسـرار تـأثيره فيهم..

قلت له: عجبا لك أيها الأستاذ.. عندما سمعت بـك، كنت تصور أنك الشجاع الذي لا يغلب، والبطل الذي لا يقهر، لكني فوجئت بـأن ذلـك كلـه مجـرد دعـاوى، لا حقيقـة لهـا.. فـأنت تحتاط لنفسـك، وكأنـك سـتخلد في الـدنيا.. ألم تسـمع قولـه تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: 3]؟

قال: بلى سـمعتها.. وسـمعت معهـا قـول موسـى عليـه السلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْـرِمِينَ ﴾ [القصص: 17]، ورأيت معها ما فعله رسول اللـه ﷺ حين هم بـالهجرة إلى المدينـة المنـورة.. فقـد اتخـذ كـل الاحتياطـات اللازمة لذلك.

قلت: ولكن ألا ترى أنك بذلك تفر من أقدار الله.

قـال: بلى.. ولكن ليس إلى أقـداري، وإنمـا إلى أقـدار الله.. لأن اللـه تعـالى وضـع لنـا كـل الفـرص، وأتـاح لنـا كـل الوسائل، ووضـع بين أيـدينا كـل الاختيـارات، لنمـارس حياتنـا

بكل حرية.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)؟

قلت: بلى.. سمعتها.. فما فيها من العلم؟

قال: يخبرنا الله تعالى في الآية الكريمة بأن أقداره المرتبطة بالتكليف ليست ملزمة لنا، ويمكننا أن نمحوها إذا أردنا..

قلت: ولكن الله تعالى أخبر أنه هو الذي يتولى ذلك، وليس البشر، فالله هو سيد القدر، لا البشر.

قال: ولكن ذلك المحو والتبديل خاضع لسلوكاتنا واختياراتنا، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11]

قلت: بلى.. وقد سمعت معها ما ورد في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال ـ حاكيا عن ربه ـ: (قال الرب: وعزتي وجلالي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي)[1]

قال: فهذا الحديث يخبر أن الله تعالى ينزل من الأقدار على عباده بحسب استعداداتهم؛ ولذلك كانوا هم من يصنع قدرهم.

قلت: لا تزال نفسي تنفر من هذا الذي تقوله.. فالقدر مرتبط بالله، وليس مرتبطا بالعبد.. أتريد من العباد أن يصارعوا ربهم؟

قال: معاذ الله أن أقول ذلك.. ولكن رسول الله ﷺ نفسه هو الذي قال ذلك، ولم أكن أتجرأ لأذكره لولا أني سمعته منه ﷺ.

---

[1] رواه ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (19)

قلت: أهناك حديث يذكر فيه رسول الله ﷺ هذا؟

قال: أجل.. ألم تسمع قوله ﷺ: (لا يغنى حــذر من قــدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقــاه الدعاء، فيعتلجان الى يوم القيامة)[1]

وقال في حديث آخر: (لا يرد القــدر إلا الــدعاء، ولا يزيــد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الــرزق بالــذنب يصــيبه)[2]

قلت: أفكــل مــا نــزل بهــذه المدينــة من الاســتعباد والاستذلال كان بسبب أهلها؟

قال: أجل.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَـيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِـدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 65، 66]؟

قلت: بلى.. وسمعت معها قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: 16]

قال: فقــد كــان المــاء الغــدق مرتبطــا باســتقامتهم على الطريقة.

قلت: أجل.. ومثله ما قاله نوح عليه السلام لقومه، فقد كان من جملة خطابــه لهم قولــه: ﴿اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَـانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِــلِ السَّــمَاءَ عَلَيْكُمْ مِــدْرَارًا (11) وَيُمْــدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ أَنْهَـارًا (12)ـ ﴾ [نوح: 10 - 13]

---

[1] () رواه الحاكم (1/669 رقم 1813) وقال: صحيح الإسناد. والخطيب (8/453) والطبرانى فى الأوسط (3/66، رقم 2498)

[2] () رواه ابن أبي شيبة 10/441-442، وابن ماجه (90) و (4022) ، وابن حبــان (872)

قال: ومثله ذلك الوعد الإلهي لأصحاب رسول الله ﷺ بأن يمدهم بالجنود من الملائكة، لكن بشرط الصبر والتقوى، قال تعالى: ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: 125]

قلت: أنا لا أتحدث عن المدد الغيبي، ولكني أتحدث عن مدد الشهادة..

قال: قوانين الغيب والشهادة واحدة.. والله يثيب عباده بالغيب والشهادة، ويعاقبهم بهما.

قلت: أترى أن ما يحصل في هذه المدينة عقاب إلهي؟

قال: أجل.. هو عقاب إلهي.. فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

قلت: ولكن ما ذنب هؤلاء.. وهم مسلمون وقد سلط الله عليهم الكفرة.

قال: هم مسلمون في صلاتهم وصيامهم وحجهم وذكرهم لربهم.. لكنهم ربما يكونون كفرة فيما عدا ذلك..

قلت: أمن الممكن أن يتجزأ الإسلام، فيكون الشخص نصف مسلم أو نصف كافر.

قال: أجل.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: 208]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]؟

قلت: بلى، فما فيها من العلم؟

قال: هناك من يتمسك بالإسلام كاملا صافيا غير مشوب.. وهناك من يخلطه بالكثير من الجاهلية، أو ببعضها.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ

شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: 154]؟

قلت: بلى.. وقد سمعت معها قوله تعالى: ﴿ وَقَـرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: 33]

قال: فقد أخبر الله تعالى أن الشخص قد يكون مسـلما في بعض جـوانب حياتـه، ويكـون جاهليـا في غيرهـا.. ولـذلك يثاب فيما يكون فيه مسلما، ويعاقب فيما لا يكون فيه كذلك.

قلت: أنت تقصد بأن أهل المدينة لم يكونوا في حيـاتهم ملتزمين بالإسلام الصحيح، لـذلك سـلط عليهم من يسـومهم العذاب.

قال: بـل هم الـذين سـلطوا على أنفسـهم.. فلـولا تلـك الأفكار الجاهلية التي سيطرت عليهم ما طمع أعداؤهم فيه..

قلت: ولكنهم يحفظون الكتاب.. ويقدسونه.. ويقبلونـه.. ويقرؤونه.

قال: يقرؤون حروفه ويضيعون معانيه.. ألم تسمع قولـه تعـالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَـؤُلَاءِ تَقْتُلُـونَ أَنْفُسَـكُمْ وَتُخْرِجُـونَ فَرِيقًـا مِنْكُمْ مِنْ دِيَـارِهِمْ تَظَـاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِـالْإِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]

قلت: بلى.. وقد ذكر الله تعالى بعـدها العقوبـة المهينـة التي سلطت عليهم بسبب ذلك، فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَـلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُـرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85]

قـال: فـأنت تـرى أن اللـه تعـالى توعـدهم بـالعقوبتين: الدنيوية والأخروية.

قلت: ولكن ذلـك كـان وعيـدا ووصـفا لمـا وقـع لبـني إسرائيل.

قال: سنة الله تعالى في عبـاده واحـدة، واللـه لا يفـرق بين مسلم ولا يهـودي، ولا مسـيحي.. وإذا رمي هـؤلاء جميعـا

في البحر لم ينجو إلا العارف منهم بالسباحة.

قلت: ألهذا استطاع أعداء هذه المدينة أن يكسبوا القوة التي يتسلطون بها عليها؟

قال: أجل.. لأن المؤمنين الذين أقاموا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43]، هم أنفسهم الذين قصروا في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].. ولذلك جاءهم عدوهم من هذا الجانب.

قلت: ولكن لم لم تحمهم صلاتهم؟

قال: أرأيت لو كنت تسير في المطر، ثم غطيت رأسك، ولم تغط سائر بدنك.. فهل ترى رأسك يحمي سائر بدنك؟

قلت: كلا.. فالبلل سيصيب كل جزء غير مغطى..

قال: فهكذا البلاء.. قد تحتمي بعض حياتك منه، لكنها لن تحتمي جميعا.. فلكل جهة حصنها الخاص بها.

قلت: فما الغطاء الذي تراه مناسبا لأهل هذه المدينة حتى يخرجوا من ذلهم وفقرهم وحاجتهم، وكل أنواع البلاء المسلطة عليهم.

قال: أنا هنا في هذه الجبال أدعو إلى أربعة سنن من تحقق بها، رفع عنه كل بلاء، ونزلت عليه كل ألوان العافية.

قلت: هل تقصد سنن الله أم سنن رسول الله ﷺ؟

قال: لم يكن رسول الله ﷺ إلا مبلغا عن الله، ومعرفا بسننه.

قلت: ولكن الناس الآن يهتمون بسنة اللحية والقميص والعمامة وغيرها.

قال: ليس ذلك دوري هنا.. ولو كان ذلك دوري ما احتجت إلى السكن في هذه الجبال، واتخاذ هذه الحراسة.

قلت: فما السنن الأربعة التي تدعو إليها؟

قال: المجاهدة، والثبات، والشمول، والعموم.

قلت: لم أسمع بهذه السنن في حياتي مع كوني قرأت جميع الصحاح والسنن والمسانيد من جميع المدارس الإسلامية.

قال: كلها مملوءة بهذه السنن.. لكننا من قوم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض.

قلت: فهلا علمتني علومها، وكشفت لي عن أسرارها، وذكرت لي أدلتها؛ فإني لا أحب أن أتناول من ديني شيئا من غير أن يكون له سند متصل بمصدر الدين ومنبعه.

قال: لك ذلك.. لكن لن أفعل ذلك.. حتى تأكل من بعض طعامي؛ فلا يصح أن يقدم المضيف لضيفه كلاما..

أ ـ سنة المجاهدة:

بعد أن أكلت بعض الطعام الذي قدمه لي، والذي لم أذق مثله في المدينة التي كنت فيها، سألته عن سر هذا الطعام، وكيف لا يتوفر مثله في المدينة مع أن الأرض واحدة.

قال: الأرض واحدة..لكن هناك من يعرف كيف يتعامل معها، ويبذل جهده في استصلاحها؛ فلا تملك إلا أن تجود عليه بثمار جهده.. وهناك من يقصر في ذلك.. والأرض بالوحي الذي أوحي إليها، لا تخدم إلا من خدمها، ولا تهدي ثمارها إلا من بذل جهده في ذلك.

قلت: فالمجاهدة إذن هي الطريق الذي ننال به ثمار الأرض.

قال: وهي الطريق الذين ننال به ثمار السماء.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

قلت: أجل.. لقد دخلنا إلى الحديث عن السنة الأولى من سنن التغيير من دون أن نشعر.

قال: أجل.. لقد دخلنا إليها من دون أن تشعر.

قلت: أأنت كنت تشعر بأننا نتحدث عنها؟

قال: أجل.. وما أريتك هذه الأصناف من الطعام التي تجود بها هذه الأرض إلا لتعرف أن سبب فقر أهلها ليس [الله]؛ فالله أكرم الأكرمين، وهو الرزاق ذو القوة المتين.. وإنما سببه تلك الأيادي العاطلة عن العمل، والتي ترفع يديها إلى السماء تسترزق الله.. ومع أن الله وفر لها كل شيء إلا أنها صارت تتهمه بتقصيره في رزقها.

قلت: أجل.. وقد ذكرني حديثك هذا بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل:20)، فقد قرن الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين الجهاد والضرب في الأرض.

قال: بل إنه قدم الضرب في الأرض على الجهاد، فلا يمكن للمجاهد أن يجاهد لولا وجود من يضرب في الأرض.

قلت: أجل.. ولهذا كان رسول الله ﷺ يدعو إلى العمل، ويستعمل كل الوسائل في ذلك، وقد روي أن رجلا من الأنصار أتاه، فسأله فقال له رسول الله ﷺ: أما في بيتك شيء؟ فقال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء فقال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقال: من يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، فقال رسول الله ﷺ: (من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا؟)، فقال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني به، فلما أتاه به شد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال: (اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما)، ففعل وجاء فأصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير لك من أن تجيء المسألة

نكتة في وجهك يـوم القيامـة، إن المسـألة لا تحـل إلا لثلاث: لذي فقر مدقع، ولذي غرم مفظع، ولذي دم موجع)[1]

قال: بل إن رسول الله ﷺ كـان يعتـبر العمـل والكسـب نوعا من الجهاد في سـبيل اللـه، ومن أقوالـه في ذلـك قولـه لبعض أصحابه: (أبشر، فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهـد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله)[2]

ورأى بعض أصحابه شاباً قوياً يسرع إلى عملـه، فقـالوا: لـو كـان هـذا في سـبيل اللـه! فـرد رسـول اللـه ﷺ عليهم مصححا: (لا تقولوا هذا؛ فإنه إن كان خرج يسـعى على ولـده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسـعى على أبـوين شيخين كبيرين فهو سبيل اللـه، وإن كـان خـرج يسـعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كـان خـرج يسـعى ريـاء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)[3]

قلت: أجل.. وفوق ذلك كله نرى القـرآن الكـريم يقـرن العمل والتكسـب بالشـعائر التعبديـة ليـدل على فضـله؛ فقـد قرنه بالصلاة، التي هي عمـود الـدين، فقـال: ﴿فَـإِذَا قُضِـيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِـرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَاذْكُـرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:10)

قال: لقد كان الإمام الصادق يقرأ هذه الآية الكريمة، ثم يقول ـ مبينا سنة العمل بها ــ: (إنِّي لأركب في الحاجـة الـتي كفانيها الله، ما أركب فيها إلا لالتماس أن يراني اللـه أضـحى في طلب الحلال)[4]

1() أبو داود (1641) ، وابن ماجه (2198)

2() الحاكم (2/15، رقم 2167)

3() رواه الطبراني في الأوسط، 6835.

4() وسائل الشيعة، ج17، ص28..

قلت: وقد روي أن رجلا جاءه، فقال: إنِّي لا أحسن أن أعمل عملاً بيدي ولا أحسن أن أتَّجر، وأنا محارف محتاج، فلم يجد له الإمام عذرا، بل قال له: (اعْمَل فاحْمِل على رأسك واستغن عن الناس، فإنَّ رسول الله ﷺ قد حمل حجراً على عاتقه فوضعه في حائط له من حيطانه)[1]

قال: لقد كان كل الهداة وورثة النبوة على هذا المنهاج، وقد روي عن محمد بن المنكدر، وقد كان من العباد المشهورين أنه قال: ما كنت أرى أن علي بن الحسين يدع خلفا أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي الباقر، فأردت أن أعظه فوعظني فقال له أصحابه: بأي شئ وعظك؟ قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني، وكان رجلا بادنا ثقيلا وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا أما لأعظنه فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي السلام بنهر، وهو يتصاب عرقا، فقلت: (أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال ما كنت تصنع؟ فقال: (لوجاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنافي طاعة الله عزوجل، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس وإنما كنت أخاف أن لوجاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله)، فقلت: (صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني)[2]

قلت: أجل.. وقد روي عن بعضهم أنه قال:استقبلت الإمام الصادق في بعض طرق المدينة في يوم صايف شديد الحر فقلت: جعلت فداك حالك عندالله عزوجل وقرابتك من رسول الله ﷺ، وأنت تجهد لنفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: (يا عبدالأعلى خرجت في طلب الرزق لاستغني عن

1() الكافي الكليني (5/ 109)

2() الكافي الكليني (5/ 109)

مثلك)[1]

قال: هذه سنة جميع الأنبياء وورثتهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعا، ولذلك لن يلقى إلا جزاء المبتدعة.

قلت: أجل.. فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: (ما بعث الله نبيّا إِلا راعي غَنَمٍ)، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنتُ أرْعاها على قَرَارِيطَ لأهل مكة)[2]، وكان يقول: (ما أكل أحد طعاما خيرا من عمل يديه إن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[3]

قال: وهكذا يروى في الآثار: أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بالحنطة، وأمره أن يزرعها، فزرعها وسقاها وحصدها ودرسها وطحنها وخبزها.. وأن نوحا عليه السلام كان نجارا يأكل من كسبه.. وأن إدريس عليه السلام كان خياطا.. وأن إبراهيم عليه السلام كان بزارا.. وذكر الله داود عليه السلام فقال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ:10)، وقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الانبياء:80)، فكان يصنع الدرع ويبيع كل درع باثني عشر ألفا فكان يأكل من ذلك ويتصدق.. وكان سليمان عليه السلام يصنع المكاييل من الخوص فيأكل من ذلك [4].

قال: إن السبب الذي جعل قومك يقعدون العمل هو هذا الاستعمار الذي جثا على أرضهم، وراح يسرق خيراتهم، ويستسخرهم لذلك.

1() الكافي الكليني (5/ 110)

2() البخاري (2262)

3() البخارى: (2072)

4() انظر: المبسوط: 30/ 246.

قال: فهل تعرف سبب دخول الاستعمار لأرضنا؟

قلت: سألت عن ذلك أهل المدينة، فذكروا لي أنه قدر مقدور عليهم، اختبرهم الله به.

قال: ويلهم.. ألا يزالون يتهمون الله وعدالته ورحمته..

قلت: فما سبب دخول الاستعمار؟

قال: لقد كان قومي كسالى، لا يهتمون بالعمل، ولا ببذل أي جهد، وقد كانوا لذلك يستقدمون العمال من البلاد المختلفة، وكان أكثرهم من تلك البلدة التي استعمرتهم؛ فقد كان عمالها عيونا لها؛ وعندما أخبروهم بعجزهم وكسلهم، راحوا يغزونهم، وسرعان ما انتصروا عليهم، ثم صاروا يستسخرونهم في كل الأعمال التي كانوا يأنفون من العمل فيها.

قلت: فهذه تربية إلهية لهم.

قال: وقد كان في إمكانهم تفاديها.. كان في إمكانهم أن يسيروا كما سار الأنبياء وورثتهم.. لكنهم أبوا ذلك، فسلط الله عليهم عدوهم، ليذيقهم ألوان الهوان.

ب ـ سنة الثبات:

قلت: فقد صدق قومك إذن عندما ينسبون ما حصل لهم من استعباد وإذلال وقهر لله تعالى.

قال: الأمر كله لله من قبل ومن بعد.. ولكن الله يعامل كل جهة بما تستحقه.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 61]؟

قلت: بلى.. فقد ذكر الله تعالى أن ما حصل لبني إسرائيل من الهوان والذلة والاستعباد كان عقوبة إلهية

بسبب استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال: وهكذا قومي.. فقد راحوا يستبدلون شريعة الله بأهوائهم، وعدالة الله بجورهم، ورحمة الله بقسوتهم، مثلما استبدل بنو إسرائيل المن والسلوى بالثوم والبصل.. ومثلما استبدلوا إلههم القدوس بذلك العجل الذهبي.

قلت: لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم كثيرا سنة الاستبدال الإلهية.

قال: أجل.. فالله تعالى بعد أن ينزل هدايته على عباده يعطيهم الفرص، لاتباعها أو الإعراض عنها لاختبارهم بذلك، ألم تسمع بقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: 2، 3]؟

قلت: بلى.. وقد ذكر القرآن الكريم أن أكثر المبتلين يسقطون في بلائهم، فقد قال الله تعالى عمن أساءوا خلافة الصالحين: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: 59]

قال: أتدري ما سر ذلك؟

قلت: ما سره؟

قال: تخلفهم عن سنة الثبات..

قلت: أتلك التي أخبرتني أنها ركن من أركان سنن التغيير؟

قال: أجل.. فقد يبذل مريد التغيير كل جهده في الإصلاح.. ولكنه إن لم يستمر على ذلك، ولم يثبت عليه، لم يتحقق له التغيير، بل قد يسقط في نيران الغفلة.. ألم تسمع ما ذكر الله تعالى عن ذلك الذي آتاه العلم.. لكنه لم يستطع الثبات والصبر والدوام.

قلت: لعلك تقصد من يقال له [بلعلم بن باعوراء]، ذلك الذي جعله الله تعالى عبرة ونموذجا للعلماء المغيرين

المبدلين.

قال: أجل.. فقد ذكر الله تعالى أنه كان بمحل رفيـع من العلم، وأنه كان في إمكانه أن ينال الدرجات العليا في الـدنيا والآخرة.. لكنـه بسـبب هجـره لسـنة الـدوام تحـول إلى كلب لاهث.. قال تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف: 175، 176]

قلت: وهكذا كان حال السامري؛ فقد كـان من أصـحاب موسى عليه السلام، بل كان من المقـربين السـابقين.. لكنـه لم يثبت ولم يواصل المسيرة، فتحول من صحابي جليـل إلى شيطان رجيم.

قال: وهكذا أخبر الله تعالى أن طالوت لم يسـر بقومـه إلى عدوهم إلا بعد أن امتحن ثباتهم على ما عاهدوه عليه.

قلت: ولكنه امتحنهم بشيء شـديد على نفوسـهم، وهـو شرب الماء.. فما سر ذلك؟

قال: سر ذلك أن أكـبر مـا يهـدد الثبـات تسـلل الأهـواء، وأكبر ما يدعو إلى تسلل الأهواء الركـون إلى الـدنيا.. والـدنيا ليست سوى مطعم ومشرب.. فلذلك امتحنهم بالمشرب.

قلت: أجل.. ولهذا قال الثابتون: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَـا صَـبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [البقـرة: 250]، وقد عقب الله عليها بقوله: فَهَزَمُوهُمْ بِـإِذْنِ اللَّهِ [البقـرة: 251]

قال: وهكذا العدو؛ فهو لا يراهن على شيء كمـا يـراهن على الملـل، ولـذلك كـان عـدوه الأكـبر ثبـات المجاهـدين وصبرهم..

قلت: أجـل.. ولهـذا وصـف اللـه تعـالى المؤمـنين

الصادقين، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23]

قال: أجل.. فعلامة الصدق الثبات.. وعلامة الصدق عدم التبديل.

قلت: ألهذا حذر الله تعالى هذه الأمة من أن تخلف وعدها لرسولها ﷺ، وتسقط في مهاوي الملل الذي يجرها إلى التغيير والتبديل؟

قال: أجل.. فقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

قلت: لقد ذكر الله تعاى أن هذه السنة سارية إلى يوم القيامة، فكل من بدل وغير، بدل الله به وغير.. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 54]

قال: ولهذا كانت العبرة بالخاتمة.. وقد قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:132)

قلت: وقد ورد في الحديث ما يبين خطورة الخاتمة، فقد قال ﷺ: (والذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[1]

---

[1]() رواه البخاري 11/ 417، ومسلم رقم (2643)

قال: وقد أخبر ﷺ عن وقوع ذلك، وفي الزمن الأول، فقال: (بينا أنا قائم على الحوض، إذ زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة أخرى، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال لهم: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت ما شأنهم؟ قال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)[1]

ج ـ سنة الاعتدال:

قلت: وعيت هذا.. فما سنة الاعتدال، وما علاقتها بسنن التغيير؟

قال: ويمكنك أن تسأل أيضا عن علاقتها بسنة الثبات.

قلت: إن أجبتني عن علاقتها بسنة الثبات، فقد أجبتني عن الجميع.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ: (لكل عابد شرة، ولكل شرة فترة، فإما إلى سنة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة، فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك)[2]

قلت: بلى.. فما علاقته بالاعتدال والثبات؟

قال: لقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول الانحرافات التي يقع فيها العبّاد، ويأتيهم الشيطان من خلالها، تلك الشرة والتنطع والتطرف، والذي يجعلهم ينشئون دينا جديدا وقيما جديدة تتناسب مع تطرفهم، سماها رسول الله ﷺ بدعة.

قلت: لقد ذكرتني بما فعله الرهبان، فقد وصف الله

---

[1] () رواه البخاري (8/ 150)

[2] () رواه أحمد (11/ 9)

تعالى تطرفهم وتنطعهم فيها، فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: 27]

قال: ولذلك كان الاعتدال هو أول ركن من أركان الثبات.. فمن خرج عنه تعرض للكثير من الهزات التي قد تخرجه من الدين نفسه.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بقوله ﷺ: (إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله فإنّ المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى)[1]

قال: هل رأيت خطورة التنطع والتشدد، إنه يفسد كل شيء، حتى أنه يفسد تلك العلاقة بين العبد وربه، حيث يحول العبادة إلى شيء تبغضه النفس، بدل أن تقبل عليه بكل سرور.

قلت: لقد ذكرتني بما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى ذات يوم رجلا يصلّى، يكثر الرّكوع والسّجود، فقال ﷺ: (عليكم هديا قاصدا، عليكم هديا قاصدا، عليكم هديا قاصدا، فإنّه من يشادّ هذا الدّين يغلبه)[2]

قال: وقد ذكر لرسول الله ﷺ رجال يجتهدون في العبادة اجتهادا شديدا. فقال (تلك ضراوة الإسلام وشرّته ولكلّ ضراوة شرّة، ولكلّ شرّة فترة. فمن كانت فترته إلى اقتصاد وسنّة فلا أمّ ما هو، ومن كانت فترته إلى المعاصي فذلك الهالك)[3]، وقال: (هلك المتنطّعون)[4]

1() البيهقي في السنن الكبرى (3/ 18)

2() أحمد (5/ 350) واللفظ له، والحاكم في المستدرك (1/ 312) ، السنن الكبرى للبيهقي (3/ 18)

3() أحمد (2/ 165) رقم (6539)

4() مسلم (2670) ..

قلت: صدق رسول الله ﷺ، وقد رأينا ذلك في الواقع، فقلما يتنطع أحد أو يتشدد إلا وأصبح عرضة للأهواء، ولأصحاب الأهواء.

قال: ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الاعتدال في كل شيء، وقد قال في بعض حديثه: (إذا نعس أحدكم في الصّلاة فليرقد حتّى يذهب عنه النّوم، فإنّ أحدكم إذا صلّى وهو ناعس لعلّه يذهب يستغفر فيسبّ نفسه)[1]

وروي أنه وصفت له امرأة عابدة، تكثر من الصلاة، قال: (مه، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يملّ الله حتّى تملّوا، وكان أحبّ الدّين إليه ما داوم عليه صاحبه)[2]

قلت: فهل لهذا الركن من أركان سنن التغير علاقة بما حصل لقومك؟

قال: أجل.. لقد بدأ انحرافهم بالتنطع والوسوسة في بعض أمور الدين؛ فاستغرقوا فيها كل جهودهم وأوقاتهم، وقد جعلهم ذلك يضيعون غيرها، وقد تسلل الأعداء من ذلك الغير.

قلت: لم أفهم.

قال: سأضرب لك مثالا على ذلك.. لقد راح قومي يقرؤون فضائل أهل العلم، وبدل أن يفهموا العلم بمفهومه الشرعي الواسع الذي يشمل كل العلوم، راحوا يقصرونه على علوم الدين، بل على علوم الفروع، باعتباره ـ كما يتوهمون أفضل العلوم ـ وقد جعلهم ذلك يقصرون في علوم الكون والحياة، وفي غمرة ذلك التقصير، صاروا يحتاجون في كل شيء إلى أعدائهم، ليكفوهم شؤون الدنيا.. واستغل الأعداء الفرصة، واستعبدوهم، وأذلوهم.

1() مسلم (786)

2() البخاري- الفتح 1 (43) . ومسلم (785) ..

قلت: لقد ذكرتني بما قاله الغزالي يحكي عن عصره، وعن تقصير الأمة في العلوم الطبية في نفس الوقت الذي يتهافتون فيه على الفقه ونحوه، فقد قال: (كم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع؛ فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء؟)[1]

قال: وقد ورد في الحديث ما يشير إلى ذلك، فقد روي أن النّبيّ ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدّرداء، فزار سلمان أبا الدّرداء، فرأى أمّ الدّرداء متبذّلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدّرداء ليس له حاجة في الدّنيا. فجاء أبو الدّرداء فصنع له طعاما فقال له: كل. قال: فإنّي صائم. قال: ما أنا بآكل حتّى تأكل. قال: فأكل. فلمّا كان اللّيل ذهب أبو الدّرداء يقوم. قال: نم. فنام. ثمّ ذهب يقوم. فقال: نم. فلمّا كان من آخر اللّيل قال سلمان: قم الآن، فصلّيا. فقال له سلمان: إنّ لربّك عليك حقّا، ولنفسك عليك حقّا، ولأهلك عليك حقّا، فأعط كلّ ذي حقّ حقّه. فأتى النّبيّ ﷺ فذكر ذلك له فقال له النّبيّ ﷺ: (صدق سلمان)[2]

د ـ سنة العموم:

قلت: أجل.. فما تشدد أحد في ناحية من النواحي إلا قصر في غيرها.. ولذلك كان الاعتدال صمام أمان الثبات،

1() إحياء علوم الدين:1/ 21.

2() البخاري- الفتح 4 (1968)

كما أنه صمام أمان الدخول في السلم كافة.

قال: كما أنه صمام أمان العموم.

قلت: أتقصد الركن الرابع من أركان التغيير؟

قال: أجل.. فلا يمكن أن يؤثر التغيير ما لم ينتشر بين العوام والخواص، لتصبح الغلبة له.. وحينها يتحقق نصر الله الذي وعد به عباده حين قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: 1، 2]

قلت: فما علاقة الاعتدال بالعموم؟

قال: إن أخطر وسيلة يستعملها الشيطان لصرف عوام الناس عن الدين هي ذلك التشدد الذي يظهر به المتدينون، والذي يجعل العامة ينفرون منه، خوفا على حياتهم أن تنقلب رأسا على عقب.

قلت: ولكن ألا ترى الدين والتدين شيء شخصي؛ فكل شخص يحاسب وحده، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164]، وقد قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 105]

قال: وقد قال الله تعالى معها، وموضحا لها: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 78، 79]

قلت: فما فيها من العلم، وكيف ترى عدم تعارضها مع الآية التي ذكرتها؟

قال: القرآن الكريم ﴿ كِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 41، 42]، ولذلك لا تفهم متشابهه إلا على ضوء محكمه.

قلت: فما المحكم بين كلا الآيتين، وكيف يفهم المتشابه

على أساسها؟

قال: المحكم هو ما نصت عليه تلك الآية الكريمـة الـتي وردت نظائرها الكثـيرة في القـرآن الكـريم تـدعو إلى الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصـلاح المجتمـع، وفي جميـع المجالات.. وتعتبر القاعد عن ذلك ملعونا ومطرودا عن رحمة الله.

قلت: والمتشـابه الـوارد في الآيـة الـتي ذكرتهـا، والـتي تدعو كل شـخص لأن يقـوم بمـا عليـه، وأنـه لا يحاسـب على عمل غيره.

قـال: لقـد أجبت بسـؤالك عن ذلـك.. فالآيـة الكريمـة لا تدعو إلى القعود عن الدعوة.. وإنما تدعو إلى عـدم الاهتمـام بإنكار المنكرين أو إعراض المعرضين، لأن الهدايـة من اللـه، ودور الدعاة التبليغ عن الله.. كما قال تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ [القصص: 56]

قلت: صـدقت، وهي تـدعو كـذلك إلى مـا عـبر عنـه ﷺ عندما سئل ﷺ عن تلـك الآيـة الكريمـة، فقـال: (بـل ائتمـروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكـر، حتّى إذا رأيت شـحّا مطاعـا، وهوى متّبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه، فعليـك بخاصّة نفسك، ودع العوامّ، فإنّ من ورائكم أيّاما الصّبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ، ونصحنا؛ وهذا الحديث هو ما جعني ألجأ إلى هذه الجبال، وأفر من تلك البلدة الـتي امتلأت بالمعجبين برأيهم.

قلت: لكنك اجتذبت الكثير من شـباب المدينـة ورجالهـا، وكلهم صاروا يتحدثون عنك.

1() سنن الترمذي برقم (3058) وسنن أبي داود برقم (4341) وسنن ابن ماجة برقم (4014)

قال: لقد رحلت من بينهم عمدا، بعد أن أديت كل ما علي من النصيحة..

قلت: فكيف التحقوا بك.. أو كيف التحق الكثير منهم بك؟

قال: عندما علموا صدقي ونصيحتي لهم، راحوا يبحثون عني.. وقد كان ذلك فرصة لي.. لا لتوعيتهم فقط.. وإنما للدعوة لتنظيمهم، وتنظيم جهودهم لطرد الأعداء.

قلت: هل يمكن طرد الأعداء بالكلمات؟

قال: أجل.. عندما تتغلغل الكلمات في العقول والقلوب تتحول إلى معاول تهدم كل الانحرافات، وتسد كل أبواب الشيطان.

قال ذلك.. ثم طلب مني أن أسير معه في الجبل.. وبعد أن سرنا قليلا، فوجئت بشباب كثيرين يمارسون أنواعا من الرياضة العنيفة.. فسألته عنهم، فقال: هؤلاء هم الذين سيحررون بلادهم من ذاك المستعمر.. وهم الذين سيبنونها بعد ذلك.. وعندما تأتي بعد عشر سنين سترى الأمر مختلفا تماما.

قلت: أنت تريد مني إذن أن أرحل، وأعود بعد عشر سنين.

قال: أجل.. فأنت لا تزال تحتاج إلى البحث عن المزيد من أسرار الحياة.

قلت: ولكنك لم تذكر لي أسرار سنن التمكين.

قال: عندما تأتي بعد عشر سنوات.. ستجد من تلاميذي من يخبرك عنها.. فنحن الآن في طور التغيير، لا في طور التمكين، ولا يصح لي أن أتحدث عن مقام لم أبلغه.

2 ـ سنن التمكين:

بعد عشر سنين من ذلك الحديث عدت إلى تلك المدينة

من غير أن أخطط لذلك، أو أتذكر وعـده لي، أو وعـدي لـه.. فقد حصـل لي معـه نفس مـا حصـل لصـاحب يوسـف عليـه السلام عندما نسي وصيته له..

وقد كان من مقادير الله العجيبـة أن تـنزل بنـا الطـائرة إليهـا مثلمـا نزلنـا أول مـرة، مضـطرين مكـرهين، لكن اللـه تعـالى أراد أن يريـني قولـه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ ﴾ [الرعـد: 11]، فقـد رأيت هـذه الآيـة الكريمة أمامي عيانا في تلك المدينة.

في المـرة الأولى الـتي دخلت إليهـا فيهـا كـانت أشـبه بمدن الأشباح، وكانت أرضها قاحلة جدباء، وكانت وجوه أهلها تمتلئ بالذلة.. وكانت طرقها ممتلئة بالوحل..

لكـني في المـرة الثانيـة رأيتهـا بصـورة مختلفـة تمامـا، كانت ممتلئة بالحياة والجمال، وكانت أرضها مزهوة بأصـناف الأزهار والثمار.. وكانت طرقها معبدة، وبناؤها منظما.. وكأنك تسير في مدينة من المدن العصرية.

والأجمل من ذلك كله أهلها الذين كـان تبـدو عليهم كـل مظاهر العزة والاحترام، وقد كانوا ممتلئين بالحياة عكس مـا رأيت في المرة السابقة، فقد كانوا ممتلئين بالموت، بل بكل أصناف الموت.

والأجمـل من ذلـك كلـه هـو أن البلـد كـانت مسـتقلة استقلالا تاما؛ فلم يكن فيها موطئ قدم واحد لعدوهم..

وقـد عجبت إذ وجـدت شخصـا في المطـار ينتظـرني، وبمجرد أن دخلت قاعة المطار الجميلة جاء إلي، وهـو يقـول لي: مرحبا بك.. لقد كنا في انتظارك.

قلت: كيف كنتم في انتظـاري، وأنـا لم أكن أقصـد هـذه المدينة، بل لم ننزل فيها إلا مضطرين.

قال: لقد أخبرنا حاكم هذه المدينة أنك ستفد اليوم، وقد طلب منا أن نسـتقبلك أحسـن اسـتقبال، وأن نسـير بـك في المدينة، لتراها، ثم ننقلك بعدها إليه.. ولا تقلق بشأن رحلتك؛

فلـدينا بحمـد اللـه من المهندسـين الأكفـاء من يمكنهم أن يصلحوا الطائرة، في أقصر مدة.. وستكمل رحلتك بعدها.

لم أجد إلا أن أسير معه، وأنـا في غايـة العجب من هـذا الذي يحصل معي، وقد تذكرت حين ذكر لي ذلك كـل شـيء، وندمت على ذلك التقصير الذي بدر مـني حـول ذلـك الرجـل الصالح، والذي نسيته طول تلك المـدة، مـع أني كنت أعـاتب كثيرا صاحب يوسف عليه السلام، ونسيانه لنبي الله.

في الطريق،ونحن نشاهد جمال تلك المدينة، قلت للذي استقبلني: لقد جئت إلى هذه المدينة قبل عشر سنين، لكنهـا كانت مختلفة تماما.. وكأنها كـانت ميتـة، لكنهـا الآن أصـبحت حية، بل ممتلئة بالحياة؛ فما السر في ذلك؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعـراف: 96]؟

قلت: بلى.. ولكني عندما دخلت إليها سابقا، كـان هنـاك الأتقياء والمؤمنون.

قال: وكان هناك المستعبدون الذين كانوا يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض.. وقد كان أولئك سبب بلائها.

قلت: فهل تخلصتم منهم؟

قال: بـل تخلصـنا من جهلهم وافـترائهم على اللـه، وقـد تعاملنا معهم بما أوصانا بـه رسـول اللـه ﷺ حين قـال: (مثـل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قـوم اسـتهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاهـا وبعضـهم أسـفلها فكـان الـذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يـتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعـا وإن أخـذوا على أيـديهم نجـوا ونجـوا جميعا)[1]

1() البخاري 2/ 882، برقم: 2361..

قلت: فهل قاتلتموهم؟

قال: بل جاهدناهم.

قلت: فقد تسببتم في قتلهم إذن.

قال: لقد قتلنا جهلهم وضلالهم واتباعهم لأهوائهم.

قلت: بم؟

قال: بالقرآن الكريم.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]؟

قلت: بلى.. فكيف تم ذلك؟

قال: لقد كنا حينها شبابا.. وكنا نسير كل حين إلى ولي الله في الجبل، وكان يعلمنا، ويرشدنا.. فإذا عدنا إلى مدينتنا نشرنا بينها تلك التعاليم، وقد أذن الله أن يرفع ذلك الجهل، ويرفع معه كل أنواع البلاء التي كانت مرتبطة به.

قلت: لكن كان الاستعمار جاثياعلى أرضكم.

قال: لقد كان الاستعمار عقوبة لنا.. ولم يكن ليسكن بعد أن رأى عزتنا وكرامتنا وشجاعتنا ووعينا.

قلت: هل حاربتموه؟

قال: وسرعان ما انتصرنا عليه، لأنه لم يكن يملك من سلاح سوى ضعفنا وعجزنا وتهاوننا.. فعندما رأى بعض ما أبدينا له من عزتنا، راح يفر من أرضنا، فما كان للمتكبرين أن يسكنوا مع المعتزين.

قلت: فكيف تولى هذا الحاكم أمركم، وما سر تمكين الله له؟

قال: أنسيت ما وعدك به حاكمنا من سنن التمكين؟

قلت: أجل.. لقد أخبرني أن بعض تلاميذه سيذكرها لي.

قال: فأنا ذلك التلميذ.

قلت: فما هي سنن التمكين التي استطاع بها ذلك الرجل أن يخرج من كهوف الذلة إلى قصور التمكين.

قال: بأربعة سنن: الإخلاص، والتضحية، والورع، والزهد.

أ ـ سنة التضحية:

قلت: فما سنة التضحية، وما علاقتها بسنن التمكين؟

قال: ألم يخبر الله تعالى عن تمكين الله لإبراهيم عليه السلام، وجعله إماما؟

قلت: بلى.. وقد قال في ذلك: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]

قال: فقد اعتبر الله تعالى البلاء الذي مر به، ونجاحه فيه السر في تمكين الله له وجعله إماما.

قلت: أجل.. وما علاقة ذلك بالتضحية؟

قال: لأن كل أنواع البلاء التي اختبر بها إبراهيم عليه السلام مرتبطة بالتضحية.. ألم يقدم نفسه للنار فداء لكلمته، ولم يتزحزح، ولم يبدل، ولم يغير؟

قلت: بلى.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: 68 - 70]

قال: ألم يكلفه الله بأن يترك أهله في تلك الصحراء القاحلة، ويسلم أمره وأمرهم لله تعالى من دون أن يجادل في ذلك، ففعل، ولم يجادل، ولم يعترض، بل سلم تسليما؟

قلت: بلى.. وقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]

قال: ألم يكلفه الله بأن يذبح ابنه بعد أن بلـغ من العمـر عتيا؟

قلت: بلى.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقـال: ﴿فَبَشَّـرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّـعْيَ قَـالَ يَـابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَـرَى قَـالَ يَـاأَبَتِ افْعَـلْ مَـا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْـلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (104) قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ (105) إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) ﴾ [الصافات: 101 - 108]

قـال: هـذه الآيـات الكريمـة تريـك سـر كـون التضـحية والاستعداد لبذلها في سبيل الحق ركنا من أركان التمكين.

قلت:كيف ذلك؟

قال: لأن الممكن له في الأرض تمكينـا إلهيـا يحتـاج لأن يكـون مسـلما للحـق تسـليما مطلقـا؛ فلا يتحـرك إلا بـه، ولا يتحرك إلا من أجله.. ولذلك يستعد للتضـحية بكـل شـيء في سبيله.

قلت: لقد ذكرتـني بقولـه تعـالى: ﴿قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]

قال: أجل.. فهـذه الآيـة الكريمـة تـبين سـرا من أسـرار التضـحية، وهـو التضـحية بالأقـارب والأمـوال والمسـاكن في سبيل الحق.. ذلك أنه لا يمكن لأحد تزاحمه أهواؤه محبة ربـه أن يقدم على أي عمل، أو يقدّم أي تضحية.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بتلـك الشـكوى الـتي شـكا بها رسول الله ﷺ قومه عنـدما قـال: (اللهم إني أشـكو إليـك ضعف قوتي، وقلـة حيلـتي، وهـواني على النـاس، أنت أرحم

الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمـري؟ إن لم يكن بـك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنـور وجهك الـذي أشـرقت لـه الظلمـات وصـلح عليـه أمـر الـدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحـل علي سـخطك، لكن لك العتبى حـتى ترضـى، ولا حـول ولا قـوة إلا بـك)[1]، فقـد اكتفى رســول اللــه ﷺ بــاللجوء إلى ربــه، والتضــرع إليــه، والخوف من غضبه، مع كل تلك التضحيات التي قدمها.

قــال: هكــذا هم رســل اللــه وورثتهم عليهم الصــلاة والسلام.. فكلهم اختبروا بكل ألوان البلاء، ولم يمكنوا إلا بعد مرورهم عليها، ونجاحهم فيها.

قلت: لقد ذكرتني بقولـه ﷺ جوابـا لمن سـأله عن أشـد الناس بلاء: (الأنبيـاء، ثم الصـالحون، ثم الأمثـل، فالأمثـل من النـاس، يبتلى الرجـل على حسـب دينـه، فـإن كـان في دينـه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقـة خفـف عنـه، ومـا يزال البلاء بالعبد حـتى يمشـي على ظهـر الأرض ليس عليـه خطيئة)[2]

قال: أجل.. ولهذا اختبر الله تعالى يوسف عليه السـلام قبـل التمكين لـه في الأرض بالـدخول إلى السـجن، ومعاينـة آلامه.. واختبر قبل ذلك بإيذاء إخوته له واستعباده.

قلت: أجل.. وقد أشـار اللـه تعـالى إلى ذلـك عنـد قـول يوسـف عليـه السـلام بعـد مجيء إخوتـه، وسـجودهم لـه: ﴿ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَـايَ مِنْ قَبْـلُ قَـدْ جَعَلَهَـا رَبِّي حَقًّا وَقَـدْ أَحْسَـنَ بِي إِذْ أَخْـرَجَنِي مِنَ السِّـجْنِ وَجَـاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَـدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّـيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْـوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيـفٌ لِمَـا يَشَــاءُ إِنَّهُ هُــوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾ [يوســف: 100]، ثم

1() سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، (2/ 439)

2() رواه عبــد بن حميــد (146) ، والــدارمي (2783) عن أبي نعيم، والحــاكم 1/41.

عقب على هذه البلايا التي مرت به بقوله عن تمكين الله له: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]

قال: أجل.. فلولا نجاح يوسف عليه السلام في بلائه مع امرأة العزيز، وفي السجن، ما تحول إلى عزيز مصر.

قلت: ولكن من الناس من يبتلى بكل أنواع البلاء، ولكن لا يحصل له التمكين.

قال: هل تقصد الإمام الحسين، ذلك الذي مر به وبأهله أعظم بلاء في التاريخ؟

قلت: أجل.. وقد كان راضيا به أتم الرضى حتى أنه عندما قتل أمامه ابنه الرّضيع العطشان لم يجد سوى أن يمد يديه إلى السّماء ويقول: (أرضيت يا رب، خذ حتّى ترضى)

قال: وهل هناك أحد مكن له أكثر من الإمام الحسين، ألم يخبر رسول الله ﷺ أنه سيد شباب أهل الجنة؟

قلت: بلى.. ولكن ذلك تمكين مرتبط بالجنة، لا بالدنيا.

قال: بل هو مرتبط بكليهما، فما كان للإمام الحسين أن يكون سيد شباب أهل الجنة لو لم يكن سيد شباب أهل الدنيا.

قلت: لم أفهم.. كيف ذلك.

قال: لم يكن قائد ثورتنا سوى نموذج لتربية الإمام الحسين، كان يحدثنا عنه كثيرا، وكان يطلق علينا لقب الحسينين.. وكان يعتبر ثورتنا على المستعمر امتدادا للثورة الحسينية.. لذلك كنا نشعر جميعا أن الحسين هو قائدنا.. ومن العجائب أن اسم حاكمنا وقائدنا يطابق اسم الحسين.

قلت: عجبا.. لم أكن أعرف أن هذا اسمه.

قال: هذا اسمه.. وهو مثال على التمكين الإلهي للعبد

في كل الأجيال.. مثلما مكن لرسول الله ﷺ فصارت المـآذن في جميع العالم تصدح باسـمه.. ومثلمـا مكن لإبـراهيم عليـه السلام حين صار نداؤه بالحج مسموعا لكل العالم.

ب ـ سنة الإخلاص:

قلت: عرفت سنة التضحية.. فما سنة الإخلاص؟

قال: لا تكفي التضحية وحدها ليمكّن الله لعبده.

قلت: لم؟

قال: لأن المضحي قد يرى نفسه، ويعجب بهـا، ويتصـور أنه على شيء، ولذلك عندما يمكّن له يتعامل مع الخلق على أنه رب لا عبد.

قلت: فما المخرج من هذا؟

قال: المخرج منه بالتجرد والإخلاص.. فالتجرد هـو الـذي يجرد العبد من أنانيته، والإخلاص هو الذي يخلصه من نفسه.. حتى يصبح ربانيا يمثل الله، ولا يمثل نفسه، ويمثـل الحقيقـة، ولا يمثل الهوى.

قلت: ألهذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُـوَّةَ ثُمَّ يَقُـولَ لِلنَّاسِ كُونُـوا عِبَـادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَـا كُنْتُمْ تُعَلِّمُـونَ الْكِتَـابَ وَبِمَـا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]؟

قال: أجل.. فالعبد الرباني هو العبد الذي تخلص من كل أنانيته وأهوائه وتجرد للحق تجردا مطلقا؛ فلذلك استحق هـذا الاسم، واستحق هذه النسبة الرفيعة.

قلت: ألهذا اعتبر الله الحاكم الصالح حاكما باسم الله؟

قـال: أجـل.. لأن الحكم الصـالح لا تكفي فيـه القـوانين، وإنما يحتاج إلى المنفذ لها.. فالمنفـذ إن كـان ينفـذها بأنانيتـه وشخصه بعيدا عن ربه، كان يحكم فيهم بنفسه، لكنه إن ترك نفسه، وخلص لربه صار حكمه بالله ولله وعلى شريعة الله.

قلت: وعيت هذا.. ولهذا فإن العلمانية ـ حسب هذا ـ ليست فقط في ترك التحاكم لشريعة الله، وإنما في ترك التحاكم لأوليائه الذين يطبقون شريعته.

قال: أجل.. فشريعة الله إن طبقها الفسقة تحولت إلى ذريعة لكل أنواع الفجور، وإن طبقها الأنانيون تحولت إلى مجال لأنانيتهم.. ولهذا لم تنفع بني إسرائيل كتبهم، ولا أحبارهم، ولا رهبانهم، لأنهم لم يطبقوا الشريعة باسم الله، وإنما طبقوها بأسمائهم، كما قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]

قلت: لقد ذكرتني بما ورد من الحديث في تفسيرها، فهو ينطبق تماما على ما ذكرت، فقد روي عن عَدِيّ بن حاتم قال: أتيتُ النبي ﷺ وفي عُنُقِي صَلِيبٌ من ذَهَبٍ، فقال: (ما هذا يا عدي اطرح عنك هذا الوثن)، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: 31]، ثم قال: (أما إنهم لم يكونوا يَعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرَّموه)[1]

قال: أجل.. فالحديث يبين سر فقدان الإخلاص.. ذلك أن أول أدوائه فقد التوجه التام لله.. والتجرد التام لمرضاته.. ولذلك يصبح ذلك المتجرد من الإخلاص عرضة لكل أصناف الهوى، فيحكم أو يفتي بحسب ما يمليه عليه هواه، لا بحسب ما يملي عليه ربه.

قلت: أجل.. بالإضافة إلى أنه لبعده عن التوجه لربه تصبح لفهومه مصادر أخرى.. فقد ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى هو مصدر الفهم الصحيح للشريعة، ولكل شيء.. كما قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: 79]

قال: بل أعطى قانون ذلك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ

[1] الترمذي (3095)

وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [البقرة: 282]

قلت: ألهذا اعتبر عدم الاحتكام لرسول الله ﷺ ضلالا وانحرافا، كما قال تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا [الأحزاب: 36]

قال: بلى.. فقد فني رسول الله ﷺ عن نفسه، فصارت أحكامه أحكام الله، وأقواله أقوال الله، ورضاه رضا الله، وسخطه سخط الله.

قلت: صدقت.. وقد قال الله تعالى مشيرا إلى ذلك: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا [النور: 63]، وقال: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [النجم: 3، 4]، وقد ورد في الحديث عندما سئل رسول الله ﷺ، فقيل له: (يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا)، فقال: (اكتب فوالذي بعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق) وأشار إلى لسانه [1].

قلت: فكيف طبق قائدكم وحاكمكم هذا الركن من أركان التمكين؟

قال: لقد كنا نراه مثالا للصدق والإخلاص والبعد عن كل صنوف الأنانية، حتى أنه لم يقبل أن يحكمنا إلا بعد أن فرضنا عليه ذلك فرضا.. وقد كان فوق ذلك متجردا لا نعرف شيئا من تفاصيل حياته، لأنه لم يكن يحدثنا إلا بما يفيدنا.

قلت: عجبا.. ألم يولد بينكم؟

قال: لا.. لقد وفد علينا مثلما تفد أشعة الشمس على الظلمات، فتملؤها بالأنوار.

قلت: ولكن كيف تولون أمركم من ليس منكم؟

---

[1] أبو داود (3646)، والدارمي 1/125.

قال: نحن نشعر أنه مخلصنا، وأنه أقرب إلينا منا، وأنه اللسان المعبر عنا.. وأنه فوق ذلك كله هبة الله لنا.. ولولاه لظللنا في ذلنا وفقرنا وعبوديتنا.

قلت: ولكن لم لم تسألوه عن شأنه؟

قال: كلما فعلنا ذلك قال لنا: وما حاجتكم لذلك.. اكتفوا بأنبيائكم وأوليائكم، وما أنا إلا خادم ضعيف من خدمهم، وغلام حقير من غلمانهم، وتلميذ بسيط من تلاميذهم.

ج ـ سنة الورع:

قلت: عرفت سنة الإخلاص.. فما سنة الورع؟

قال: لا يكفي الإخلاص وحده ليمكّن الله لعبده.

قلت: لم؟

قال: لأن العبد قد يخلص لله، ويكون صادقا في إخلاصه، صادقا في تضحيته، لكنه يعبد الله بهواه، وبالدين الذي شرعه لنفسه، وقد يقطع لذلك ما أمر الله به أن يوصل، أو يصل ما أمر الله به أن يقطع.

قلت: صدقت، فقد رأيت نفرا كثيرا من قومي لا يشك أحد في إخلاصهم، لكنهم جعلوا دينهم محاربة إخوانهم من المؤمنين الذين يخالفونهم في بعض الأصول، أو الفروع، بينما أراهم مع أعداء الله الحقيقيين من الظالمين والمستكبرين خاضعين أذلاء مستكينين.

قال: أولئك شر الناس، وإن بدوا للناس أنهم خيرهم، ذلك أن الشيطان استحوذ عليهم، واستثمر إخلاصهم وصدقهم، ليضرب دينهم.

قلت: ولكن كيف لم يخلصهم الإخلاص؟.. وكيف لم ينجهم الصدق؟

قال: الإخلاص والصدق يحتاجان إلى الاتباع.. وأولئك قد عبث الشيطان بهذا الجانب منهم، فلذلك بدل أن يتبعوا أهل

الهدى اتبعوا أهل الهوى.

قلت: لقد ذكرتني بسورة الفاتحة؛ فقد اعتبر الله تعالى فيها السراط المستقيم هو اتباع أهله من الذين أنعم الله عليهم.

قال: وأولئك قد تركوا من أمروا باتباعهم، ورفضوا أن يركبوا سفينتهم، ثم لجأو بعدها لسفن شتى، كل سفينة أخذت بهم طريقا من الطرق.

قلت: لقد ذكرتني بحديث لرسول الله ﷺ يقول فيه: (إن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما، على كنفي الصراط، زوران لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوقه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]، والأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ.. وهذا مبدأ الورع.. فلا ورع من دون اتباع.. ولا اتباع من غير معرفة من أمرنا باتباعهم.

قلت: لقد كنت أحسب الورع ذلك الذي ذكر فيه رسول الله ﷺ (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: (يا رب يا رب) ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك)[2]

قال: لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالاتباع الصحيح لأئمة الهدى، وإلا وقع ذلك الورع في الحرام شعر أو لم يشعر.

قلت: صدقت.. فقد رأيت نفرا من قومي يتورعون عن أبسط الأمور من الحلال، ويحرمون نفوسهم منها، خوفا من

---

[1] أحمد (4/183)، والترمذي (2859)، والنسائي في الكبرى (تحفة الأشراف (9/11714)

[2] مسلم (1015)

أن يأكلوا حراما، لكنهم يتساهلون في الدماء، وفي الأعراض، فيكفرون طوائف الأمة، ويستبيحون دماءها.. وقد اتبعوا في ذلك سلفا كثيرا لهم تصوروا أنهم أئمة الدين، وأعلام الهدى.

قال: ولذلك لم يكن الشيطان حريصا على شيء مثل حرصه على التنفير من أئمة الهدى، ليعبد الناس أئمة الهوى..

قلت: أجل.. وقد حصل ذلك في بني إسرائيل، كما قال تعالى يخبر عنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31)

قال: وهكذا فعل مع كل الأديان.. بما فيها الإسلام.. كما قال ﷺ: (لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا شبرا، وذراعا ذراعا حتّى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم)[1]

قلت: ولكن أولئك يتورعون عن أشياء كثيرة.. في المأكل والمشرب والملبس، حتى أنهم يحرمون أنفسهم من أن يلبسوا كسائر الناس، أو يعيشوا كسائر الناس.. بل إني أرى بعضهم، وفي البرد الشديد، والثلوج تتساقط، وهو يكشف عن ساقه خشية أن يقع في الحرام، متأولا قوله ﷺ: (إزرة المسلم إلى نصف الساق، ولا حرج ـ أو لا جناح ـ فيما بينه وبين الكعبين، فما كان أسفل من ذلك ففي النار، من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه)[2]، مع أن كل الأدلة لا تحرم ذلك إلا بسبب الكبر والخيلاء والبطر.. لكنهم لا يرضون بذلك، وإنما يطبقون الحديثا بحروفه خشية الوقوع في الحرام.

قال: ذلك هو الورع البارد، ذلك هو الذي أشار رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: (سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء

1() البخاري- الفتح (7320)

2() رواه أبو داود، 4093.

الأسـنان، سـفهاء الأحلام، يقولـون من قـول خـير البريـة، يقـرؤون القـرآن، لا يجـاوز إيمـانهم حنـاجرهم، يمرقـون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[1]

قلت: أجل.. وقد ورد في حديث آخر قال ﷺ يصـف فيـه نفرا من هؤلاء: (إن من ضئضئ هذا قوماً يقـرأون القـرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويـدعون أهـل الأوثـان، يمرقـون من الإسـلام كمـا يمـرق السـهم من الرميـة لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)[2]

قال: وكـل ذلـك بسـبب اتبـاع أهـل الهـوى، وتـرك أهـل الهدى.. ولا يمكن لمن يسير خلف الأعمى أن يصل إلى منبـع النور.

قلت: فكيـف طبـق إمـامكم وقائـدكم الحسـين هـذه السنة؟

قـال: لقـد كـان مثـار إعجابنـا في شخصـه ذلـك الـورع الشديد، والذي ملأ قلوبنا بحبه.. لقد كنا نـذهب إليـه بأصـناف الطعام، وهو في الجبل، فلا يأكل شيئا منه، وإنما يوزعه علينا أو على غيرنا، فقد كان يستن بسنة الأنبياء عليهم السلام، فلا يأكل إلا من عمل يده..

وعندما فتح الله علينـا بـه، ونصـرنا على أعـدائنا، طلبنـا منه أن يسكن قصـورهم، فقـال لنـا: أتريـدون أن يـنزل علي انتقـام اللـه بالسـكن في مسـاكن أعـداء اللـه.. ألم تسـمعوا قوله تعالى يعاتب ويوبخ المسرفين على أنفسهم: ﴿وَسَـكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْـفَ فَعَلْنَـا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (ابراهيم:45)؟

حينها قام بعضنا، يؤول له الآية.. لكنه رفض تأويلهـا.. ثم راح يسكن مسكنا بسـيطا جـدا، أمـام مسـجد من المسـاجد،

---

[1] رواه البخاري 9/ 86.

[2] البخاري (7432)

كان يعظنا فيه ويعلمنا.

قلت: وما فعلتم في تلك القصور.. هل أمر بهدمها؟

قال: هو أعقل من أن يفعل ذلك؟

قلت: فما فعل بها؟

قال: لقد حولها إلى مكتبات ومراكز أبحاث، وهي بحمد الله أصبحت مأوى لطلبة العلم الذين لم يكونوا يحلمون برؤيتها؛ فأصبحوا المديرين لها، والمتصرفين فيها.

د. سنة الزهد:

قلت: وراتبه.. وكيف يعيش؟

قال: لقد كان يذكر لنا كثيرا زهد الإمام علي، ويقول لنا: لا يحسن بالحسين إلا أن يتبع أباه.. وكان يذكر لنا كثيرا رسالته الرقيقة التي كتبها إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، بعد أن بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها..

قلت: هل يمكنك أن تورد لي بعض ما كتب فيها؟

قال: أجل.. فقد كان قائدنا يرددها بيننا كثيرا حتى حفظناها.. لقد كتب يقول له: (أمّا بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلا من فتية أهل البصرة، دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوّ، وغنيّهم مدعوّ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه)[1]

ثم راح يصف له حاله، فقال: (ألا وإنّ لكلّ مأموم إماما يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد.. فو

---

[1] نهج البلاغة: الكتاب رقم (45)

اللّه ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادّخـرت من غنائمهـا وفـرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت من أرضـها شـبرا، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيـني أوهى وأوهن من عفصة مقرة)

ثم ذكر له أن زهده في الدنيا ليس ناشئا من جهلـه بهـا، وإنمـا هـو ناشـئ من زهـده فيهـا، ورغبتـه فيمـا عنـد اللـه.. وليسـتوي هـو وأبسـط مستضـعف من رعيتـه، فقـال: (و لـو شئت لاهتديت الطّريق إلى مصفّى هـذا العسـل، ولبـاب هـذا القمح، ونسـائج هـذا القـزّ، ولكن هيهـات أن يغلبـني هـواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمـع لـه في القـرص، ولا عهـد لـه بالشّـبع!! أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى)

وكتب يقول له: (أأقنع من نفسي بـأن يقـال: هـذا أمـير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدّهر؟ أو أكون أسوة لهم في جشـوبة العيش، فمـا خلقت ليشـغلني أكـل الطّيّبـات، كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسـلة شـغلها تقمّمهـا، تكترش من أعلافهـا وتلهـو عمّـا يـراد بهـا، أو أتـرك سـدى أو أهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضّلالة، أو أعتسف طريق المتاهة)

قلت: مـا أعظم هـذه الرسـالة، ومـا أعظم آثارهـا على النفس.

قال: لقد كان إمامنا يرددها بيننا كثيرا، ليعلمنا الزهد في الدينا، والرغبة فيما عند الله، فما كـان اللـه ليمكن الراغـبين في الدنيا المستغرقين في هواها.

قلت: لم؟

قال: لأن حب الدنيا رأس كـل خطيئـة، ومن أحب الـدنيا رغب عن الآخرة.

قلت: ولكن الدنيا لابد منها.

قال: لقد كان إمامنا وقائـدنا يقـول لنـا كـل حين: ضـعوا الدنيا في أيديكم، ولا تضعوها في قلـوبكم، فهي في قلـوبكم

داء، وفي أيديكم دواء.

قلت: عجبا.. كيف يكون الشيء داء ودواء في نفس الوقت؟

قال: ألا ترى بعض المراهم التي يكتب عليها التحذير من ابتلاعها، وبيان خطر ذلك..

قلت: أجل.. فكل المراهم تستعمل استعمالا خارجيا، لخطورتها على الأجهزة الداخلية.

قال: والدنيا من تلك المراهم.. فلذلك أمرنا بتطويعها لنا، ولم نؤمر بعبادتها والتتيم فيها.

قلت: ما تقصد بتطويعها؟

قال: بعمارتها، وإصلاحها، لتكون مأوى يصلح للإقامة المؤقتة.. فلا يمكن لأحد أن يقطع رحلته إلى الله من دون أن يكون له أدنى عيش يهنأ به.

قلت: صدقت.. ولكني سمعت بعض قومنا يزهد في الزهد، ويذكر أنه من الدنس الذي شوهت به شريعة الله، وأن رسول الله ﷺ لم يكن زاهدا.. وأن كل أحاديث الزهد جاءتنا من رهبان الديانات المنحرفة.

قال: ويلهم.. ألم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:131)، وقوله: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى:20]؟

قلت: بلى.. ولكنهم راحوا يؤولونها بصنوف التأويلات.. وأنت تعلم أن القرآن الكريم حمال وجوه.

قال: ويلهم.. ألم يرجعوا إلى رسول الله ﷺ وورثته في فهمها.. ألم يعلموا بأنه ﷺ كان أعظم داعية للزهد.. بل كان أعظم الزاهدين.. ففي الحديث أن رجلا أتى النّبيّ ﷺ، فقال: يا رسول اللّه، دلّني على عمل، إذا أنا عملته، أحبّني اللّه،

وأحبّني النّاس، فقال رسول اللّه ﷺ: (ازهـد في الـدّنيا يحبّـك اللّه، وازهد فيما في أيدي النّاس، يحبّوك)[1]

وكان يردد مرتجزا[2]:

اللّهمّ لا عيش إلّا عيش الآخره   فاغفر للأنصار والمهاجره

وكان يعظ أصحابه وأمته كل حين بشأنه، ويقول مفسرا قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1)﴾ (التكـاثر): (يقـول ابن آدم: مـالي، مـالي.. وهـل لـك يـا بن آدم من مالـك إلّا مـا أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت)[3]

***

ما وصل تلميذ الحسين إلى هذا الموضع من حديثه حتى وصـلنا إلى بيت بسـيط في حي نظيـف ممتلئ بالجمـال والبسـاطة.. وهنـاك دق البـاب.. فخـرج لنـا الحسـين نفسـه، يرحب بنا، وقد سمعت منـه من أسـرار التمكين الإلهي مـا لا يمكنني أن أبثه لك أو لغيرك.

قلت: فهل هناك تمكين أكبر من التمكين الذي يتـاح في الدنيا؟

قال: أعظم تمكين يهبـه اللـه لعبـاده، تلـك الأنـوار الـتي ينزلها الله في قلوبهم، ليروا الحقائق رأي العين..

قلت: فكيف أصل إلى تلك الأنوار.. أو كيف يمكنهـا اللـه من قلبي؟

قال: لا يمكن لأحد أن يصـل إلى التمكين، مـا لم يتمكن

1() رواه ابن ماجة، 4102.

2() رواه البخاري، 2801 ، ومسلم، 1804.

3() رواه مسلم، 2959.

من التغيـــير.. فـــأنوار اللـــه عزيـــزة، وهي لا تـــنزل القلـــوب المدنسة بأدنى دنس.

قلت: أجل.. صدقت.. فسنن التمكين لا يمكن أن تتحقق من دون سنن التغيير.

قلت: عــرفت أســرار العــداوة والصــداقة والســنن.. فحدثني عن أسرار الأقدار، وعلاقتها بأسرار الحياة.

قال: بعد أن عرفت أسرار السنن الإلهيـة، سـرت باحثـا عن السر الرابع من أسرار الحياة.. سر الأقدار.. ذلـك السـر الذي أشار إليه قولـه تعـالى: ﴿إِنَّا كُـلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ﴾ (القمر:49)، وقد عرفتـه بفضـل اللـه في مدينـة من المـدن، دخلت إليهــا بعــد خــروجي من مدينــة الســنن، وقــد عجبت للصراع الدائر بين أهلها حول الجبر والاختيـار، فقـد كـان أول سؤال سألني عنه من استضافني فيها قوله لي: ما تقول في الإنسان، وهل هو مجبر، أم مخير؟

ومع كونه عاميا بسـيطا إلا أنــه قالهـا لي بكـل حماسـة، وكأن الإجابة عنها هي التي تحدد موقفه مني، وبمــا أني كنت في ذلــك الحين في غايــة الإرهــاق؛ فقــد رحت أحتــال عليــه للفرار من الإجابـة، لأني لم أكن أعلم أي فريـق يشـجع، هـل هو الفريق الذي يقول بالتسيير والجبر، أم الفريق الذي يقول بالحرية والاختيار.

لكني في الصباح البـاكر، عـرفت ميلـه إلى الجـبر؛ فقـد كان ينسب كل شيء لله، حتى تقصيره وتفريطه.. ومع أنــني لم أكن أتجسس عليـه، إلا أنـني عـرفت ذلـك من حديثـه مـع أهله؛ فعندما طلبوا منه بعض الأمور، قال لهم: لا يمكنــني أن أفعل ذلك.. فلو أن الله أذن فيه وقدره، لقدره أول مرة حين ذهبت أحاول الحصول عليه، لكني لم أنجح، لأن الله لم يقـدر لي ذلك، وما كان علي أن أعترض على مقادير الله.

قالت أهله: الملوم أنت في ذلك اليوم، لأنــك لم تعطهم الوثائق الـتي طلبوهـا، وقـد سـلمتها لـك قبـل ذهابـك، لكنـك رفضـت أخـذها.. وقلت لي: لا يحتـاج اللـه إلى هـذه الوثـائق حتى يسلمني ما طلبته منه.

قال لهـا: ولي الحـق في ذلـك.. ألم تسـمعي قصـة أبي

سعيد الخراز عندما قال يحدث عن نفسه: دخلت البادية بغير زاد فأصابني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد، فسررت بأن وصلت، ثمّ فكّرت في نفسي أنّي سكنت واتّكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلّا أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتا في نصف اللّيل عاليا: يا أهل المرحلة إنّ للّه تعالى وليّا حبس نفسه في هذا الرمل فألحقوه، فجاء جماعة فأخرجوني إلى القرية [1].

ومثلها تلك التي حدث بها أبو حمزة الخراساني عندما قال: حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر، فنازعني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا واللّه لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتّى مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتّى نسدّ رأس هذا البئر لئلاّ يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطمّوا رأس البئر فهممت أن أصيح، فقلت في نفسي: إلى من أصيح؟ هو أقرب منهما وسكنت، فبينا أنا بعد ساعة إذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رحله وكأنّه يقول: تعلّق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك، فتعلّقت به فأخرجني فإذا هو سبع[2].

ومثلها تلك التي حدث بها بعضهم عن بعض العباد أنّه عكف في مسجد ولم يكن له مال، فقال له الإمام: لو اكتسبت لكان أفضل لك، فلم يجبه حتّى أعاد عليه ثلاثا، فقال في الرابعة: يهوديّ في جوار المسجد قد ضمن لي كلّ يوم رغيفين، فقال: إن كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك، فقال: يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي اللّه وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك، إذ فضّلت وعد يهوديّ على ضمان اللّه تعالى بالرزق[3].

1() إحياء علوم الدين (4/ 271)

2() المرجع السابق، (4/ 272)

قالت: لقد سمعت كل هذا منـك سـابقا.. لكن أنت تـرى الحال التي صرنا إليها، وفي إمكانك أن تأخذ جميـع حقوقـك، وبوثـائق قليلـة تسـلمها لهم، وهي عنـدك في بيتـك.. فلم لا تأخذها، فإن الله تعالى ما نهاك عن ذلك؟

راح يستمر في حديثه، وكأنه لم يسمع لما تقول له: لقد حدثني شيخي أن إمام المسجد قال لبعض المصلّين: من أين تأكل؟ فقال: يـا شـيخ اصـبر حتّى أعيـد الصـلاة الّـتي صـلّيتها خلفك ثمّ أجيبك[1].

قالت: لكن ألم تعلم ما فعل رسول الله ﷺ..

قاطعها، وقال: لقـد حـدثنا شـيخنا أن بشـرا كـان يعمـل بالمغازل فتركها، وذلك لأنّ البعـادي كاتبـه قـال: بلغـني أنّـك اسـتعنت على رزقـك بالمغـازل أرأيت إن أخـذ اللّـه سـمعك وبصـرك الـرزق على من؟ فوقـع ذلـك في قلبـه فـأخرج آلـة المغازل من يده وتركها[2].

بعد أن سمعت هـذه الأحـاديث منـه، حـاولت أن أتقـرب إليه، لعلي أستطيع أن أكافئة على ضيافته لي ببعض النصـائح التي قد تفيده، لكنه لم يسمع لي، ولم أجد إلا أن أخرج معه، ثم لا أعود بعد ذلك إلى بيته خشية أن أثقل عليه.

لكـني مـا إن ودعتـه، وشـكرته على حسـن ضـيافته لي حتى عثرت بعصا لرجل مدها أمام قدمي، ولسـت أدري هـل كان يتعمد ذلك أم لا.. لكني سقطت عندها على متــاع لبعض المارة، فآذيته بسقوطي؛ فلم أجـد إلا أن أعتـذر لـه، وأقـول: اعذرني، فقد مد هذا الرجل عصاه فجأة؛ فتعثرت.. وإن كنت بحاجة لتعويض الضرر، فسأفعل.

3() المرجع السابق، (4/ 270)

1() المرجع السابق، (4/ 270)

2() المرجع السابق، (4/ 269)

قال: ويلك.. حتى لو مد عصاه.. ألا ترى كبر سنه؟.. أليس لك عينان تبصر بهما؟.. لم لا تأخذ حذرك؟

توهمت أنه مثل الرجل الأول، فرحت أقول له: المقادير تريك ما لا يخطر ببالك.. وإذا نزل القدر غشّى البصر.. وإذا نزل الحين غطّى العين.. ولا يغني حذر من قدر.. ومن مأمنه يؤتى الحذر.

وهنا قامت قيامته، فقد كان من القائلين بالحرية المطلقة، ومسؤولية الإنسان عن كل أعماله، والنافين لتدخل القدر في حياة الناس، لذلك رفض كل التوسلات التي توسلت بها إليه، بل رفض ما عرضته عليه من التعويضات، وطلب مني أن نذهب للقضاء، ليحكم بيننا، لا على المتاع الذي أثر فيه سقوطي فقط، وإنما على مقولتي له..

وقد كان القاضي من أصحابه، ولذلك ما إن دخلت عليه، وسمع من المدعي علي مقالته حتى راح يصرخ في وجهي قائلا: ألا تعلم الجريمة التي قمت بها؟

قلت: لقد طلبت منه أن يطلب المبلغ الذي يريد، لأعوضه إياه.

قال: هو لم يدع عليك لأجل الدنيا ومتاعها، بل ادعى عليك لأجل تحريفك للدين، وكذبك على الله، وادعائك أن ما حصل لك لم يكن منك، وإنما كان بقدر الله.

أردت أن أتحدث لأدافع عن نفسي، لكنه رفض أن يسمع مني، بل راح يقول لي: أنت ترتكب نفس جريمة إبليس عندما قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: 16]

وترتكب نفس جريمة المشركين عندما راحوا يتهمون الله بأنه سبب جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: 148]، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ

فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ [الأنعام: 148]

ثم نظر إلي بغضب، وهو يقول: انظر كيف احتج المشركون بالقدر على شركهم، ولو كان احتجاجهم مقبولاً صحيحاً ما أذاقهم الله بأسه..

أردت أن أجيبه، لكنه راح يقول لي بكل عنف: ألم تسمع قوله تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء: 165]، فلو كان الاحتجاج بالقدر سائغاً لما انقطعت الحجة بإرسال الرسل، بل كان إرسال الرسل لغوا، لا قيمة له في الواقع.

ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا، لاتهم المشركون يوم القيامة ربهم، ولم يتهموا أنفسهم، ألم تسمع حكاية الله تعالى لقولهم: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [المؤمنون: 106، 107]؟

ألم تسمع قولهم، وهم يصيحون في دركات الجحيم: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: 10]، وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: 11]

لست أدري كيف أتيحت لي فرصة للحديث بعد أن رأيته يمسك كأس ماء ليشرب، وقلت: سيدي القاضي مع احترامي الشديد لك.. لكني لم أردد عليه إلا ما قاله ﷺ: (لا يغني حذر من قدر)[1]

وهنا زاد غضب القاضي حدة، وراح يقول لي: لم تقطع الحديث.. ألم تسمع تتمته.. لقد قال ﷺ بعد ذلك: (الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)، وقد أثبت بذلك أن القدر ليس

---

[1] رواه ابن عدى (3/212)، والحاكم (1/669 رقم 1813) والخطيب (8/453)

لازما.. بل نحن الذين نختار ما نسميه قدرا لنا.

قلت: لكني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول في موعظته البليغة لابن عباس: (واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفّت الصّحف)[1]

وقال في نصيحة أخرى: (المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله. وما شاء فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشّيطان)[2]

ألا ترى أن رسول الله ﷺ دعانا إلى التسليم لقدر الله في الأمور التي لا نطيق دفعها، وقد حصل لي ما لم يكن بالحسبان.

قال القاضي: إن ما تذكره من التبريرات التي أسأت بها فهم حديث رسول الله ﷺ هي التي أوقعتنا في كل المصائب، حتى صرنا نرمي كل شيء على الله، ونعفي أنفسنا من كل مسؤولية..

قلت: ولكن..

قاطعني.. ولم يدعني أتحدث.. ثم أمر بي إلى السجن، وهو يقول: هذا هو القانون الذي يطبق على أمثالك من الذين يكذبون على الله.

لا أخفيك.. أني تألمت لذلك الحكم القاسي، والذي لم يدع لي فيه القاضي أي فرصة لأدافع عن نفسي.. لكني بعد أن دخلت السجن حمدت الله، فقد لقيت فيه ولي الله الذي

1() الترمذي (2516) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح، أحمد (1/ 293، 303)

2() مسلم (2664)

عرفت منه أسرار الأقدار.

فبمجـرد أن دخلت السـجن، والألم يعصـر قلـبي، قـال الرجل الممتلئ بالحكمة والإيمان: لقد طال انتظاري لك.. ما بك قد تأخرت كل هذا التأخر.

قلت: معذرة.. فأنا لا أعرفك.

قـال: كيـف لا تعرفـني، وأنت لم تـأت هـذه المدينـة إلا لتبحث عني.. وأنا لم أدخل السجن إلا لأنتظرك.. وقد ساقتك الأقدار إلي.. كما ساقت الأقدار صاحب يوسف عليه السـلام، ليلتقي به في السجن، ثم يكون ذلك سببا لنجـاة المصـريين، ولتمكين الله ليوسف في الأرض.

قلت: أخـبرني أولا.. هـل أنت من القـائلين بـالجبر، أم القائلين بالاختيار، فقد اختلطت علي الأمور في مدينتكم؟

قـال: لا أنـا من القـائلين بـالجبر.. ولا أنـا من القـائلين بالاختيار.. بل أنا من أتباع ذلك الإمـام الجليـل الـذي قيـل لـه أخبرنا عن القدر، فقال: بحر عميق فلا تلجه، وبيت مظلم فلا تدخله، وسر الله فلا تبحث عنه، ثم قال: (إنه أمر بين أمـرين لا جبر ولا تفويض)، فقال الرجل: إن فلانا يقول بالاسـتطاعة، وهـو حاضـر، فقـال: علي بـه، فأقـاموه فلمـا رآه قـال لـه: الاستطاعة تملكها مع الله أو من دون اللـه، وإيـاك أن تقـول واحدة منهما فترتد، فقال: وما أقول؟ قال: (قل: أملكها بالله الذي أنشأ ملكتها)[1]

وأنا من أتبـاع ذلـك الإمـام الـذي قيـل لـه: (إن أصـحابنا بعضهم يقـول بـالجبر، وبعضـهم يقـول بالاسـتطاعة)، فقـال: (قال الله تبارك وتعـالى: يـا بن آدم بمشـيتي كنت أنت الـذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت إلي فرائضـي، وبنعمـتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعا بصـيرا قويـا، مـا أصـابك من حسـنة فمن اللـه، ومـا أصـابك من سـيئة فمن نفسـك، وذلـك أني أولى بحسـناتك منـك، وأنت أولى بسـيئاتك مـني،

1() بحار الأنوار، 5/57، والقائل هو الإمام علي.

وذلك أني لا أسأل عما أفعل وهم يسـألون، فقـد نظمت لـك كل شئ تريد) [1]

قلت: فأنت لست من كلا الفريقين في المدينة.

قال: أجل.. أنا من كليهما، ولست من كليهما.

قلت: لم أفهم.

قـال: كلاهمـا يملـك بعض الحـق.. وكلاهمـا يملـك بعض الباطل.. ولو أنهما التقيا، لما حصل لهمـا هـذا الشـقاق الـذي تراه.

قلت: فهل عندك حل لذلك؟

قـال: أجـل.. ولـو أنهم سـمعوني لارتفـع عنهم الخلاف، ولعرفوا الله وعظموه، وعرفوا مسؤولياتهم وأدوها.

قلت: فـاعتبرني أحـدهم، وأدل لي بمـا عنـدك.. فلعـل أقدار الله وهبت لي فضل تبليغهم ما تريد.

قال: ربما يكون ذلك.. ولذلك كنت أنتظرك.

قلت: كيف تنتظرني، وأنا لم آت هذه المدينـة إلا بغتـة.. ولم يكن في بالي زيارتها.

قـال: نعم أنت أتيتهـا بغتـة.. لكن لطـف اللـه ومقـاديره العجيبة هي التي حركتك من غير أن تشـعر، ألم تسـمع قـول يوسف عليه السلام مخاطبا والده بعد تلك الأحـداث العجيبـة التي مر بها: ﴿ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَـدْ أَحْسَـنَ بِي إِذْ أَخْـرَجَنِي مِنَ السِّـجْنِ وَجَـاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَـدْوِ مِنْ بَعْـدِ أَنْ نَـزَغَ الشَّـيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْـوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: 100]

قلت: بلى.. فما فيها من العلم المرتبط بأسرار الأقدار؟

قـال: لـو أن يوسـف عليـه السـلام كـان من أولئـك

[1] () المرجع السابق، 5/57، والقائل هو الإمام الرضا.

المتحـررين الـذين يتصـورون أن الأمـر بأيـديهم لا بيـد اللـه، لنسبوا نجاحهم لأنفسهم، ولتصوروا أنهم بقـدرتهم حققـوا مـا حققـوه من مكاسـب.. لكن يوسـف عليـه السـلام لم يفعـل ذلك.

قلت: فهل تراه من الجبرية الذي يزعمون أنـه لا مجـال لحرية الإنسان؟

قال: معاذ الله أن يقع نبي الله في ذلـك.. وكيـف يقـول ذلـك، وهـو الـذي نسـب جريمـة إخوتـه إليهم، فقـال: ﴿ هَـلْ عَلِمْتُمْ مَـا فَعَلْتُمْ بِيُوسُـفَ وَأَخِيـهِ إِذْ أَنْتُمْ جَـاهِلُونَ﴾ [يوسـف: 89]؟

قلت: لكنه نسب ما حصل له من فضل إلى الله، فقال: ﴿رَبِّ قَـدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْـكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيـلِ الْأَحَـادِيثِ﴾ [يوسف: 101]

قال: لأن الأمر كذلك..

قلت: لم أفهم..

قال: الأقدار مثـل الأمطـار.. تـنزل على الـورود؛ فيعبـق الجو بأريجها العطر، وتنزل على المستنقعات، فتزكم الأنـوف من روائحها النتنة.

قلت: لم أفهم.

قـال: الأقـدار من اللـه جاريـة في كـل لحظـة، وبكـل الألوان، ونحن الذين نختار الألوان التي تناسبنا.

قلت: أتقصد أن الأقدار مثل اللـون الأبيض الـذي تجتمـع فيه كل الألوان، ثم تختلف بحسب استعدادات الأجسام لها.

قال: أجل.. أقصد ذلك.. فالقـدر من اللـه.. ولا يصـح أن نعزل الله كما يفعل القـائلون بالاختيـار المطلـق.. وللإنسـان حرية اختيار ما ينسابه.. ولذلك لا يصح ما يـذكره أهـل الجـبر المطلق.

قلت: فهلا ذكـرت لي من النصـوص المقدسـة مـا يـدل على ذلك؛ فهذا أمر لا يصح أن نفتي بعقولنا، ألم تسمع قولـه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَـالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: 93]

قال: بلى، ونعـوذ اللـه من أن نقـدم بين ﴿بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: 1]، إنا إذن لظالمون.

قلت: لقـد عـرفت مجـامع السـنن، وارتباطهـا بـالتغيير والتمكين.. فما مجامع أسرار الأقدار؟

قال: ما شرحته لك سابقا.

قلت: تقصد الإرسال والاستقبال.

قال: أجل.. فمن لم يفقه أسرار الإرسال والاستقبال لم يفقه أسرار الأقدار.

قلت: فهلا وضحت لي ذلك بمثال.

قـال: ألا يضـع قومـك للقنـوات الفضـائية الـتي يبثونهـا تشفيرات خاصة.. من اهتدى إليها اهتدى إلى تلك القناة؟

قلت: أجل.. هم يفعلون ذلك..

قـال: فهـل يمكن للمرسـل أن يفـرض على المسـتقبل القناة التي يرغب فيها؟

قلت: لا.. حتى أن المستقبل إذا لم يستطع أن يسـتقبل إلا قنـاة واحـدة، ولم تعجبـه أغلـق جهـازه، ولم يشـاهد تلـك القناة.

قال: فهل للمستقبل أن يشاهد قناة لا يوجد لها بث؟

قلت: هـذا مسـتحيل.. فهـو لا يسـتقبل إلا مـا بث من قنوات.

قال: فقد فهمت إذن أسرار الأقدار.

قلت: فهمت أســرار الإرســال والاســتقبال، ولم أفهم أسرار الأقدار.

قال: المثال قنطرة الحقيقة؛ فمن فهمه اقترب منها.

قلت: فأنا قريب إذن من فهم الحقيقة.

قــال: أجــل.. ولا عليــك إلا أن تــنزه المثــال من درون الكثافة والتشبيه، فالله أعظم من أن تضرب له الأمثال.

1 ـ أسرار الإرسال:

قلت: أجل .. فحدثني عن أسرار الإرسال.. تلك الأقــدار الصادرة من الحق لعباده.

قال: الأقدار هي تنظيمات الله لكونه وعباده بما تقتضيه رأفته ورحمته بهم، ولذلك يمن عليهم بأفضاله عبر مــا يكتبــه لهم منها، ليبسر لهم منافذها وطرقها.. ويختبرهم بها.

قلت: أتلك التي أشـار إليهـا قولـه تعـالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِـكَ فِي كِتَـابٍ إِنَّ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج:70)، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَـابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59)

قال: أجل.. فعلم الله وخبرتـه بخلقـه محيطـة بهم، فلا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء.. كمـا قـال تعالى: ﴿قُـلْ أَنْزَلَـهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّـرَّ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان: 6)

قلت: فقد آل الأمر إلى الجبر إذن ..

قال: لا .. بل آل الأمر إلى التوحيد.. فاللـه الخـالق لكـل شيء يستحيل عليه الجهل والعجـز والإكـراه، ولـذلك لم يكن لأحد أن يخالف علم الله فيه.

قلت: فهو مجبر إذن على ما لا يستطيع الفكاك منه.

قال: أقدار الله المرسلة لعباده نوعان، منها ما لا يستطيعون الفكاك منه، ومنها ما يمكنهم ذلك..

قلت: لم أفهم ..كيف ذلك؟

قال: ألا ترى في امتحانات العباد بعضهم لبعض في الدنيا، كيف يضعون بعض الأسئلة الإجبارية، ويضعون بعدها ومعها بعض الأسئلة الاختيارية؟

قلت: بلى.. هم يفعلون ذلك.

قال: فلذلك كان من سنة الله في خلقه أن يضع لهم بعض الاختبارات التي لا انفكاك لهم منها، لأنهم قد يولدون عليها، ويعيشون بها.. ووضع لها معها اختبارات أخرى يمكنهم أن يتصرفوا معها وفق ما تقتضيه إرادتهم.

قلت: فهم يحاسبون على الثانية .. لا على الأولى.

قال: وقد يحاسبون على الأولى إذا لم يسلموا لربهم، واعترضوا عليه، وراحوا يتهمونه.. مثلما يحاسب الطالب الذي يرفض بعض الأسئلة التي يوجهها له أستاذه.

قلت: فالأقدار المرسلة نوعان إذن.

قال: أجل.. وقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)، فالآية الكريمة تشير إلى نوعين من الأقدار: أقدار جازمة ثابتة جبرية، وأقدار اختيارية محتملة، يمكن أن تمحى أو تبدل.

أ ـ الأقدار الجبرية:

قلت: فحدثني عن الأقدار الجبرية الجازمة.

قال: هي التي يجد العبد نفسها مختبرا بها من غير أن يكون له كسب فيها.. وقد يتألم لها، مع أن الله لم يقدرها عليه إلا لمصلحته.. وقد يغتر بها ويستكبر، مع أنها ليست من عمل يده.

قلت: أتقصد تلك التي أشار إليها قوله تعالى عند ذكر

التنوع في بسط الرزق وقبضه: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (الشورى:27)، أي لو أعطاهم فوق حاجتهم التي تختلف باختلاف طبائعهم وأحوالهم لحملهم ذلك على البغي والطغيان.

قال: أجل، فالله تعالى بحكمته وخبرته بعباده يختار لكل واحد منهم ما يناسبه من العطاء المرتبط ببيئته وزمانه وحاله وكل ما يصلحه، كما قال ﷺ: (أتانى جبريل فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)[1]

قلت: فقد آل الأمر في هذا النوع من المقادير إلى الجبر.

قال: لا .. أنت لم تفهم الآية ولا الحديث.. فهي لا تعني أن ذلك قضاء لازم لا مفر منه.. وإلا لو كان ذلك لما أمكن للفقير أن يتحول إلى الغنى، ولا للمريض أن يتحول إلى الصحة.

قلت: فكيف توفق بين ما ورد في النصوص المقدسة، وما ذكرته؟

قال:أرأيت لو أن شخصا كتب الله له أن يعيش في بيئة فقيرة، ثم راح جميع عمره يتأسف على ما كتب له من العيش في تلك البيئة، هل ترى ذلك نافعا له في دنياه وأخراه؟

قلت: لا.. بل هو لن يكسب من ذلك سوى الألم والحسرة، ولو أنه بدل أن يتألم للمصير الذي وجد نفسه فيه، فكر في الطريقة التي يخرج بها منه، لكان أولى له، وأجدى

1() رواه الخطيب (6/14)، والديلمى (5/250، رقم 8098)

نفعا.

قال: وهذا ما تشير إلى النصوص المقدسة؛ فهي تطلب من العباد عدم الاهتمام بالوضع الـذي لا يسـتطيعون الخـروج منه، ليهتموا بدل ذلك بالطريقة التي يخرجون بها منه..

قلت: أذلك ما يشير إليـه قولـه تعـالى: ﴿مَـا أَصَـابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد:22)، فقد قال بعدها: ﴿لِكَيْلا تَأْسَـوْا عَلَى مَـا فَـاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُـوا بِمَـا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:23)

قـال: أجـل.. فاللـه تعـالى في الآيـتين الكريمـتين يـذكر لعبـاده سـر إخبـارهم عن علمـه وسـبق كتابتـه للأشـياء قبـل كونها، وذلك حـتى لا يأسـوا على مـا فـاتهم، ولا يفخـروا على النـاس بمـا أنعم اللّـه بـه عليهم.. وكلا الأمـرين يحـول بين الإنسان والعمل الصالح الجاد، فالأول هو الوهن الـذي يسـببه تحمل جميع أثقال الماضي، والثـاني هـو البطـر الـذي يسـببه الفرح بالحاضر، والإيمان بالقـدر يقي من كليهمـا.. فـإذا وقي الإنسان من كليهما توجـه بكليتـه للعمـل الجـاد المثمـر الـذي أتيح له التحكم فيه.

قلت: صدقت.. ولهذا أرى الذين ينكرون على المؤمـنين ما طبعوا عليه من تسليم الأمر لله في مثل هذه الأمور الـتي تخرج من أيديهم وكسبهم، لا يفعلون شـيئا سـوى رميهم في أتـون الإحبـاط أو البطـر الـذي يجعلهم مسـتعبدين لـذواتهم بعيدين عن ربهم، ومن ثم بعيدين عن كل عمل إيجابي.

قال: أجـل.. فالإيمـان بالقـدر مـرهم اللـه لعبـاده الـذي يملـؤهم بالسـكينة والطمأنينـة والتسـليم، لأنهم يعلمـون أن مصدر ذلك البلاء هو الله الرحيم الرحمن، وأنـه مـا ابتلاهم إلا لعلمه بأن في ذلك مصلحتهم.

قلت: ولكن النـاس لا يرحمـون هـذا المبتلى، بـل قـد يعتبرونه حجابا بينهم وبين الله.. ألم تسمع بمعضلة الشر؟

قال: بلى.. وهذا من أسرار تنزل هذا النوع من البلاء.. حتى يميز الخبيث من الطيب، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)؟

قلت: بلى.. وقد سمعت معها تلك الآيات الكريمة التي تشير إلى سر اختلاف البشر في المتاع الدنيوي، كقوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)، فقد ربطت الآية الكريمة بين التكليف ـ الذي هو الخلافة في الأرض ـ والاختبار باختلاف الدرجات الذي يعني التفاوت في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان.

قال: أجل.. ومثلها قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: 32)، أي أن العلة في ذلك التفاوت هي أن يسخّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج بعضهم لبعض.

قلت: وعيت هذا.. لكن قد يتهم بعض هؤلاء المختبرين ربه، لأنه أنزل عليه ذلك البلاء الذي عافى منه غيره.

قال: عدالة الله قسمت بين الخلق البلاء والعافية.. ولذلك كان الكل مبتلون، أولئك الذين ابتلوا بالفقر، أو أولئك الذين ابتلوا بالغنى.. لذلك كان الصادق من المؤمنين مسلما لله، عالما أن ذلك لم يكن إلا لمصلحته.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بحديث لرسول الله ﷺ يذكر فيه أن الله تعالى أراد اختبار ثلاثة نفر من بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى، ليخرجوا ما يخفيه جوهرهم من صفات، فبعث ملكا فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي

المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فـأعطي ناقـة عشـراء، فقـال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقـرع، فقـال: أي شـيء أحب إليـك؟ قـال شـعر حسن، ويذهب هذا عني، قد قذرني النـاس، فمسـحه فـذهب وأعطي شـعرا حسـنا، فقـال: فـأي المـال أحب إليـك؟ قـال: البقر فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال، يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فـرد اللـه إليـه بصـره، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والدا.

وبعد مدة أنتجت تلك الأنعام التي اختبروا بها، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من غنم.

وعنـدما اكتملت لهم النعمـة عـاد الملـك ليختـبرهم من جديد، فأتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجـل مسـكين، تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا باللـه ثم بـك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلـد الحسـن والمـال بعيرا أتبلغ عليـه في سـفري، فقـال لـه: إن الحقـوق كثـيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك النـاس فقـيرا؛ فأعطاك اللـه، فقـال: لقـد ورثت لكـابر عن كـابر، فقـال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال لـه: مثـل مـا قـال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال لــه: إن كنت كاذبـا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صــورته، فقــال رجــل مســكين، وابن ســبيل وتقطعت بي الحبــال في ســفري، فلا بلاغ اليــوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلـغ بهـا في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقـيرا، فخـذ ما شئت، فواللـه لا أجهـدك اليـوم بشـيء أخذتـه للـه فقـال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي اللـه عنـك وسـخط على

صاحبيك[1].

قال: أجل.. فهذا الحديث يدل على أسرار تنوع البلاء سواء للشخص الواحد أو للمجتمع ككل، ولهذا يوجد في كل مجتمع من المجتمعات، بل في حياة كل شخص الاختبارات المختلفة المتناقضة التي قد يتصورها عشوائية بينما هي تسيير من الله ليظهر الإنسان ما يخفيه جوهره من صفات.

ب ـ الأقدار الاختيارية:

قلت: وعيت هذا.. فما الأقدار الاختيارية؟

قال: هي تلك الأقدار التي يساهم الإنسان في صنعها من غير أن تفرض عليه.

قلت: فهي تمثل الأسئلة الاختيارية في الامتحان الإلهي لعباده.

قال: أجل.. وهي أكثر أنواع الأسئلة، ذلك أن الله تعالى أتاح للإنسان مجالا كبيرا للحرية، ليعبر عن شخصيته بالطريقة التي يريد.. حتى أنه يمكنه أن يدخل الكثير من التحسينات على ما فرض عليه من أقدار الحياة.. فيتحول مرضه إلى صحة، وفقره إلى غنى، وبلاؤه إلى عافية.

قلت: كيف تقول ذلك، وقد ورد في الحديث ما يشير إلى عكس ما ذكرت، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال:(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن امه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا ويؤمر باربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه واجله وشقي أو سعيد)[2] .. ألا يدل هذا الحديث على أن سعادة الإنسان وشقاءه مكتوبان عليه، وأنه لا انفكاك له عنها؟

قال: هذا الحديث لا يدل على المقادير الإجبارية، بل هو

---

[1] () رواه البخارى (3/1276، رقم 3277) ، ومسلم (4/2275، رقم 2964)

[2] () رواه البخارى (3/1174، رقم 3036) ، ومسلم (4/2036، رقم 2643)

يدل على المقادير الاختيارية، وهي المقادير التي تحتمل النسخ، وهي التي يشير إليها قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ (الرعد: 39)

قلت: كيف ذلك.. وهل يمكن للإنسان أن يغير من عمره، فيزيد فيه أو ينقص منه؟

قال: أجل.. ولذلك فإن ما يكتبه الملاك هو العمر الافتراضي للإنسان، مثلما يفعل أي صانع يدرك العمر الافتراضي لصناعته، وبذلك يكون الأجل الذي سأل عنه هنا هو هذا العمر الافتراضي، ومع ذلك يمكن الزيادة فيه، كما وصف رسول الله ﷺ طريق ذلك، فقال: (صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الاعمار)[1]، وفي حديث آخر قال ﷺ: (من سره أن يمد الله له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله، وليصل رحمه)[2]

قلت: وهل يمكن الإنقاص منه؟

قال: أجل.. مثل من يقتل نفسه، ولذلك ورد في الحديث العقوبة الشديدة للمنتحر، وقد قال ﷺ يذكر ذلك: (كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح، فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة)[3] ، وهو يشبه ذلك التلميذ المشاغب الذي يخرج من الامتحان قبل أن ينتهي من الإجابة على الأسئلة المطروحة عليه.. ولذلك يتحمل مسؤولية عمله.

قلت: وعيت هذا.. لكن ما تقول في ذكر الحديث لكتابة

1() رواه أحمد، ج 6 ص 159.

2() رواه الحاكم، ج 4 ص 160.

3() رواه البخاري 6 / 362 ، ومسلم رقم (113)

العمل.. وذلك يدل على أن الإنسان مجبر على كل عمل يعمله، ولا انفكاك له عنه؟

قال: معاذ الله.. ولوكان ذلك كذلك لانقطع التكليف، ولم تقم الحجة لله على عباده.

قلت: فكيف توجه الحديث إذن؟

قال: المراد من عمله ليس كسبه، وإنما الوظيفة التي ندب لها، ونوع الأسئلة التي تطرح عليه، وليس ما يعمله، أو ما يجيب به.

قلت: وما تقول في رزقه الذي كتب له؟

قال: أنت ترى في الواقع أن لكل إنسانا شعورا يجذبه لحرفة معينة، أو لطعام معين، فيكون رزقه من تلك الحرفة أو من ذلك الطعام، وقد جعل الله ذلك كذلك حتى يستقيم أمر الخلق، فلا يمكن أن يتوجهوا جميعا نحو حرف واحدة، ولا أن يأكلوا من طعام واحد.

قلت: وما تقول في الشقاوة والسعادة المذكورة في الحديث؟

قال: أقول فيها ما ورد في الدعاء المشهور الذي وردت به دواوين الأحاديث والآثار، ودعا به جميع الصالحين: (اللهم، إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب) [1]

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: ألا ترى أن أي مؤسسة من المؤسسات تضع علامات للنجاح من بلغها فاز، ومن لم يبلغها رسب.. ثم تعلم جميع المنتمين إليها بذلك.. فتكون اختياراتهم هي التي تحدد مصيرهم؟

1() انظر الآثار الكثيرة الواردة في هذا في تفسير ابن كثير (4/ 469)

قلت: بلى.. وكل حياتنا قائمة على ذلك.

قال: فالشقاوة والسعادة مرتبة بذلك.. وهي باختيار العبد، ولا يفرض عليه أحدهما، بل إن الله كتب الجميع.. فمن شاء أن يسعد عمل عمل السعداء، ومن شاء أن يشقى عمل عمل الأشقياء.

قلت: ولكن بعضهم قد يتعلل بكونه كتب من الأشقياء ليسير سيرهم.

قال: ذلك هو المحجوب.. فكيف عرف أنه كتب من الأشقياء مع أن الله قد أتاح له كل فرص السعادة.. بل أعطاه المدة الفسيحة ليراجع نفسه.

قلت: أجل.. وقد ذكرتني بما ورد في آخر الحديث، فقد قال فيه ﷺ: (فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة) [1]

قال: فهذا الحديث يدعو السعداء إلى مراعاة أنفاسهم في كل لحظة، حتى لا تسلبها منهم الأهواء.. ويدعو الأشقياء إلى المسارعة إلى التوبة، فرحمة الله وكرمه لا تمتنعان منهما مثلما لا تمتنعان من المحسنين، لأن الجميع مرسل متاح، والأعمال هي التي تحدد المصير.

2 ـ أسرار الاستقبال:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن أسرار الاستقبال.

قال: ألم تسمع سورة العصر؟

قلت: بلى.. تلك التي تحدد قوانين الربح والخسارة، وقد قال فيها الإمام الصادق مبينا فضل قراءتها والتدبر فيها: (من

1() رواه البخارى (3/1174، رقم 3036) ، ومسلم (4/2036، رقم 2643)

قرأ [والعصر] في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقا وجهه، ضاحكا سنه، قريرة عينه، حتى يدخل الجنة)[1]

قال: أجل .. فهذه الفضيلة العظيمة، تدل على مكانة المعاني التي تحملها السورة، وقد قال فيها بعض العلماء: (لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم)[2]

قلت: وقد روي في الحديث أن الرجلين من أصحاب رسول الله ﷺ كانا إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر[3].

قال: هم يفعلون ذلك، حتى يذكروا أنفسهم بقوانين الربح والخسارة، والسعادة والشقاء.. فهي وإن تنزلت من السماء إلا أن استقبالها لا يكون إلا في الأرض.. وبحسب المستقبلين.. مثلما تنشر الأقمار الصناعية قنواتها، ليتفرق المشاهدون في مشاهدة ما يشاءون منها.

قلت: وعيت هذا.. وقد وضحت سورة العصر ذلك بأخصر عبارة، فقد ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾ [العصر: 1 - 3]

قال: فما القانون الذي يحدد الربح والخسارة، وهل وضع في أيدي العباد، أم أنه خارج عن إرادتهم؟

قلت: لقد ذكر القرآن الكريم أن القانون الذي يقي العباد من الخسارة هو الالتزام بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.. وكلها في متناول يد الإنسان.. بل هي سهلة ويسيرة عليه.

---

[1] مجمع البيان، ج10، ص545..

[2] تفسير ابن كثير (8/ 479)

[3] المعجم الأوسط برقم (5097)

قال: فهل كلف الله عباده ما لا يطيقون؟

قلت: لا .. وقد قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: 286]، وقال: ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7]

قال: فهل وفر الله لهذه القوانين من يشرحها ويبينها ويقنع الخلق بها، ويبين لهم كيفية تنفيذها؟

قلت: أجل.. فقد أرسل الله تعالى الرسل، وأنزل الكتب، وبين كل الحقائق والقيم، ووضحها، وأقام الحجج بها، وقد قال تعالى بعد ذكره لكثير من أسماء الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 164، 165]

قال: فهل في هذه القوانين ما يتنافى مع الفطرة السليمة، أو تأباه العقول؟

قلت: كلا .. فدين الله متناسب مع الفطرة تماما، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم: 30)

قال: وأخبر رسول الله ﷺ أن الإنسان يولد بفطرته مسلما، لكن البيئة التي يعيش فيها هي التي تساهم في تضليله، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء؟)[1]

وقال حاكيا عن ربه عز وجل: (يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)

---

[1] أبو يعلى (2/240، رقم 942) ، والطبرانى (1/283، رقم 828) ، والبيهقى (6/203، رقم 11923)

(2)

قلت: وعيت هـذا.. ولكـني لا أزال متعجبـا من أن يكـون الله وهو الرحمن الرحيم اللطيـف بعبـاده، لم يـنزل السـعادة فقط، وإنما أنزل الشقاء أيضا.

قـال: ومن قـال ذلـك.. اللـه أرحم بعبـاده من أن يـنزل عليهم الشقاء.

قلت: ولكن الله خالق كل شـيء.. والشـقاء والشـر من مخلوقاته.

قال: أرأيت النار التي نطبخ بها طعامنا.. هل هي رحمــة أم نقمة، وهل تسبب لمستعمليها السعادة أم الشقاء؟

قلت: بل هي رحمة.. فلولاهـا مـا هنـأ لنـا عيش.. فنحن نستدفئ بحرها، وننعم بلذيذ الطعام المطبوخ بها.. بـل إنهـا ـ وبسبب الطاقة التي تعطيها ـ أساس الحضارة التي نعيشـها.. فلـولا النـار مـا كـان شـيء ممـا ينعم بـه النـاس من وسـائل الحضارة.

قـال: ولكـني سـمعت أن بعض قومـك راحـوا يحرقـون أنفسهم بها، ويحولونها إلى مصدر شقاء.

قلت: أجل..

قال: فهل هي شر بسبب كونهم فعلوا ذلك بها؟

قلت: معــاذ اللــه .. بــل هي خــير وفضــيلة.. لكنهم هم الملومون لأنهم حولوا النعمة نقمة، والعافية بلاء.

قال: فقد آل أمر الشـقاء إلى المسـتقبلين لا إلى اللـه.. فالله لم ينزل على عباده إلا ما ينفعهم.. ولم يحــذرهم إلا مــا يضرهم.. ولذلك ذكر لهم قوانين السعادة ليلتزموها، وقوانين الشقاء ليبتعدوا عنها.

---

(2) رواه الحكيم الترمذي، (1/310)

قلت: أتعني أن الله لم يخلق الشر المجرد.. وإنما الخير هو الذي قد يتحول إلى شر.

قال: أجل.. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك عندما ذكر ما فعله الشياطين ببعض العلوم التي أنزلها الله على سليمان عليه السلام حيث حولوها إلى علوم سحر، كما قال تعالى: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة:102)

قلت: لطالما تعجبت من هذه الآية الكريمة، وخاصة بعد قراءتي لما ورد فيها من التفاسير المشحونة بالإسرائيليات.

قال: هذه الآية الكريمة تشير إلى أن العلوم التي كان يبثها ذانك الملكان (هاروت وماروت) من العلوم التي تصف حقائق كونية .. كتلك الحقائق التي توصل إليها علماء عصرنا .. وقد كانت تلك العلوم تحمل ثمارا طيبة خيرة يمكن أن تستفيد منها البشرية، وتحمل في نفس الوقت ثمارا خبيثة يمكن أن تتحول إلى شر محض .. ولهذا، فإن هذين الملكين كانا ينبهان كل من يدرس على يديهما تلك العلوم إلى المحاذير التي تنطوي عليها المعارف التي يدرسونها .. فالعلم وحده إن لم يصحبه التوجيه الأخلاقي سيكون وبالا على أصحابه ..

قلت: فهي تشبه إذن العلوم الذرية، التي يمكن أن نستفيد منها طاقة نووية سلمية، ويمكن أن نستفيد منها قنابل مدمرة.

قال: أجل.. فبحسب المستقبلين، تكون الأشياء نافعة أو ضارة.

قلت: ألهذا يقال: العلم سلاح ذو حدين؟

قال: أجل.. وليس العلم فقط.. بل كل شـيء سـلاح ذو حـدين.. فالسياسـة عنـد الصـالحين وسـيلة للإصـلاح، وعنـد الفاسدين وسيلة للمصالح.. والاقتصاد عند الصـالحين وسـيلة لإطعـام الجـائعين، وهـو عنـد الفاسـدين وسـيلة للاختلاس والسرقة وكل أنواع اللصوصية.. وهكذا كل شيء.

قلت: واختيـارات الإنسـان هي الـتي تحـدد بعـد ذلـك مصيره؟

قـال: أجـل.. ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿كُلًّا نُمِـدُّ هَـؤُلَاءِ وَهَـؤُلَاءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّكَ وَمَـا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّكَ مَحْظُـورًا ﴾ [الإسراء: 20] ؟

قلت: بلى.. وقد قال الله تعـالى قبلهـا: ﴿مَنْ كَـانَ يُرِيـدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَـاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَـا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَـذْمُومًا مَـدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِـرَةَ وَسَـعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَـانَ سَـعْيُهُمْ مَشْـكُورًا﴾ [الإسـراء: 18، 19]، فالآيتان الكريمتان تذكران أن المصير المقدر لكل إنسان ناتج عن اختياراته في الدنيا.

قال: بل حتى مصيره الدنيوي.. فالله سيد مقادير الـدنيا والآخرة.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالأرض وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (لأعراف:96)، فقـد أخـبر اللـه تعـالى أن كـل مـا يحصـل في الأرض من مشـاق هـو نتيجـة حتمية للذنوب، على حسب ما يقتضيه العدل الإلهي والحكمة الإلهية، التي رتبت المشقة على المعصية، كمـا رتبت الراحـة على الطاعة.

قلت: بلى .. وقـد قـال اللـه تعـالى يـذكر ذلـك في آيـة أخرى عن أهل الكتـاب: ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْكِتَـابِ آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَكَفَّرْنَـا عَنْهُمْ سَـيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُـوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ

مَا يَعْمَلُونَ (المائدة:65 ـ 66)

قال: وهكذا؛ فإن أكثر ما تـراه من أنـواع البلاء نـاتج عن اختيارات البشر، فهم الذين يعذبون أنفسهم بسلوكهم النــاتج عن أنانيتهم وبعدهم عن الحق.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَـادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ بِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُـذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُـوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (الـروم:41)، فالآيـة الكريمـة تشـير إلى أن الكثير من الشرور الـتي نراهـا في العـالم مصـدرها الإنسـان نفسه، والحرية التي وهبت له.

قــال: ولــذلك فــإن اللــه تعــالى أرحم بعبــاده من أن يعاقبهم، بل هم الذي يعاقبون أنفسهم، وما يرونـه من أنـواع العقاب ليس سوى تجسيم لجرائمهم..

قلت: أجل.. وقد ذكرني ذلك بقولـه تعـالى: مَـا يَفْعَـلُ اللَّهُ بِعَـذَابِكُمْ إِنْ شَـكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَـانَ اللَّهُ شَـاكِراً عَلِيمـاً (النساء:147)

***

ما وصلنا من حديثنا إلى هذا الموضع حتى حصـل شـيء عجيب، ملأني بالانبهار.. ذلك أنه دخل علينا السجن القاضــي، برفقة المدعي علي، والعجيب أنه كان معهما صـاحب العصـا التي سقطت بسببها.

وعنــدما رأيتهم تصـورت أن المــدعي علي قــد سـحب دعواه، وأن صاحب العصا أقر بذنبه، وأن القاضي جـاء ليعفـو عني.. لكني فوجئت بأن الجميع يعرف بعضهم بعضا، وأن مــا حصل لي لم يكن سـوى مسـرحية لاسـتدراجي لسـماع تلـك الكلمات النورانية.

وقد سمعت منهم أنهم لم يفعلوا ذلـك بي فقـط، وإنمـا فعلـوه بغـيري أيضـا، وأنــه من الوسـائل الـتي يسـتعملونها لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تمتلئ بها تلك المدينة.

وعندما سألتهم عن سر اختيار هذا الأسلوب للتعريف بأسرار الأقدار، ذكروا لي قصة موسى والخضر عليهما السلام، وكيف علم الخضر موسى عليه السلام بعض أسرار الأقدار بخرقة للسفينة وبنائه للجدار وقتله للغلام..

ذلك أن من الأقدار التي نتوهم أنها شر، ليست سوى خير عظيم، لأن العبرة ليست بتلك اللحظات القليلة التي نتألم لها، وإنما بالنتيجة العظيمة التي تنتظرنا.. مثلما يحصل مع المريض الذي قد تؤذيه مرارة الدواء، ولكن عاقبتها الشفاء.

قلت: عــرفت أســرار العــداوة والصــداقة والســنن والأقـدار.. فحـدثني عن أسـرار الثبـات والتطـور.. وعلاقتهـا بأسرار الحياة.

قال: بعد أن من الله علي بلقيا العلماء والعارفين الذين فتح الله لي على أيديهم مغـاليق التعـرف على أسـرار أقـدار الله ما ملأني بالرضا والأنس، رحت أبحث عن الثـوابت الـتي ثبت الله بهـا الكـون والحيـاة.. فلا يمكن أن تفهم الحيـاة، ولا أن تكشف أسرارها، من غير أن تعرف الجبال الرواسي التي تثبتها، وتتحكم في حركتها.

وككل مرة.. فـإن اللـه لم يعرفـني بالحقيقـة إلا بعـد أن عرفني بنواقضها المؤلمة.. كما لم يعرفني الإسلام إلا بعد أن عرفني بالجاهلية.. ولم يعرفني بمحمد ﷺ إلا بعـد أن عرفـني بكثير من الدجالين.

ذهبت في بعض تلـك الأيـام إلى (مؤسســة أدنـبره) في أسكتلندا بالمملكة المتحدة، وذلك مع جمـع غفـير من النـاس لمشاهدة أشهر نعجة في التاريخ النعجة [دوللي][1]

وقـد شـاء اللـه أن أجـد في تلـك المؤسسـة جمعـا من الصحفيين المتمرسين يجرون حوارا مـع صـاحب النعجـة.. أو (مخترعها!) ـ كما يتوهم ـ وكان اسمه (إيان ويلمت)[2]

---

[1] هي أول حيوان ثدي يتم استنساخه بنجاح من خلية جسمية.

[2] ننبه إلى أن الحديث الجـاري هنـا افتراضـي محض.. ولا علاقـة لـه بالأفكـار التي يحملها هذا الرجل الذي استعملت اسمه.. وإنما ذكرت اسمه لكونه هو مستنسخ الاستنساخ النعجة دوللي.

قال له بعض الصحفيين[1]: ألا ترى أن العلم انتقل باختراع هذه النعجة إلى شيء جديد لم يكن يخطر على بال..

قال ويلمت: ما تقصد؟

قال الصحفي: لقد كانت الاختراعات مرتبطة بالمادة الجامدة.. ولكنها تنتقل إلى المادة الحية.

قال ويلمت: ذلك صحيح.. ولذلك فإني أعتبر هذه النعجة سلما مهما جدا في تاريخ التطور العلمي المذهل الذي لم يقف في وجهه شيء..

قال الصحفي: فأنت تتنبأ إذن بالمزيد من الكشوف والاختراعات في هذا الباب؟

قال ويلمت: أجل.. هذه النعجة التي ترونها مجرد خطوة في هذا الباب.. وستليها خطوات كثيرة مذهلة.. ربما تستطيع أن تغير الحياة على هذه الأرض تغييرا نهائيا..

قال الصحفي: ما مصادر تنبئك هذا؟.. أم هو رجم بالغيب؟

قال ويلمت: تأمل سير المخترعات والاكتشافات.. وسترى أنها كلها تسير في طريق تصاعدي لا يقف في وجهه شيء..

انظر.. لقد بدأت الثورة الذرية بصناعة قنابل ذرية بسيطة.. لم تؤد إلا أغراضا بسيطة.. لم تعدو تلك الرشات التي رشتها على مدينتي هيروشيما ونجازاكي عام 1945 م.. لكن الدول المتطورة الآن تمتلك عددا من القنابل الذرية المتطورة التي تستطيع أن تدمر الأرض ست مرات على الأقل.. بل ربما نستطيع في المستقبل أن نخترع قنبلة واحدة تستطيع تدمير الأرض جميعا..

---

[1] () استفدت الكثير من المعلومات العلمية المرتبطة بهذا الحوار من مقال بعنوان (الاستنساخ)، د.عبد الرشيد قاسم.. وتاريخ المقال هو (25/10/1425 - 08/12/2004)، ولذلك فإن المعلومات الواردة فيه مرتبطة بهذا التاريخ.

مثـل ذلـك انظـر ثـورة الإلكترونيـات.. لقـد ظهـر علم السيبرنطيقا.. وكان ظهوره بمثابة الأساس لتقنية الحاســوب فيما بعد، ومن ثم ثورة الانترنت الذي أورث ثورة عارمــة في المعلومات المختلفة في شتى الميادين..

ومثل ذلـك حصـل مـع غـزو الفضـاء.. حيث بـدأ بـإطلاق الـروس أول قمـر صـناعي (سـبوتنيك 1) عـام 1957 م.. ثم توالت بعدها المحاولات التي كـان منهـا هبـوط الإنسـان على سـطح القمـر وإرســال مركبـات للمـريخ وزحــل والكــوكب الأخرى لدراسة أحوالها، وتم وضع أقمار صناعية حول الأرض لأغـراض متعـددة منهـا تسـهيل الاتصـالات والتجسـس ونقـل الأحداث من شتى بقاع العالم مباشرة..

ومثل ذلك حصل مع الثورة الحيويــة.. والــتي تمثلت في مظاهر مختلفة.. منها زراعة الأعضاء.. حيث تم عـام 1967م أول عملية زرع قلب بشري.. وحظيت بالنجــاح.. ثم توســعت عمليات النقل والزرع حتى سجلت الكلى والبنكرياس والكبـد والقلب والرئة معاً..

ومنها الهندسة الوراثيــة.. حيث تم الكشـف عن الحمض الريبي النووي، ونال صاحبه جائزة نوبل عــام 1962م، ثم تم الكشف عن أنزيمـات التحديـد أو التقييـد اللازمـة لقص ذلـك الحمض في مواقـع محـددة.. وتـدريجياً بـدأ مصـطلح هندسـة وراثية يتداول بين الناس لتشكل تلك الهندسة في ذاتها ثـورة من أخطر الثورات العلمية..

قام صحفي آخـر، وقـال: قبـل أن نتحـدث عن الجـوانب الكثيرة المرتبطة بالاستنساخ.. حدثنا ـ حضـرة البروفيسـور ـ عن حقيقته.. هل هو اكتشاف.. أم هو اختراع.. أم هو ماذا؟

رفـع ويلمت رأســه ببعض الكـبر، ثم قـال: تسـتطيع أن تقول كل ذلك.. وغير ذلك.. إنه ليس مجرد اكتشـاف.. ولكنـه في نفس الوقت لا يرقى إلى أن يكون اختراعا.

قال الصحفي: فما هو إذن؟

قال ويلمت: لقد عرفته في بعض المقالات العلمية بقـولي : (هو زرع خلية إنسانية أو حيوانية جسدية تحتوي على المحتـوى الوراثي كاملاً في رحم طـبيعي أو صـناعي، وذلـك بغـرض إنتـاج كائن حي (حيوان أو إنسـان) صـورة طبـق الأصـل من نظـيره صاحب الخلية الأولى)[1]

قال الصـحفي: فالاستنسـاخ إذن بحسـب هـذا التعريـف ينقسم إلى قسمين: استنساخ يشـمل الحيوانـات والنباتـات.. واستنساخ يرتبط بالبشر.

قال ويلمت: أجل.. وهو ينقسم نظريا إلى ثلاثة أقسام.. أولهـا الاستنسـاخ الجنيـني.. وهـو معـروف وواضـح.. وثانيهـا الاستنساخ العضوي.. وهو العمل على استنساخ العضو الــذي يحتـاج إليـه الإنسـان في حياتـه حـال حـدوث عطب في هـذا العضـو.. وثالثهـا هـو الاستنسـاخ الخلـوي.. وهـو زرع خليـة جسـدية مكـان نـواة منزوعـة من بيضـة ليتـولى السـيتوبلازم المحيـط بـالنواة الجديـدة حثهـا على الانقسـام والتنـامي من طـور إلى طـور من أطـوار الجـنين الـذي يكـون بعـد ولادتـه صـورة مطابقـة لصـاحب تلـك الخليـة الجسـمية من الناحيـة المظهرية.

قام صحفي آخر، وقال: كيف خطرت على العلماء فكرة الاستنساخ؟

قـال ويلمت: عنــدما نجح العلمــاء في معالجــة البقــرة (روزي) التي يمكنها إفراز حليب مقارب لحليب الأم البشـرية بعـد القيـام بهندسـتها وراثيـاً هي وثمـان بقـرات أخـر لإنتـاج البروتين الآدمي ألفا لاكتـالبومين.. فكـرت مـع زميـل لي هـو (كامبل) في الحفاظ على هذه الخاصية في البقرة[2]..

وبعـد شـروح علميـة مفصـلة حـول كيفيـة تحقيـق ذلـك

1() ا لاستنساخ البشري لتوفيق علوان ص 13.

2() الاستنساخ البشري لفوزي محمد ص 130.

التناسخ أشار ويملت إلى النعجة، وقال: بفضلنا صـارت هـذه النعجة أشهر نعجة في التاريخ.. لقد اشترك في وجودها ثلاث أمهـات بـدون أب.. أمـا الأولى، فـأعطت الخليـة المانحـة للمورثات من ضرعها.. وأما الثانية، فـأعطت البييضـة.. وأمـا الثالثة، فحملت البييضة في رحمها حتى ولدت جنينها الكامل.

انظروا جيدا إلى هذه النعجة..إن تركيبها الكرومـوزومي يتطابق تماماً مع النعجة التي أخذت الخلية منهـا.. وانظـروا.. إنها كائن ثدي كامـل سـليم التكـوين.. وقـد ولـدت ابنتهـا في نيسان 1998م بشكل طبيعي.

ثم أردف يقـول متأسـفا: لكن شـيئا واحـدا نحن نأسـف عليه.. ولم نجد له حلا..

ثم ربت بيـده على كتـف النعجـة، وهـو يقـول: إن هـذه النعجـة ولـدت وعمرهـا سـت سـنوات.. وهي لـذلك ليسـت كالنعاج الطبيعية.. وهي وبالتالي ستصل لمرحلـة الشـيخوخة مبكراً.

قام صحفي آخر، وقال: ألا تـرى أن الاستنسـاخ ينحـرف بالتصـور البشـري المعـروف عن عمليـة التكـاثر.. والـتي تحصرها في الطريق المعروف؟

قـال ويلمت: الاستنسـاخ يصـحح الخطـأ البشـري.. ولا ينحـرف بـه.. فالإنسـان يمكن أن يولـد من أي خليـة.. لا من الخلايا الجنسية وحدها.

قال الصحفي: ألا ترى في هذا انحرافا عن الفطرة.

قهقه ويلمت بصوت عال، وقال: ما تريد بالفطرة؟

قال الصحفي: الطبيعة التي جبلت عليها الأشياء..

قـال ويلمت: ليس هنـاك طبيعـة للأشـياء.. نحن الـذين نصنع الطبائع.. لا الطبائع هي التي تصنعنا.

قال الصحفي: بهذه المناسبة.. ألا تتخوفون من حصـول انحرافات أخلاقية عند القيام بالاستنساخ المرتبط بالإنسان؟

قال ويلمت: عندما يفكـر العـالم في مراعـاة مثـل هـذه الأمور.. فإنه يحتاج إلى أن يخلع رداء العالم ليلبس بدله رداء القسيس.. وحينذاك سنحول من هذه المؤسسة إلى كنيسة.

قال الصـحفي: ليس بالضـرورة تحـول هـذه المؤسسـة العلمية المحترمة إلى كنيسـة.. ولكن يمكنهـا أن تطعم العلم بالأخلاق.

ضحك ويلمت، وقال: العلم علم.. والأخلاق أخلاق..

الأخلاق تقيـدنا بـالقوانين الكثـيرة.. والثـوابت الكثـيرة.. ولكن العلم يطلقنـا من إسـارنا لـنرى الحيـاة ونتصـرف في الحياة.. ونحول الحياة إلا ما نحب لا إلى ما تحب.

ومع ذلك.. فإن ما نفعله يصب في الأخلاق التي تتحـدث عنها..

لعلك رأيت في حياتك الكثير من المرضى الذين يعـانون من الفشـل الكلـوي.. إنهم يعـانون بشـدة.. إنهم يحتـاجون لثلاث جلسات أسـبوعية على الأقـل لعمـل الغسـيل الكلـوي الذي يستغرق ساعات طويلة.

إن هـؤلاء حـتى لـو حـالفهم الحـظ، ووجـدوا متـبرعين للكلى، فـإن أجسـادهم سـتعمل بتلـك الكلى لعـدة سـنوات فقط، ثم سيحتاجون بعدها لعمليـة نقـل كلى أخـرى، بسـبب رفض جسمهم لها لاختلاف فصائل الأنسجة.

بينما لو تمكن الإنسـان من عمـل نسـخة منـه، فإنـه يضـمن الحصول على أعضاء كثيرة.. مثل الكلى والرئـتين والمبـايض أو الخصيتين.. بل إنه يمكنه الحصول على جـزء من الكبـد أو نخـاع العظم دون التأثير على الإنسان المنسوخ مـع ضـمان اسـتمرار عمل الأعضـاء المنقولـة في المـريض بكفـاءة ؛ لأنهـا من نفس الفصيلة.

قال الصحفي: ألا ترى أن ذلك الإنسان المستنسخ سيصـبح، وكأنه مجموعة من قطع الغيار؟

قال ويلمت: وما في ذلك.. أليست السيارات تحتاج إلى قطع غيار؟

قال الصحفي: السـيارات سـيارات.. والإنسـان إنسـان.. ولا يمكن المقارنة بينهما.

قـال ويلمت: في العصـور الماضـية.. عنـدما كنـا تحت سلطة الكنيسة المملوءة بالقيود.. كنا لا نقـارن بينهمـا.. لكنـا الآن في وضع مختلف تمامـا.. نحن الآن في عـالم مختلـف لا تحكمه الأخلاق.. بـل يحكمـه العلم.. العلم الـذي لا يقيـد بـأي قيود.

قـام صـحفي آخـر، وقـال: ألا تخـافون من أن ينجم عن الاستنساخ اختلال التوازن السكاني بسبب الاستغناء عن أحـد الجنسين وفقدان التنوع الذي هو أساس المجتمع؟

لم يجب (ويلمت).. فقام آخر، وقال: ألا تخـافون من أن يـؤدي الاستنسـاخ إلى إنتـاج أشـخاص مشـوهين أو مجـرمين لديهم الاستعداد للإفساد أو التخريب؟

لم يجب (ويلمت).. فقام آخر، وقال: ألا تخـافون من أن تتسابق الدول لاستنساخ أفراد ذوي صفات معينـة ممـا يمهـد للحروب، واعتبار هؤلاء أسلحة تهدد الشعوب الأخرى؟

لم يجب (ويلمت).. فقـام آخـر، وقـال: ألا تخـافون من إمكانيــة أن يتلاعب المتلاعبـون بالجينـات والخلايـا والأجنـة حسب الرغبات والأهواء.. ثم يسـتعملونها بعـد ذلـك للكسـب والتجارة.. ؟

لم يجب (ويلمت).. فقـــام آخـــر، وقـــال: ألا تـــرون في الاستنساخ مسخا للإنسان وامتهانا لكرامته؟

لم يجب (ويلمت).. فقـام آخـر، وقـال: ألا تخـافون من احتمال حدوث خلل تقني أثناء إجراء عمليـة الاستنسـاخ ممـا ينتج عنه تشوهات جسمية وعقلية ونفسية لم نسـمع بهـا من قبل؟

لم يجب (ويلمت).. فقـام آخـر، وقـال: ألا تخـافون من الآثـار السـلبية الـتي تنتج عن اسـتبدال الطريقـة الطبيعيـة للتكـاثر وعمـارة الأرض واختلال النظم الاجتماعيـة كـالزواج والأسـرة والأبـوة والبنـوة وغـير ذلـك من أسـس النسـيج الاجتماعي؟

لم يجب (ويلمت).. فقام آخر، وقال: ألا..

قاطعه (ويلمت)، وقال: أرى أن الصحفيين الذين سـألوا كل هذه الأسئلة نسوا أنفسهم، ونسوا المحل الذين هم فيه.. أنتم لسـتم في كنيسـة.. ولا في مدرسـة تربيـة.. أنتم في مؤسسة علميـة.. ولا ضـوابط تحكم العلم.. ولا ثـوابت تحكم الكون والحياة.

قـال ذلـك، ثم حمـل حقيبتـه وانصـرف غـير مبـال بالتساؤلات الكثيرة التي تنتشر في أرجاء القاعة.

***

سـرت بعـدها إلى مزرعـة أبقـار بنفس البلـدة.. وقـد جلسـت فيهـا لبعض العلمـاء.. وكـان يحـدثنا بحماسـة عن الاختراعات التي توصل إليها في تغذيـة الأبقـار.. ووصـف لنـا بأن الأيام أثبتت كونها علمية ومفيدة.. فهي تعطي الأبقـار مـا هي في حاجـة إليـه من العناصـر المتنوعـة المستحضـرة صـناعيًّا.. وهي بالتـالي تجعـل الأبقـار أكـثر إدرارًا للألبـان.. وتجعلها تنمو نموًا سريعًا.. وكل ذلك سيؤدي طبعا إلى وفـرة في الأرباح..

بينما هو في حماسته تلـك إذا بأحـد العمـال يـأتي مسـرعا.. وهو يصيح: أدركنا يا دكتور.. لقد جنت الأبقار[1]..

---

[1] يعتقد العلماء أن إطعام الأبقار بالمنتجات الحيوانية المصابة قـد سـبب هـذا المرض. وفي أواخر الثمانينيات بـدأت البحـوث لاكتشـاف كيفيـة انتشـار العـدوى بين الحيوانات.. وفي عام 1990م ظهرت في المملكة المتحدة مخاوف من تسرب لحوم الأبقار المصابة إلى طعام البشـر. وأدت هـذه المخـاوف إلى تنـاقص مبيعـات اللحـوم المنتجة محليًا بنسبة 20%. وبالإضافة إلى ذلك وضعت أكثر من عشـرين دولـة قيـودًا على استيراد اللحوم والأبقار الحية من المملكة المتحدة.

بعد أيام رأينا الربح العظيم الذي ناله الدكتور.. وناله مع زملاؤه.. لقد شممنا من مكان بعيد روائح الأبقار المحروقــة.. وجميع تلك الأغذية التي أرادت أن تخترق سنة الله في غــذاء الأبقـار.. ومعهـا ملايين بـل ملايـير الـدولارات.. ومعهـا تلـك المستشــفيات الــتي امتلأت بجثث من أكلــوا لحــوم البقــر المجنون.

***

سـرت بعـدها إلى محـال كثـيرة رأيت فيهـا من عجـائب التطــور الصــناعي والــزراعي مــا ملأني بعضــه بالإعجــاب والانبهار، وملأني بعضه الآخر بالاشمئزاز والتقزز..

لكني بعد تلك الرحلة الطويلـة، لم أجـد من يـدلني على أسرار الثبات والتطور مثلمـا وجـدت في الـرحلات السـابقة؛ فقــررت أن أذهب إلى بلــدة من بلاد المســلمين، لعلي أجــد فيها من كتب له أن يكون معلمي في هذا النوع من الأسرار.

كانت البلدة مقسمة بين حيين..

أحدهما موغل في محبـة كـل مـا ورثـه عن أسـلافه من عادات وتقاليد، فهو لا يرى استبدالها بأي شيء.. ولذلك كــان خاليا من كل شيء جديد، فلا طرقات معبدة، ولا سيارات ولا غيرها من وسائل النقل الحديثـة.. ولم يكن هنـاك أي وسـيلة من وسائل الاتصال حتى البسيطة منها.

وكانت ملابس الناس مثل مدينتهم، يشعر السـائر فيهـا، وكأنــه يعيش في العصــور الوســطى.. وهكــذا كــانت كــل شؤونهم.

وأما الحي الثاني؛ والذي كان يبعد قليلا عن الحي الأول، فقد كان على العكس من ذلك تماما.. كانت فيه كـل وسـائل التطور والرفاهية، ولكن ليس بجانبها العادي البسـيط فقـط، وإنما بجانبها المتوحش أيضا..

فقد كانت دور السينما تعـرض صـورا غـير أخلاقيـة على واجهات محالها، تـدعو النـاس لمشـاهدتها، وبأثمـان رمزيـة..

وكـان الشـباب يلبسـون ثيابـا أقـرب إلى التهتـك منهـا إلى الستر.. وكان النساء غير محجبات..

أما المساجد، فلا وجـود لهـا .. إلا مسـجد واحـدا يشـبه المتاحف.. لم يكن يقترب منـه أحـد.. ومـع ذلـك لم يجـد من أهل ذلك القسم من المدينة أي حرمة، فقد كان بعض الناس يدخلون إليـه بأحـذيتهم ليشـاهدوا عمرانـه.. دون أن تحـدثهم نفوسهم بأن يصلوا أو يذكروا الله فيه.

بل إني رأيت بعض الشباب يسخر من كل شـيء يتعلـق بالدين.. وسمعت بعضهم يقول لصاحبه، وهو يحاوره: لا شـك أنك تريد بهذه الطريقة التي تفكر بها أن يتحول حينا إلى حي أشباح مثل حي أولئك الظلاميين الذين يجاوروننا.

قال له صاحبه: لم أقصد هذا.. ولكـني قصـدت أن بعض ما يحمله أصحاب الحي الذي تسميه ظلاميا من أفكار جميـل جدا.. فقد ناقشت بعضهم، وأعجبني طرحه.

قـال الأول: لـو كـانت أفكـارهم صـحيحة لأثـرت في حيـاتهم.. وتخلفهم وظلاميتهم ليسـت إلا دليلا على الظلام الذي يسكن عقولهم.

قـال الثـاني: لم أذكـر لـك أن كـل أفكـارهم صـحيحة.. ولكني ذكرت لك أن بعضها صـحيح.. وأنـه يمكننـا أن نسـتفيد منها..

قال الأول: لو كان فيها فائدة لاستفادوا هم منها قبلنا.

قـال الثـاني: ليس بالضـرورة.. فقـد يكـون الشـخص صاحب سيارة لكنه قعيد.. ولذلك لا يستطيع أن يسوقها.

قـال الأول: دعـك من هـذا حـتى لا تقـع في سـجونهم.. فنحن قد آثرنا أن نتخلص من كل تلك الرواسب الـتي جعلتنـا من المتخلفين.. ولا يمكننا أن نقبـل التطـور المـادي، ونـترك سائر أنواع التطور.. فالتطور شيء واحد.

أراد الثاني أن يقول شيئا.. لكن الأول أسرع وتركه، وهو

يسخر منـه بطريقـة ممجوجـة آذتـني كثـيرا.. فـاقتربت منـه، وقلت: لا عليـك.. فهـو في مرحلـة الشـباب والمراهقـة، ولا يعرف ماذا يفعل.

قـال: بـل هـو يعـرف مـا يفعـل، ويتصـور أنـه لن يكـون متطورا ولا متحضرا إلا إذا فعل هذا.. هو متأثر بممثل مشهور نـال إعجـاب أهـل هـذا الحي منـذ فـترة، والكـل يقلـده في حركاته.

قلت: لقد كان يحدثك عن التطور..

قال: أي تطور هذا.. بل كان يحـدثني عن التخلـف الـذي طلي بطلاء التطرف.

قلت: لم أفهم.. فهل أنت من أهـل الحي الـذي يسـميه ظلاميا؟

قال: لا .. أنـا لسـت من أهـل كلا الحـيين.. بـل من حي ثالث منعزل لا يعرفه كثير من الناس .. فهـو حاليـا لا يسـكنه إلا ثلة قليلة، أنا أحدهم.. وقد أرسـلني معلمي لعلي أسـتطيع أن أقنع بعض هذا الحي بزيارته.. لكني لم أفلح.

قلت: ولم لا تذهب إلى الحي الآخـر.. فلعلـك تجـد فيهم من يسمعك؟

قال: لقد كنت فيه.. لكني أيضا لم أفلح.. لكني مع ذلـك لن أيأس، وأنا ورفاقي ليس لنا من عمل في كـل مسـاء إلى تنوير كلا الحيين بحقائق الثبات والتطور.

ما إن نطق بكلمة الثبات والتطور حتى اهـتززت طربـا.. وقلت: لعلي في هذه المدينة أظفر بأسرارهما.

قال لي: أجل.. فلم نهتـد لبنـاء الحي الثـالث إلا بعـد أن تعلمنا أسرار الثبات والتطور.

قلت: فمن علمكم علومها؟

قـال: معلمي .. معلم الثبـات والتطـور.. وإن شـئت أن

تزوره، فهو في انتظارك.

امتلأت فرحا بحديثه هذا، وقلت: وجدته .. هذا ما كنت أبحث عنه.

ذهبت معه إلى الحي الثالث الذي احتاج منا إلى بعض السير والجهد.. كان حيا صغيرا، لكنه ممتلئ بالجمال، وكان متطورا، ولكنه يحافظ على كل سمات الأصالة.

وأجمل ما رأيت فيه مدرسة مزودة بكل التقنيات، وأمامها مسجد، كان حينها ممتلئا ببعض الشباب والأطفال.. والذين انصرفوا إلى دروسهم بمجرد انتهائهم من الصلاة.

دخلنا على معلم الثبات والتطور.. وكان حينها بالمدرسة.. وقد عجبت حين علمت أنه يملك كثيرا من الشبهات العلمية، وفي تخصصات دقيقة، وأنه فوق ذلك يملك براءات اختراع.

وقد دعاني ذلك إلى سؤاله عن سر إعراض حي المتطورين عنه، وقلت له: لا أعجب أن يعرض عنك أولئك التقليديون.. فهم لا يؤمنون بالعلوم الحديثة.. ولكني أعجب من ترك أصحاب الحي المتطور لك، وعدم استفادتهم منك.

قال: سر ذلك بسيط، وهو انصرافهم عن معرفة أسرار الثبات والتطور.. فلو عرفوها، لميزوا بين ما يحتاج إلى التطور، وبين ما يحتاج إلى الثبات.

قلت: ولم لم تعلمهم ذلك؟

قال: وهل تركت تلك البلاد التي كنت فيها إلا لأجل هذا.. لقد جئت إليهم لأدعوهم إلى الحفاظ على أصالتهم في نفس الوقت الذي يستفيدون فيه من كل تطور سليم يتناسب مع الفطرة.. والحمد لله ها أنت ترى النتائج.. وسترى أفضل منها بعد مدة وجيزة.

قلت: كيف ضمنت ذلك؟

قال: سيصطدم أهل كلا الحيين بمخالفتهم للفطرة..

ولـذلك لن يجـدوا ملجـأ إلا هـذا الحي الـذي سـيكون نموذجـا صالحا لهم، يكتشفون فيه النقص الذي يعيشونه.

قلت: فأنت تنشر تلاميذك بينهم ليؤدوا عنك رسالتك.

قال: أجل.. أنا أفعل ذلك.. والحمـد للـه، قـد نجحـوا في استنقاذ الكثير، وقد أصبحوا نماذج طيبة، يمكنها أن تثمر بكل صنوف الثمار بعد فترة قصيرة.

قلت: فهلا علمتني أسرار الثبات والتطور.. فأنا منذ مدة طويلة أبحث عن معلمها.

قال: وأنا منذ مدة طويلة أنتظر حضورك.

قلت: لقد عرفت مجامع أسرار السنن، ومجـامع أسـرار الأقدار.. فهل لأسرار الثبات والتطور مجامع تجتمع فيها؟

قال: أجل.. هما مجمعان: الحقائق والقيم.

1 ـ أسرار الحقائق:

قلت: فحـدثني عن أسـرار الحقـائق، وعلاقتهـا بأسـرار الثبات والتطور.

قال: أعيان الحقائق ثابتة.. والتطور معرفتهـا والوصـول إليهـا وإزالـة الأوهـام والخرافـات المرتبطـة بهـا، وتفعيلهـا للاستفادة منها.

قلت: ما تعني؟

قـال: ألم يـر البشـر جميعـا الشـمس، وهي تملأ الأرض بأشعتها الحنون الدافئة؟

قلت: أجـل.. ولـذلك ذكـرت في كـل الأشـعار، والكتب المقدسة، بل إنها عبدت في كثير من الديانات.

قال: فحقيقة الشمس واحـدة، وفي كـل العصـور.. لكن التعامل معها هو الذي اختلـف من جهـة إلى جهـة، ومن زمن إلى زمن.

قلت: أجل.. فالشمس مذ كانت هي الشمس.. ومثلها القمر.. ومثلها كل الكون.. لكن العلوم الحديثة أعطتنا الكثير من المعارف التي كنا نجهلها عنها، وأزالت كثيرا من الخرافات والأوهام المرتبطة بها، وبذلك تطور فهمنا لها، ومعرفتنا بها، وازدادت استفادتنا منها..

قال: وهل التطور الذي وصل إليه البشر حولها ألغاها، أو ألغى حقيقتها؟

قلت: كلا .. بل هو زادنا طمأنينة لها، وتعلقا بها.. وشعورا بعدم إمكانية تخلينا عنها.

قال: فهل اختلف حالكم معها عن ذلك البدوي في الصحراء، أو البدائي في الكهوف؟

قلت: نحن الآن أكثر استفادة منها، وشعورا بأهميتها.. فالكثير من قومنا أصبحوا يستثمرون طاقتها في الكهرباء، وفي كل شيء.

قال: فقد عرفت إذن مجال الثبات والتطور المرتبط بالحقائق.

قلت: ما تعني؟

قال: الأشياء ثابتة في نفسها، والتطور هو موقفنا منها، ومن كيفية التعامل معها.. فإن وقفنا منها موقفا متناسبا مع حقيقتها، واستفدنا منها، كان تطورنا إيجابيا، وإن وقفنا منها موقفا لا يتناسب معها، ولم نستفد منها، أو استفدنا منها بطريقة خاطئة كان تطورنا انتكاسة وسقوطا وانحدارا.

قلت: لم أفهم.

قال: أنت تعلم أن الله تعالى أباح لآدم عليه السلام الأكل من كل شجر الجنة إلا شجرة واحدة، نهاه عن أكلها.

قلت: أجل .. وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، فقال: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

الظَّالِمِينَ [البقرة: 35]

قال: فهل كان آدم عليه السلام عندما وسوس له الشيطان، فأكل منها بحاجة إلى ذلك الأكل، أم أن الله تعالى وفر له في الجنة كل ما يحتاج إليه؟

قلت: بل وفر الله له كل ما يحتاج إليه، ولم يكن بحاجة إلى الأكل منها، كما قال تعالى: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى [طه: 118 - 119]

قال: فلم أكل آدم عليه السلام منها بعد أن وفر الله له في الجنة كل ما يغنيه عنها؟

قلت: لقد وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى [طه: 120]

قال: فهل كان ما ذكره الشيطان حقيقة أم وهما وتلبيسا؟

قلت: بل كان وهما وتلبيسا، فلم تكن في تلك الشجرة تلك المواصفات، بل على العكس من ذلك، فبمجرد أن أكلا منها بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ [طه: 121]

قال: فهل ما حصل لآدم عليه السلام بعد أكله من الشجرة، واكتشافه لسرها، تطور أم انتكاسة؟

قلت: لقد عبر الله تعالى عن ذلك بالهبوط، وهو لا يعني سوى الانتكاسة، كما قال تعالى: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ [طه: 123]

قال: وهكذا الحقائق.. هي ثابتة.. ولكن تعاملنا معها هو المتطور، وهو ليس بالضرورة تطور إيجابي، بل قد يكون تطورا سلبيا.

قلت: ما تعني؟

قال: الله تعالى اختبرنا بشـيئين: بمعرفـة الحقـائق كمـا هي من غير تبديل ولا تغيير، وبالتعامل الصحيح معها.. فلو أن آدم عليه السلام اكتفى من معرفته بالشجرة التي نهي عنها، بأنها شجرة منهي عنها، واكتفى من تعامله معها بعدم القرب منها، ثقة في ربه، لما حصلت له تلك الانتكاسة.

قلت: لا أزال لا أفهم مرادك.

قـال: لتفهم هـذا تحتـاج إلى معرفـة ركـنين من أركـان التعامل مع الحقائق.

قلت: ما هما؟

قال: التوثيق والتفعيل.. فلا يمكن أن نصل إلى الحقـائق الثابتة، ونتطور في التعامل معها من دون هذين الركنين.

أ ـ توثيق الحقائق:

قلت: فحدثني عن توثيق الحقائق، ولم كان مقدمة لتفعيلها؟

قال: لا يمكن فهم الحقائق بالهوى أو بـالظن أو بالرغبـة المجردة، وإنما نحتاج إلى التعـرف عليهـا من خلال المصـادر التي تدل عليها.

قلت: أراك تشير إلى قولـه تعـالى: ﴿وَلا تَقْـفُ مَـا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء: 36)

قـال: أجـل.. فالحقـائق الـتي تنبعث من الهـوى تمتلئ بالوهم، والكذب والأسطورة.

قلت: الحمد لله.. لقد تخلص عصرنا من أوهام الخرافـة والكذب والأسطورة.

قـال: هـو تخلص منهـا في بعض الجـوانب.. لا في كـل الجوانب.

قلت: ما تعني؟

قـال: لقـد تخلص مـدعو التطـور في هـذا العصـر من الخرافـات الـتي كـانت تصـف الكـون في العصـور السـابقة، ولكنه وقع في خرافات لا تقل عنها، عندما راح ينكر الحقـائق الثابتة، بسبب كونها من معتقدات العصور السابقة.

قلت: أراكِ تشير إلى قوله تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْـطِ وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوَى وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:8)

قال: أجـل.. فهـذه الآيـة الكريمـة تضـع مقياسـا لتوثيـق الحقائق، لا يخضع لزمان، ولا لمكان، ولا لدين، ولا لعرق.. بل يخضع لما تتطلبه الحقيقة نفسها من البحث الموضوعي.

قلت: هـل تقصـد أن نتعامـل مـع القضـايا بحسـبها، لا بحسب العصر الذي ذكرت فيه؟

قـال: أجـل.. فـالتطوريون تصـوروا أن الخرافـات الـتي سرت للمعلومات الكونية لأهل العصور السابقة، سرى مثلهـا في المعتقـدات، ولـذلك راح ينكرونهـا، وليس لهم من دليـل على ذلك سوى تلك الخرافات التي ردوهـا، وكـان لهم الحـق في ردها.

قلت: لم أفهم.. هل لك أن توضح لي ذلك بمثال.

قال: أرأيت لو أن شخصا استطاع أن يثبت لدى القضـاء بأن لديه بعض الحقوق الماليـة على شـخص آخـر، وأثبت لـه القضاء صحة دعواه، وكلف المدعى عليه بأن يرد لـه حقوقـه الـتي طلبهـا .. هـل يمكن للمـدعي بسـبب تلـك الـدعوى أن يطلب حقوقا أخرى من غـير إثبـات، معتـبرا أن نجـاح دعـواه السابقة كافية لإثبات دعواه اللاحقة؟

قلت: كلا .. والقاضـي الـذي يحكم بـذلك، لا شـك أنـه متهم؛ فكل جريمة دليلها الخاص المثبت لها.

قال: لقـد قـام التطوريـون بنفس خطـأ أو جريمـة ذلـك المدعي.. ذلك أنهم راحوا يستدلون بما وقع فيه أهل القـرون

السالفة من خرافات على فساد كل معتقداتهم، حتى معتقداتهم في الله نفسها.

قلت: صدقت.. فقد انتشر الإلحاد بعد الثورة الفرنسية، ولم يكن لهم من دليل سوى تلك الخرافات التي كانت تؤمن بها الكنيسة أو يؤمن بها رجال الدين.

قال: وبذلك بدأت الحرب على الدين.. مع أنه كان يمكن أن توجه للخرافات المرتبطة بالدين..

قلت: صحيح.. ولكنهم يذكرون أن الدين شيء غيبي لا يمكن إثباته، ولذلك كان البحث فيه نوعا من اللهو أو اللغو الذي يبعدهم عن الحياة.

قال: وهنا كان خطؤهم الأكبر.. لأنهم حكموا على الدين من خلال أشخاصهم وأوهامهم وفهومهم، وليس بحسب ما هو عليه في الواقع.

قلت: لم أفهم.. هلا ضربت لي على ذلك مثالا.

قال: أرأيت لو أن شخصا من الناس يحب بعض الأطعمة، التي لا تضر صحته؛ فيأتي شخص ويرغبه عنها من غير حجة سوى كون ذلك الطعام مرتبطا بأهل العصور السابقة، ولا علاقة له بهذا العصر.. هل يمكن أن يقبل أحد هذه الحجة؟

قلت: لا.. هذا الرجل مفتر .. ولكل شخص الحق في أن يأكل ما يشتهي.. وليس على الآخرين نهيه، لأن الطباع مختلفة.. وما يشتهيه شخص من الناس قد لا يشتهيه غيره.

قال: فهكذا الأمر في الأديان .. فالتاريخ البشري يثبت أن الدين ركن أساسي في حياة كل الشعوب، ولا علاقة لذلك بعصر دون عصر.. لكن التطوريين في هذا العصر راحوا يتصورون أن الدين مرتبط بعصور سابقة، وأن التطور يقتضي إبعاده عن الحياة بجميع مجالاتها.. وهنا أدخلوا هواهم في هوى غيرهم، ورغبتهم في رغبة غيرهم.

قلت: ولكنهم يستدلون لذلك بتلك الخرافات الـتي وقـع فيها أهل الأديان.

قـال: أرأيت لـو أن شخصـا ذهب إلى بسـتان مملـوء بالحشائش الضـارة، لكنـه بـدل أن يطهـر البسـتان منهـا راح يقضي على كل شيء فيه، حتى أشجاره المثمرة.. هـل تـراه مصلحا أم مفسدا؟

قلت: لا شك في كونه مفسدا.. فلا يصـح أن نحكم على النافع بجريمة الضار.

قـال: وهكـذا فعـل التطوريـون .. فهم لم يكتفـوا بـالرد على مـا في الأديـان من التحريفـات، وإنمـا راحـوا يقضـون عليها، وقد أسلمهم ذلك إلى أوهام كثيرة.

قلت: فما كان عليهم أن يفعلوا؟

قـال: كـان عليهم أن يسـتعملوا وسـائل البحث عن الحقيقـة، ويتحـروا في جميـع الأديـان، ويطبقـوا عليهـا جميـع المقـاييس المفرقـة بين الحقـائق والأوهـام، ليمـيزوا بين الحقيقة فيها والأسطورة.

قلت: حينها سيصلون حتما إلى الإسلام.

قال: ولكنهم لم يفعلوا.. لأن خوفهم من الحقائق جعلهم يتوقفون في منتصف الطريق.. ولا يكتفون بـذلك، بـل راحـوا يشنون على حقائق الإسلام ما شنوه على غيرها.

قلت: أنت تـذكرني بمـا فعلـه أهـل الكتـاب الـذين كـان لديهم كل الأدلة المثبتـة لكـون محمـد ﷺ رسـول اللـه الـذي وعدوا به.. لكنه عندما لم يتفـق مـع أهـوائهم راحـوا ينفـرون منه، وينفرون.

قال: صدقت.. وقد قـال اللـه تعـالى في شـأنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَـا مَعَهُمْ وَكَـانُوا مِنْ قَبْـلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِـهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 89]

قلت: وقد ذكر الله تعالى علة ذلك، فقال: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [البقرة: 90].. فقد كان الحسد هو السبب في عدم إيمانهم.

قال: أجل .. وهو سبب نفسي مبني على مزاج مريض مركب من الهوى المجرد..

قلت: وقد أضاف الله تعالى إلى ذلك السبب قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: 91]

قال: وهو سبب اجتماعي مبني على عنصريتهم وطائفيتهم وكبرهم.. فلذلك أنكروا أن يكون النبي من غيرهم، مثلما فعل التطوريون الذين لم يستسيغوا أن يروا الحقائق في بلاد المسلمين.

قلت: وعيت هذا.. ووعيت معه أهمية هذا الركن من الثبات.. فالتطوريون امتنعوا من تقبل الحقائق، لا بسبب عدم الدليل عليها، وإنما بسبب نفرتهم النفسية والاجتماعية منها.

قال: أجل.. ولذلك ترانا في هذه المدرسة ندرس الحقائق الدينية بالأسلوب الذي يتناسب مع هذا العصر.. حتى لا نسيء إليها.

قلت: لم أفهم ما تعني.. هل طورتم الدين ليتناسب مع العصر.

قال: لا .. دين الله واحد.. وحقائقه ثابتة.. وإنما طورنا أساليب عرضه، وأنواع حججه ليفهمها أهل عصرنا .. ذلك أن بعض ما ذكره السابقون من أدلة لا يتناسب مع أمزجة وعقول هذا العصر.. ولذلك جددنا العرض، حتى لا يساء إلى الحقائق عندما تلبس ألبسة القرون السابقة.

قلت: أراكم استفدتم في هذا من رد الله تعالى على أولئك الذين طالبوا رسول الله ﷺ بأن يستعمل نفس ما استعمله الأنبياء السابقون من حجج.

قال: أجل.. لقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: 183]

قلت: أهذا فقط ما قمتم به من تطوير يرتبط بالحقائق الدينية؟

قال: لا .. ليس ذلك فقط.. وإنما أزحنا عنها الكثير من الخرافات والدجل الذي ارتبط بها.. والذي شوهها، وحال بين الخلق وتقبلها.

قلت: هلا ضربت لي على ذلك مثالا؟

قال: عندما نقرأ كلمات الله المقدسة نجدها تصف الله بالتنزيه والتقديس المطلق.. لكن عقول رجال الأديان لم تستسغ ذلك التقديس، فراحت تصف الله بما تصف به البشر، فغرقت في أوحال التشبيه والتجسيم.

قلت: فماذا فعلتم أنتم؟

قال: لقد طهرنا العقائد من كل ذلك الرجس، لأنه افتراء على الله، وكذب عليه.

قلت: أهذا ما فعلتم؟

قال: هذا مجرد مثال.. فقد دخلت التحريفات في كل شيء.. ولذلك جردنا المقدس من كل أنواع المدنس.. وطهرنا دين الله من كل آثار دين البشر.. فتحول دين الله إلى جماله وقوته التي أضعفها ذلك الدنس الذي أحاط بها.

قلت: فهل كان لكم في ذلك حجة؟

قال: أجل.. لقد أمرنا ﷺ بذلك في وصاياه الخالدة.

قلت: أراك تشـير إلى قولـه ﷺ: (يحمـل هـذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[1]

قال: أجل.. فدين الله يحتـاج كـل حين إلى تطهـيره من كل الأهواء التي تسربت إليه.

قلت: لكن الذي أعلمه هو أن الأهواء تسـربت إلى أهـل الأديان من قبلنا.. فقد كان رجال الدين يكتمون مـا أمـر اللـه به أن ينشر.. وكانوا يضيفون للدين ما يتناسـب مـع أمـزجتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَـابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:174)

بل أشار إليـه الكتـاب المقـدس، فقـد قـال أرميـا: (أمـا وحي الرب فلا تذكروه بعد، لأن كلمة كل إنسان تكـون وحيـه إذ قد حرّفتم كلام الإله الحي رب الجنـود إلهنـا) (إرميـا: 23: 36)، وقال: (هكذا قـال رب الجنـود لا تسـمعوا لكلام الأنبيـاء الذين يتنبأون لكم.. فإنهم يجعلـونكم بـاطلا.. يتكلمـون برؤيـا قلبهم لا عن فم الرب) (إرميا: 23/ـ 16)، وقال: (لأن الأنبيـاء والكهنـة تنجسـوا جميعـا بـل في بيـتي وجـدت شـرهم يقـول الرب) (إرميا: 23/ـ 11)، وقـال: (كيـف تقولـون نحن حكمـاء وشريعة الرب معنا .. حقا إنه إلى الكـذب حوّلهـا قلم الكتبـة الكاذب) (إرميا: 8: 8)

قال: وقد قـال ﷺ: (لتتّبعنّ سـنن من كـان قبلكم شـبرا شبرا، وذراعا ذراعـا حتّى لـو دخلـوا جحـر ضـبّ تبعتمـوهم). قلنا: يا رسول الله، اليهود والنّصارى؟. قال: (فمن؟)[2]

قلت: هـل تقصـد أن التحريفـات الـتي وقـع فيهـا أهـل

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (135)

[2] البخاري- الفتح 13 (7320)

الأديان من قبلنا تسرب مثلها إلى الإسلام؟

قال: أجل.. ولذلك أسسنا مركزا للبحث عن كـل دخيـل تسـرب إلى الإسـلام، ذلـك أنـه لا يمكن الوصـول إلى جمـال الأصيل قبل أن نطهره من دنس الدخيل.

ب ـ تفعيل الحقائق:

قلت: وعيت سر توثيق الحقائق.. وكيفية تطويرهـا..فمـا تعني بتفعيل الحقائق، وكيف تطور؟

قال: ألم تسمع قوله تعـالى: ﴿يَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُـلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: 189]؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: الله تعالى يدعونا في تلك الآية الكريمة إلى تفعيل الحقـائق والاسـتفادة منهـا في كـل شـؤون الحيـاة، وعـدم الاكتفاء بها بمعرفتها فقط.

قلت: ألهذا لم يجب الله تعالى عن سؤالهم عن الحقيقة وأجابهم عن كيفية الاستفادة منها؟

قال: أجل.. لأن عقـولهم حينـذاك كـانت أضـعف من أن تفهم حقيقتها؛ فلذلك دعوا إلى الاهتمام بتفعيلهـا والاسـتفادة منها.

قلت: ألهـذا نهى اللـه تعـالى عن البحث عن الأحـداث الدقيقة المرتبطة بأهل الكهف؟

قال: أجل.. لأن تلك الأحداث لن تقدم أو تؤخر، والعاقل هو الذي يهتم بالتفعيل والعبرة، لا الذي يهتم بالتفاصيل الـتي قد لا يفيده علمه بها، ولا يضره جهله.

قلت: أهذا في كل الحقائق؟

قال: أجل.. فلكل حقيقة آثارها العملية الخاصة بها.

قلت: حتى الحقائق المرتبطة بالله؟

قال: أجل.. فنحن لسنا مطالبين بأن نعـرف اللـه فقـط، وإنما طولبنا بالتواصل معه أيضا؛ وذلك تفعيل للمعرفة بالله.. فمن عرف الله، ولم يتحـرك للسـير إليـه كـان جـاهلا وضـالا وغافلا.

قلت: ألذلك قال الله تعـالى: ﴿فَفِـرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: 50]؟

قال: أجل.. فالعاقل هو الذي يجعل الله مطلوبه الأكـبر؛ فيتعرف عليه، ويتواصل معه.

قلت: ولكن التطوريين يعتبرون ذلك لغوا.

قـال: وذلـك لجهلهم وكـبرهم وغـرورهم وعنـادهم.. وإلا فإن الله هـو المطلـوب الأكـبر لكـل عاقـل.. فمـاذا وجـد من فقده؟.. وما الذي فقد من وجده؟

قلت: وعيت هذا.. فكيف نفعل علاقتنا بالأنبياء؟

قال: بالتواصل معهم.. واتخاذهم أسوة.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: 90)

قلت: فكيف نفعل علاقتنا بالملائكة؟

قــال: بمحبتهم وصــداقتهم والتواصــل معهم والشــعور بحضورهم الدائم معنا.. ألم تسمع قولـه تعـالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطـار: 10 - 11]، وقولـه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَـانِ عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيد مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17 - 18]؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: أرأيت لو أن صاحبك الذي تحبه وتعتقد مودته كـان مصاحبا لك في محل من المحال، أكنت تفعل ما يغير نظرتـه إليك؟

قلت: كلا .. إني حينهـا أسـتعمل كـل الوسـائل لأظهـر أمامه بأحسن مظهر.

قال: فكذلك إن عرفت الملائكة وكمالهم وصدقهم.. وعرفت حضورهم الدائم معك، فإن ذلك يجعلك تستحيي منهم أكثر من استحيائك من صديقك.

قلت: ولكن أليس في ذلك شرك.. فنحن مطالبون بأن نعظم الله، ونكتفي بنظره إلينا.

قال: ونحن مطالبون بمراعاة أهل الله وتعظيمهم، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105]

قلت: بلى.. فأخبرني عن كيفية تفعيل حقائق اليوم الآخر؟

قال: من عرف حقائق اليوم الآخر امتلأ بكل أنواع السعادة، وتزود معها بكل أنواع الهمة.

قلت: ما تعني؟

قال: أرأيت لو قيل للناس: إن هناك فترة من حياتكم بعد بلوغكم الشيخوخة، أو بعد إصابتكم بمرض خطير يشل أعضاءكم جميعا تولدون من جديد، لا شيبا كما كنتم، بل شبابا أقوياء، ويمتد شبابكم أمدا لا ينتهي.. لو قيل ذلك، ورآه الناس بأعينهم.. يرون الشيخ الكبير ينام أمامهم، ثم في الصباح يشاهدونه، وقد اخضر عوده، واشتدت أوصاله، وقام قوامه.. لو رأوا ذلك بأعينهم، كيف يكون حالهم؟

قلت: إنهم حينها يبدلون كل أشعارهم التي قالوها عن الشباب ليمدحوا بها الشيخوخة، وحينها لن يقول أبو العتاهية:

فياليتَ الشبابَ فأخبرَهُ بما

بل سيقول:

فياليتَ الشباب فأخبرَهُ بأفضال

قال: فإذا قيل لهم: إن هذا التغيير لن يحصل لكل الناس، بل لكل من عمل أعمالا معينة.. هل ترى الناس

يعرضون عن تلك الأعمال، أم سيقبلون عليها بكل شوق؟

قلت: بل سيقبلون عليها بكل شـوق.. وكيـف لا يقبلـون عليها، وهي مصدر سعادتهم.

قال: فكذلك حقائق اليوم الآخر عندما تتشربها القلـوب، وتعيها العقول، لن تبقى مجرد حقائق، بل تتحول إلى أعمـال ممتلئة بالصلاح، وتتحول معهـا النفـوس المكتئبـة إلى نفـوس ممتلئة بالسعادة.. وتتحول معها الهمم الدنية إلى همم رفيعة تناطح الجوزاء.

قلت: لقد ذكرتني بمقالة السحرة لفرعون، فقـد دخلـوا عليها أذلة يسبحون بحمده، لكنه ما إن غمـر الإيمـان قلـوبهم حتى راحوا يتحدونه.. لقد قال الله تعالى مخـبرا عن حـديثهم وتحـديهم: ﴿ لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَـا جَاءَنَـا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَـا لِيَغْفِـرَ لَنَـا خَطَايَانَـا وَمَـا أَكْرَهْتَنَـا عَلَيْـهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَـدْ عَمِـلَ الصَّـالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَـدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ مَنْ تَـزَكَّى﴾ [طه: 72 - 76]

قال: وهكـذا تـرى كيـف تحـول الحقـائق الإيمانيـة حيـاة الإنسان إلى حياة ممتلئة بالإيجابية والقوة.

قلت: لكن التطوريين يذكرون أن الدين أفيون الشعوب.

قال: لقـد ذكـرت محـل خطئهم، فهم لا يكتفـون بمحـل الخطأ، وإنما يتجاوزونه إلى غيره.. هم مثل ذلك الـدب الـذي أراد أن يذب عن صاحبه الذباب؛ فقتله.

قلت: أترى أن لهم بعض الحق فيما ذكروا؟

قال: أجل.. وما كنت لأكذبهم تكـذيبا مطلقـا، ولـو فعلت ذلك لكنت شـبيها لهم.. وكيـف أفعـل ذلـك، والقـرآن الكـريم نفسه نطق بذلك قبل أن ينطقوا به..

قلت: عجبا.. هل أخبر القـرآن الكـريم أن الـدين أفيـون الشعوب؟

قال: لقد أخبر القرآن الكريم أن دين البشـر هـو أفيـون الشعوب لا دين الله.. فدين اللـه هـو المحـرك لكـل طاقـات الإنسان والمجتمع لكل أنواع الفضائل.

قلت: أراك تقصـد قولـه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ كَثِـيرًا مِنَ الْأَحْبَـارِ وَالرُّهْبَـانِ لَيَـأْكُلُونَ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبـة: 34]؛ فهذه الآية الكريمة تشير إلى ما كـان يقـوم بـه رجـال الـدين من اسـتغلال للـدين في سـبيل تحقيـق المصـالح الشخصـية، وتشويه الدين لأجل ذلك، حتى يصبح مطية لخدمة أغراضهم.

قال: كل القرآن الكريم يتحدث عمـا يفعلـه المفسـدون في الأرض من تلاعب بالأديـان.. ألم تسـمع قصـة السـامري، وهو من أصحاب موسى عليه السلام، وفي عهده، ومـع ذلـك حاول أن يدنس دين الله بالوثنية.

قلت: بلى .. وقد سمعت معها تلك الإلحاحـات الشـديدة لليهود بأن يريهم الله جهـرة، أو يجعـل لهم إلهـا يعبدونـه من دون الله.

قال: فإذا كان الأمر كذلك في حياة الأنبيـاء، فكيـف بمن بعدهم؟

قلت: وعيت هذا .. فحـدثني عن تفعيـل حقـائق الكـون، بعد أن حدثتني عن تفعيل حقائق الإيمان.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَـقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَـلَ لَكُمْ سَـرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَـرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَـكُمْ كَـذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: 81]؟

قلت: بلى .. فما فيها من العلم؟

قال: إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة يأمرنا بالاستفادة من الطاقات الموجودة في الأشياء لتطوير الحياة ومرافقها، وتيسير العيش فيها.

قلت: ولكنه ذكر أشياء بدائية جدا.. فالجبال لم تعد محلا للسكنى.

قال: القرآن الكريم يذكر الحقائق التي يستفيد منها الجميع.. فهل تطالبه في تلك البيئة البدوية البسيطة أن يحدثهم عن ناطحات السحاب، أو الأبراج العالية.

قلت: لا .. ولو قال ذلك لسخروا منه.

قال: ومع ذلك، فقد ذكر القرآن الكريم الكثير من الإشارات التي يمكن للعقلاء أن يستنتجوا منها الكثير من النتائج التي تفيدهم في حياتهم عندما ينظرون إلى الأشياء باعتبارها نعمة إلهية يمكن استثمارها في نواح كثيرة.

قلت: هلا ضربت لي على ذلك مثلا.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ: 12)

قلت: بلى.. فالله تعالى يخبر عن النعم التي وهبها سليمان عليه السلام، ومنها تسخير الريح له، بحيث يستفيد منها في حاجاته المختلفة.

قال: هذا منطوقها .. أما إشارتها فهي تشير الى أن الطريق مفتوح أمام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء، وهي بذلك تحث على البحث عن القدرات المخزنة في الهواء لاستغلالها في قطع المسافات.

قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بمقولة لبديع الزمان النورسي يقول فيها تعليقا على الآية الكريمة: (هذه الآية الكريمة تبين معجزةً من معجزات سيدنا سليمان عليه السلام. وهي تسخير الريح له، أي إنّه قد قطع في الهواء ما يُقطع في شهرين في يوم واحد. فالآية تشير إلى أن الطريق

مفتوح أمام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء)[1]

قال: وهكذا قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْـرَصَ ﴾ [آل عمران: 49]

قلت: أجل.. وقد قال فيها النورسي: (القرآن الكـريم إذ يحث البشرية صراحة على اتباع الأخلاق النبوية السامية التي يتحلّى بها سيدنا عيسى عليه السلام، فهو يرغّب فيهـا ويحض عليهـا رمـزا إلى النظـر إلى مـا بين يديـه من مهنـة مقدسـة وطب رباني عظيم.. فهذه الآية الكريمة تشير إلى أنــه يمكن أن يُعـثر على دواء يشـفي أشـدَّ الأمـراض المزمنـة والعلـل المستعصية، فلا تيـأس أيهـا الإنسـان، ولا تقنـط أيهـا المبتلى المصاب. فكلُّ داء مهما كان، له دواء، وعلاجُه ممكن، فابحث عنه، وجِدْه، واكتشفه، بل حتى يمكن معالجـة المـوت نفسِـه بلون من ألوان الحياة الموقتة) [2]

قال: وهكذا كل القـرآن الكـريم.. فـالعقول النـيرة تفهم منه المعاني السـامية الـتي تسـتثمرها في الحيـاة، وتوظفهـا لخدمتها، وأما العقول الممتلئة بالدنس؛ فتبحث في الأساطير عن تفسيرها لتحول دين الله إلى خرافة ودجل.

قلت: لقد ذكرتني ما قص علينا القرآن الكريم من قصة ذي القرنين الذي مارس كل الأساليب ليحقـق الرفـاه والأمن لمن ولي شأنهم ..

قال: أجل.. فقد ذكر الله تعالى أنه اتبـع الأسـباب.. ومـا الأسباب إلا ما توفره العلوم من حقائق تستغل في التقنيـات المختلفة .. بل إن الله تعالى ذكـر بعض تلـك التقنيـات الـتي استعملها عند استثماره لحقائق الأشياء، فقـال: ﴿آتُـونِي زُبَـرَ الْحَدِيـدِ حَتَّى إِذَا سَـاوَى بَيْنَ الصَّـدَفَيْنِ قَـالَ انْفُخُـوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهف: 96)

---

[1] الكلمات، ص282.

[2] الكلمات، ص282.

قلت: أجل.. وقد ذكرني ما ذكرته من أن بعض العلماء المعاصرين استطاع أن يكتشف بعض تقنيات الزراعة الناجحة المرتبطة بالبيئات الجافة من خلال قراءته وتفعيله[3] لقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ (الكهف:32)

2 ـ أسرار القيم:

قلت: وعيت أسرار الحقائق، وعلاقتها بأسرار الثبات والتطور.. فحدثني عن أسرار القيم، وعلاقتها بهما.

قال: ألا ترى الأرض وكل الكواكب تسير في مداراتها بكل دقة من غير أن تفكر في يوم من الأيام أن تغير تلك المسارات؟

قلت: بلى.. ولو فعلت ذلك لانهدت وانهد معها بنيان الكون.

قال: ألا ترى كيف يحافظ الأكسجين وغيره من الغازات على نسبته في الهواء؟

قلت: بلى.. وقد سمعت [جيمس لافلوك]، وهو عالم مختص في الكيمياء الحيوية: (لو زادت نسبة الأوكسجين عن 25 بالمائة لاشتعلت الحرائق في كافة الغابات الاستوائية والسهول القطبية، بل كافة النباتات التي تشكل الحلقة الرئيسية في شبكة الغذاء للإنسان .. أما النسبة الحالية للأوكسجين فهي محفوظة بواسطة توازن دقيق بين حد الخطر وبين الفائدة .. فلو كانت نسبة غاز الأوكسجين في الغلاف الجوي أكثر بقليل مما هي عليه لتحول كوكبنا إلى عالم لا يطاق ولا يمكن العيش عليه، لأن شرارة صغيرة تكفي لإشعال حرائق ضخمة جدا تحول كوكبنا إلى شعلة من النار .. لو كانت نسبة غاز ثاني أوكسيد الكربون في الغلاف الجوي أقل مما هي عليه لنتج من ذلك عدم المحافظة على

---

[3] انظر: معجزات علمية (ص: 304)

حرارة سطح الأرض ولتحولت البحار والمحيطات شيئا فشيئا إلى مسـطحات متجمـدة وبالتـالي يصـبح كوكبنـا غـير ملائم للحياة)[1]

قال: فهل كان الأكسوجين في العصور الوسطى مختلفا عنه في هذا العصر؟

قلت: لا .. نسـبته واحـدة.. ولـو اختلفت لتـأثر الخلـق بذلك..

قال: أتدري ما سر ذلك، وما علاقته بالثبات والتطور؟

قلت: لا .. لم أفهم بعد.. واعذرني، فأنا أحتاج دائمـا إلى التوضيح والتفصيل.

قال: لقد خلق اللـه تعـالى لكـل شـيء في هـذا الكـون نظاما دقيقا يسير عليه إن هـو راعـاه، وبقي ثابتـا عليـه، ولم يغيره عاش عيشة طبيعية، فإن غيره وبدله أثر ذلك فيه.

قلت: هل تقصد النظام الكوني؟

قـال: بـل كـل شـيء.. فقـد جعـل اللـه لكـل شـيء من القوانين ما يرتبط به .. ألم تسمع خطاب الله تعـالى للنحـل، فقــد قــال عنهــا: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِــذِي مِنَ الْجِبَـالِ بُيُوتًـا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 68، 69]

قلت: بلى.. فالآيتان الكريمتان تبينان قوانين الحياة التي يسير عليها عالم النحل.

قال: فهل هذه القوانين ابتدعها النحل ابتداعا أم أن الله هو الذي جبله عليها؟

قلت: بل الله تعالى هو الذي جبله عليها.

---

[1] انظر: الكون بين التوحيد والإلحاد (ص: 148)

قال: فلو أن النحل غير تلك القوانين.. وراح يتلاعب بها.. وراح بدل أكله من كل الثمرات، صار يأكل لحوم الحيوانات.

قلت: حينها سيحصل لها ما حصل للبقر من جنون.

قال: وهكذا عالم البشر.. إن هو خالف القوانين التي هداه الله إليها، وجبله عليها.. فإنه حينها سيصاب بانتكاسة أعظم من انتكاسة البقر وجنونها.

قلت: فهل هذا ما يدعو إليه التطوريون؟

قال: أجل.. فهم يتمردون على القيم التي بنى الله عليها كونه وخلقه.. ويتصورون أنهم لن ينالوا حريتهم إلا بذلك.

قلت: لقد سمعتهم يرددون هذا.. وقد قال أحدهم معبرا عن تمرده على الله: (مرة واحدة شعرت بأن الله موجود حين كنت ألعب بعيدان الكبريت، وأحرقت سجادة صغيرة، وفيما كنت أخفي جرمي أبصرني الله فجأة .. لقد شعرت بنظراته داخل رأسي .. أحسُ أنني مرئي منه بشكل فظيع، وشعرت بأنني هدف حي للرماية، ولكن الإستنكار أنقذني، فقد اغتظت لفضوله المبتذل، لهذا رفضته وجدفت عليه فلم ينظر إليَّ أبدًا فيما بعد)، وقال آخر: (يجب ألا يكون الله، حتى يكون الإنسان)، وقال آخر: (إذا كان الله موجودًا فلست بحر، أنا حر فالله إذا غير موجود)[1]

قال: لكنهم لن ينالوا إلا السراب.. ذلك أن حرية الإنسان في عبوديته لله.. فالله هو مصدر السعادة والأمان والسلام والحضارة.. وكل من ابتعد عن الله انتكس.

قلت: لقد توعد الشيطان البشر بأن يغيرهم عن الجبلة التي خلقوا عليها.

---

[1] انظر هذه النصوص وغيرها في: ما قاله الملاحدة ولم يسجله التاريخ (ص: 96)

قال: أجل.. لقد آلمه أن يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، فلذلك راح يتوعد بأن يحولهم من آدميتهم إلى شيطانيته.. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 118، 119]

قلت: وقد أفلح في دعواه..

قال: أجل.. وخصوصا مع أدعياء التطور.. فهم يتوهمون أن كل جديد يأتون به من بنات أفكارهم وإبداعهم، بينما هو في حقيقته ليس سوى وساوس شيطانية، وتلبيسات إبليسية.

قلت: أتعتبر الحضارة التي يدعو إليها التطوريون حضارة إبليسية.

قال: أنا لا أقع فيما يقع فيه المعممون من الأخطاء.. بل كما ميزت بين الحق والباطل في عالم الحقائق أميز بين الخير والشر في عالم القيم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد رأيت التطوريون يخلطون بين المبادئ والممارسات..

قلت: لم أفهم..

قال: لن تفهم أسرار الثبات والتطور في القيم حتى تفرق بين المبادئ القيمية، والممارسات القيمية.. فالمبادئ القيمية ثابتة، والممارسات القيمية متغيرة متطورة.

أ ـ المبادئ القيمية:

قلت: فحدثني عن المبادئ القيمية.

قال: المبادئ القيمية هي الثوابت التي تقوم عليها الحياة.. والتي اتفق الشرع والعقل على تحسينها، وتقبيح ما يخالفها.

قلت: ولكـــني ســـمعت أن بعض العلمـــاء، أو بعض المـدارس الإسـلامية تـذكر أن الحسـن والقبح شـرعيان، ولا يقضي العقل بحسن شيء منها ولا بقبحه، بل القاضـي بـذلك هو الشرع وما حسّنه فهو حسن، وما قبحه فهو قبيح.

قال: ما صدقوا.. وما كذبوا.

قلت: ما تعني؟

قال: هنـاك قيم لا يمكن للعقـل المجـرد أن يعرفهـا من دون الــوحي.. وهنــاك قيم جعلهــا اللــه تعــالى في العقــول السليمة، يمكنها أن تكتشفها، بل هي في جبلتها وفطرتها.

قلت: هلا وضحت لي ذلك.

قال: لو كانت العقـول المجـردة وحـدها كافيـة للتعـرف على كل أنواع القيم ما احتاجت البشرية إلى شـريعة إلهيـة.. ولذلك كانت الشريعة معينـة للعقـل حـتى يتحقـق للحيـاة مـا أراده الله لها.

قلت: أذلك يشبه الوحي الذي أوحاه الله إلى النحل.

قال: أجـل.. فاللـه تعـالى كمـا أودع في عقـل الإنسـان تحسين الحسن وتقبيح القـبيح أيـده بعـد ذلـك بـالوحي الـذي يبين له كيفية القيام بذلك.. فقد يقع الخطأ نتيجـة التلبيسـات والأهواء.

قلت: هلا ضربت لي على ذلك مثالا.

قـال: الحريـة الـتي كنت تـذكرها.. فهي قيمـة من القيم النبيلة.. يحسنها العقل والشـرع.. لكن العقـل قـد يخطئ في فهم حقيقتها ومجالاتها.. فلذلك كان الشرع هو المحدد لذلك، والمبين له.

قلت: لقد وضع الله تعالى حدودا كثيرة للحرية.

قال: أجل.. حـتى لا تصـبح ذريعـة للانتكاسـة الإنسـانية.. ذلك أن الشيطان لا يستعمل وسيلة لإغراءته مثلمـا يسـتعمل

الحرية.. ليحول بها الإنسان عن إنسانيته.

قلت: وعيت إنكارك على الذين ينكرون على الشرع تقريره لحسن الحسن، وقبح القبيح.. فما تقول لأولئك الذين ينكرون على العقل أن يعرف ذلك؟

قال: أدعوهم إلى سماع قوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: 28]، وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: 35، 36]

قلت: فما يسمعون منها؟

قال: إن الله تعالى في تلك الآيات الكريمة بين أن العقول نفسها تقر بالفرق بين المسلمين والمجرمين.. وبين الفساد والصلاح.. وذلك يدل على أن الصلاح حسن بذاته، والفساد قبيح بذاته.

قلت: مثل ذلك كثير في القرآن الكريم.. فالله تعالى يخاطب العقول في كل المحال، لتكتشف بنفسها حسن الحسن، وقبح القبيح، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 76]

قال: ولذلك قامت حجة الله على عباده.. لأن دينه الذي شرعه لهم متناسب مع عقولهم والفطر التي فطروا عليها، ولا يختلف معها.

قلت: أجل.. ولذلك قال عند ذكر بعض وصاياه لعباده: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151]

ب ـ الممارسات القيمية:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الممارسات القيمية.

قال: الممارسات القيمية هي التي يمكن أن تتطور، وتتغير باختلاف البيئات مع الحفاظ على المبادئ.

قلت: هلا ضربت لي على ذلك مثالا.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]؟

قلت: بلى.. فالآية الكريمة تذكر الأساليب التي كان يستعملها رسول الله ﷺ لتأليف قلوب أصحابه رحمة بهم، وحتى لا ينفضوا عنه.

قال: فهل هذه الأساليب توقيفية.. أم أنه يمكن الاجتهاد فيها؟

قلت: بل يمكن الاجتهاد فيها.. بل لا يمكن تحقيق تلك الأساليب من دون الاجتهاد فيها مراعاة لطباع الناس المختلفة.

قال: كيف ذلك؟

قلت: لقد قال رسول الله ﷺ : (المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[1] ، وهو يدعونا بهذا إلى استعمال كل الممارسات التي تجعل الناس لا ينفرون منا، ما دامت تلك الممارسات خاضعة للقيود الشرعية.

قال: فهل ذكرت لي بعض تلك القيود؟

قلت: ألا يكون فيها غش ولا خديعة ولا أي رذيلة من الرذائل التي يأباها الشرع، وتأباها معه العقول السليمة.

قال: تقصد أنها مقيدة بالمبادئ القيمية.

1() رواه أحمد (2/ 400) وفي (5/ 335)، الفردوس للديلمي (4/ 77) برقم (6549)

قلت: يمكنك أن تقول ذلك.

قال: فالممارسات القيمية هي كل ما ترك الله تعالى فيه لعباده الحرية في النظر في كيفية تنفيذه بما يتناسب مع المبادئ القيمية.

قلت: أجل.. ذلك صحيح.

قال: وهنا يمكن أن يكون التطور..

قلت: هلا ضربت لي على ذلك مثالا.

قال: من أقرب الأمثلة على ذلك، ما اختلفنا فيها مع بعض التقليديين من سكان ذلك الحي الذي رأيته .. والذين يرفضون كل جديد حتى لو كان فيه خدمة للقيم الرفيعة التي جاءت بها الشريعة.. ذلك أنهم توهموا أن الممارسات التي مارسها سلفهم هي التي يجب أن يمارسها خلفهم.. ولذلك شوهوا المبادئ القيمية نتيجة خلطهم بين المبادئ والممارسات.

قلت: لا أزال أنتظر منك مثالا أكثر وضوحا.

قال: من الأمثلة على ذلك أن أهل ذلك الحي يرفضون نظام التعليم الحديث.. بحجة كونه مستوردا من الكفار.. مع أن ذلك النظام يخدم القيم التي جاءت بها الشريعة، والتي تدعو إلى العلم.. ومع أن الكفار لم يكفروا في ذلك المجال، وإنما كفروا في موقفهم من الله، ومن دينه، وليس في موقفهم من العلم.

قلت: وعيت هذا.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قال: أهل ذلك الحي يرفضون كل تجديد في الممارسات الاقتصادية حتى لو لم يدل دليل على حرمته.. مع أن الشريعة لم تضع في الجانب الاقتصادي إلا القيم التي يجب مراعاتها، ثم تركت الحرية بعد ذلك للناس في ممارسة أي نشاط اقتصادي يريدون.

قلت: وعيت هذا.. فهلا ضربت لي مثالا آخر.

قال: أهل ذلك الحي يرفضون كل تجديد مرتبط بالحياة.. بلباس الناس أو كيفية عمارتهم لمساكنهم.. وغيرها.. وهم يتوهمون أن ذلك مخالف لما جاءت به الشريعة.. مع أنها بريئة من ذلك، بل إن الله تعالى أخبر أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرا من الزجاج.

قلت: وعيت هذا.. ولكن ألا ترى أن هؤلاء قد اختاروا طريق الورع، وهو أسلم الطرق.

قال: هم اختاروا طريق الورع لأنفسهم، لكنهم سدوا منافذ الحق أمام الخلق.. أتدري سر ذلك الحي الذي أساء فهم التطور، وانحرف به انحرافا شديدا؟

قلت: ما سره؟

قال: لقد كان في إمكان أهل حي الثبات لو فرقوا بين المبادئ والممارسات في تعاملهم مع القيم أن يجنبوا أهل حي التطور ما حصل لهم، لكنهم لم يفعلوا.. لأنهم ظلوا مصرين على فهم الدين بتلك الصورة التقليدية التي تلقوها من أسلافهم.. وهو ما أحدث تلك الثورة السلبية التي رأيتها.. ولذلك كانوا هم سبب ما حصل لهم.

قلت: لقد ذكرتني بما روي أن رسول الله ﷺ مر على معاذ، وهو يصلي بالناس، وقد افتتح يقرأ بسورة البقرة، فقال له: (أتريد أن تكون فتانا يا معاذ، إذا صليت بالناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، والليل إذا يغشى، واقرأ باسم ربك)[1]

وفي حديث آخر أن رجلا جاء رسول الله فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا، ثم قال: (أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة)[2]

1() مسلم (1/340، رقم 465) ، والنسائى (2/172، رقم 998)

قال: صدق رسول الله ﷺ .. فقد كان أهل ذلك الحي الذي يدعي الورع فتنة للحي الآخر، لأنه صور له الدين بصورة سلبية جعلته ينفر منه.. ولذلك كان ورعهم ورعا باردا، مثل ذلك الذي يبني قصرا، ويهدم مصرا.

***

بقيت مع صاحبي معلم الثبات والتطور مدة في ذلك الحي، أرى كيف يمارس أهله القيم المرتبطة بها.. وأتجول معهم في الحيين المتناقضين لننقذ كل حين بعض الشيوخ أو الشباب.. وقد رأيت من عجائب طرقه في الإنقاذ ما ملأني بالانبهار.. فقد كان مثل ذلك الصياد الماهر الذي يستحيل أن يخطئ صيدة..

وقد تعلمت من صحبته الكثير من فنون الدعوة على بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.. والتي استعملتها بعد ذلك في رحلاتي المختلفة.

وقد وجدت عند استعمالي لها قبولا كبيرا من أولئك الذين كانوا يرفضون ما أدعوهم إليه، لأن رفضهم لم يكن للحقائق التي كنت أذكرها، وإنما للأساليب التي كنت أستعملها.

---

(2) البخارى (1/249، رقم 672) ، ومسلم (1/340، رقم 466)

أسرار الفناء والبقاء

قلت: عـــرفت أســـرار العـــداوة والصـــداقة والســـنن والمقـــادير والثبـــات والتطـــور.. فحـــدثني عن أســـرار الفنـــاء والبقاء.. وعلاقتها بأسرار الحياة.

قال: بعد أن علمت أسرار الثبات والتطور الـذي أودعـه الله في جميع الكائنـات، والـذي تنتقـل بـه من البسـاطة إلى التعقيـد.. ومن السـطحية إلى الأعمـاق.. ومن الجهـل إلى العلم.. تاقت نفسي لمعرفة سر الفنـاء والبقـاء.. ذلـك أنهمـا ركنان أساسيان في الحيـاة.. فالكـل يخشـى الفنـاء، ويهـرب منـه بكـل الطـرق.. والكـل يحب البقـاء، ويسـتعمل لـه كـل الوسائل.

وبمجرد أن خطر هـذا على بـالي، أتـاح اللـه لي وسـائل التعرف عليه من غير أن يكـون لي أي جهـد في ذلـك؛ فاللـه تعالى برحمته جعل لعباده من الآيات ما يعرفون بـه الحقـائق الكبرى، حتى لا يحتجوا عليه بجهلها، أو بصعوبة فهمها.

وقـد كتب اللـه لي أن أتعـرف على هـذه الأسـرار في مقبرة ببلدتي، ذهبت إليها لزيارة قبري صديقين لي توفيا في نفس اليوم، بسبب حادث ألجأهما إلى المستشـفى أيامـا، ثم ما لبثا أن غادرا الحياة.

وقد عجبت إذ وجدت قبريهما متجاورين مع أن المسافة بينهما أثناء الحياة كانت متباعدة جدا، وفي كل شيء.

أما أحدهما، فكان صاحب ثـروة ضـخمة، وكـان مسـرفا على نفسه، يعطيها من الأهواء كل مـا تـرغب فيهـا، فـإذا مـا عوتب على ذلك، أنشد قول الخيام:

هلم حبيبي نترك الهم ونغنم قصير العمر

سنزمع عن ذي الدار بسبعة آلاف من

وكان إذا ما اجتمع مع صـديقنا الثـاني قـال لـه: قبـل أن

تقدم لي نصائحك، اسمع مني هذه المقطوعة:

يقول المتقون غدا على ما كنت في
لذا اخترت الحبيبة لأحشر هكذا بعد

أما الصديق الثاني، فكان تقيا ورعا ممتلئا بكل معاني الزهد والنبل، وكان مخلصا في نصيحته لصديقه الذي كان يعمل معه في نفس الشركة، ثم افترقا بعد أن نال الصديق الأول حظه من الدنيا بصفقة مشبوهة تحول بها من عامل بسيط إلى ثري صاحب مال كثير.

وقد حصلت بينهما بعض الشحناء بسبب ذلك؛ فكلاهما كانا محاسبين في شركة كبيرة، وعرضت على كليهما بعض الرشاوى لتزوير بعض الحسابات؛ فقبل الأول، وأعرض الثاني.

وقد كان من نتائج ذلك أن أصبح الأول في قمة الثراء، بينما بقي الثاني في حياته البسيطة التي تشبه حياة كل الموظفين العاديين.

لست أدري بدقة سبب الحادث، ولا كيف تم، لكني سمعت الكثير يذكر أن الأول هو الذي حاول أن يدهس الثاني بسيارته، بعد أن خاف أن يشي به، وبما قام به من تزويرات، وما نال على ذلك من رشاوى.

وكان من نتائج ذلك أن كليهما أصيب إصابة بليغة، ألجأته إلى المستشفى، ثم مات بعدها.. ليبقى سرهما في طي الكتمان عن كل الجهات.. إلا تلك الجهات المقربة منهما، والتي ذكرت سبب الحادثة.

لست أدري كيف أصابتني غفوة، وأنا بجانب قبرهما، أتذكر تلك الأيام التي جمعتني بهما..

وقد رأيت أثناء تلك الغفوة من المشاهد ما تعلمت منه أسرار الفناء والبقاء.. فقد كانت من الوضوح بحيث شعرت فيها، وكأني أنا بجسدي وروحي ونفسي وكل لطائفي أعيش

ما أراه وأسمعه.

لقد رأيت كلا القبرين.. لكن بصورة مختلفة تمامـا.. أمـا أولهما، وهو قبر ذلك الصديق المسرف على نفسه، فقد كان على هيئة كوخ حقير، محاط بالقاذورات، الـتي تجمعت عليهـا أنواع الحشرات السامة وغير السامة..

وأما الثاني، وقد كان مجاورا له، فقد رأيته بصورة قصـر مـنيف، محـاط بكـل ألـوان الزينـة، وتعبـق من جنباتـه روائح الزهور الزاهية الممتلئة بالجمال.

بينما أنا في دهشتي إذا بالمعلم الـذي كتب لي أن أتعلم أسرار الفناء والبقاء على يديـه، يقـدم إلي، وهـو يقـول: لقـد وصـلتنا رغبتـك في أن تتعـرف على أسـرار الفنـاء والبقـاء.. ولذلك شاء الله أن تراهما بعينيك؛ فليس الخبر كالعيان.

قلت: من أنت.. وكيف عرفت رغبتي في معرفـة هـذين السرين؟

قـال: لا تسـل عن الكيـف.. فـأنت لا تطيقـه.. واعلم أن الله تعالى هو المعلم الأكبر لعباده، ولذلك إن أراد أن يعلمهم شيئا يسر لهم من الأسباب ما يخرجون به من ظلمـة الجهـل إلى نور المعرفة.

قلت: هـل أنت بشـر أم ملاك؟.. ومـا هـذا العـالم الـذي أراه؟.. وفي أي بلاد أنا؟

قـال: لن أجيبـك إلا على مـا أذن لي الإجابـة عليـه، ولن أعلمـك إلا مـا أذن لي في تعليمـك إيـاه.. فلا تسـلني إلا مـا ينفعك.. فلله تعـالى من الشـؤون مـا لا يمكن لأحـد الإحاطـة به.. فسلم لربك تسلم.

قلت: سلمت أمري لله.. فحدثني عن سر هـذا الكـوخ.. والقصر الذي بجانبه.

قال: هذان ثمرتان لبعض أعمـال صـديقيك اللـذين جئت تزورهما.

قلت: اللذان توفيا؟

قال: لم تكن وفاتهما إلا رحلة عن المدينة التي تسكنون فيها إلى هذه المدينة الجديدة التي تراها.. فالله ما خلق خلقه للفناء، وإنما خلقهم للبقاء، ألم تسمع قول الشاعر:

خلق الناس للبقاء أمة يحسبونهم
إنما ينقلون من إلى دار شقوة

قلت: بلى.. وقد سمعت معه القرآن الكريم، وهو يحدثنا عن البقاء.. وأنه مصير كل الخلائق.. لكني أسأل عن هذا الذي أراه.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: 46]؟

قلت: بلى.. وقد سمعت معها قوله تعالى: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ [مريم: 76]

قال: فهذا الكوخ، وذاك القصر كلاهما يمثلان الباقيات الصالحات، والباقيات الموبقات..

قلت: هل تقصد أنهما ثمار للأعمال التي كان يقوم بها صديقاي في الدينا.

قال: بل هي تجسيد لأعمالهما.. فقد كان أحدهما يرسل في كل لحظة حشرة من الحشرات التي تقززت منها، وكان الآخر يرسل في كل لحظة لبنة من لبنات القصر الذي أعجبت به.

قلت: هل تقصد أن مصير ذلك الصديق المسرف على نفسه هو هذا الكوخ، وأن مصير ذلك الصديق المحسن هو هذا القصر؟

قال: لم أقصد هذا.. فأعمالهما أكبر من أن يبنى بها كوخ أو قصر.. إنما هذه بعض أملاكهما..

قلت: ولكن صـــاحب الكـــوخ لا يملـــك إلا الحشـــرات والقاذورات وهذا الكوخ الممتلئ بالآلام..

قال: أجل.. فقد كان بأعماله يقوم ببنائه، وبتوفير كل ما تـراه فيـه من دنس وألم وقـاذورات .. ومـا خفي عن عينيـك أعظم.

قلت: وصاحب القصر.. كيف حصل على كل هذا؟

قال: لقد كان يرسل كل يوم.. بل كل لحظـة .. بـل مـع كل نفس من أنفاسـه من الأعمـال الصـالحة مـا هيـأ لـه هـذا القصر، ومعه قصور وجنات كثيرة.. هو الآن يرتع فيها، ممتلئـا بالسعادة.

قلت: والآخر.. أين هو؟

قال: لقد ذهب قبـل قليـل ليشـاهد شـريطا وثائقيـا عن المصير الذي ينتظره في الآخرة..

قلت: ما تعني؟

قـال: ألم تسـمع قولـه تعـالى عن آل فرعـون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: 46]؟

قلت: بلى.

قال: لقد كان صاحبك يسـير سـيرة آل فرعـون، فلـذلك بمجرد أن رحل من تلك المدينة إلى هذه المدينة، صــار منهم وفيهم.. يعامـــل مثلمـــا يعـــاملون.. وهـــو الآن صـــديق حميم لقارون الذي كان نظيرا له في تلك المدينة، فصار صديقا لــه في هذه المدينة.

قلت: وصديقي الثاني.

قال: هو الآن مع كل الأولياء والأصـفياء والعلمـاء الـذين كان يحبهم في الدنيا.. وقـد ذهب قبـل قليـل مـع رفاقـه إلى سياحة في بعض الحدائق، ليشاهد معهم بعض عجـائب خلــق الله، والتي كان يتوق إلى مثلها في المدينة التي كان يســكن

فيها.

قلت: هل تقصد أن كل ما كان يتوق له في الـدنيا حقـق له هنا؟

قال: أجل.. بل حقق له ما لم يكن يحلم، أو يخطـر على باله.. ألم تسمع قولـه تعـالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]

قلت: بلى، وقد سمعت معها قوله ﷺ: (قال اللّـه تعـالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1] .. ولكن ذلك في جنة المأوى.

قـال: تعـالت رحمـة اللـه وكرمـه أن يخص بالجنـة دون غيرها..

قلت: صدقت.. فإن الله تعـالى وفـر من النعيم الصـالح للصـالحين في الـدنيا، مـا جعلهم يشـعرون أنهم في الجنـة.. ولكن كيف حصل صاحبي الصالح على ذلك؟

قال: لأنه عرف المفـاتيح الـتي يفتح بهـا أبـواب البقـاء.. ولذلك حفظ الله له كل أعمالـه الصـالحة، والـتي شـكلت لـه رصيدا ضخما، هو الآن يتنعم به.

1 ـ الباقيات الموبقات:

بينما كنا مستغرقين في هذا الحـديث، إذا بـالمعلم يغيب عن عيني فجأة، ويحل بدله شخص ممتلئ بالدمامة والـروائح الكريهة، فسألته عنه، فقال: ألا تعرفني.. أنا صديقك فلان؟

قلت: ولكن صديقي مات.

قـال: لقـد كنت مثلـك أظن أن المـوت فنـاء.. لكـني اكتشفت أن الموت ليس إلا رحلة من مدينة إلى مدينة، ومن عالم إلى عالم.. وواحسرتاه على ما جنته يداي.

---

[1] رواه البخاري رقم (4780)

قلت: لكن صديقي كان وسيما صاحب رائحة طيبة.

قال: ذاك جسده الذي كان حجابـا بينـك وبين معرفتـه.. أما ما تراه فهي نفسه الخبيثة الممتلئة بكـل ألـوان الـدنس.. كـل مـا تـراه من دمامـة ليس سـوى أخلاقي وأعمـالي الـتي شكلت منها نفسي في تلك المدينة.

قلت: فكيف وجدت طعم الموت؟

قال: ألم تسمع ما ذكره القرآن عن النازعات.

قلت: بلى.. فقد قال الله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَـاتِ غَرْقًـا (1) وَالنَّاشِـطَاتِ نَشْـطًا﴾ [النازعـات: 1 -ـ 2]، وقـد ذكـر في تفسيرها أنها (الملائكة، حين تنزع أرواح بـني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنـف فتغـرق في نزعهـا، ومنهم من تأخـذ روحـه بسهولة وكأنما حلته من نشاط)[1]

قـال: فقـد كنت أنـا من أولئـك الـذين قبضـت أرواحهم بشدة.. لقد ذكر لي ذلك صاحبي، وحـذرني منـه، لكـني كنت أسخر منه، لقد تلا علي حينها بعض آيات من القرآن تذكر مـا تفعله الملائكة بأصحاب النفـوس الخبيثـة.. لكـني لا أذكـر مـا قرأه، ولا أستطيع.

قلت: لعله كان يقـرأ عليـك قولـه تعـالى: ﴿وَلَـوْ تَـرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَـرَاتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلَائِكَـةُ بَاسِـطُو أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَـا كُنْتُمْ تَقُولُـونَ عَلَى الله غَيْـرَ الْحَـقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِـهِ تَسْـتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَـدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَـا خَلَقْنَـاكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَتَـرَكْتُمْ مَـا خَوَّلْنَـاكُمْ وَرَاءَ ظُهُـورِكُمْ وَمَـا نَـرَى مَعَكُمْ شُـفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُـونَ (94)﴾ [الأنعام: 93، 94]

قال: أجـل.. كـان يقـرأ علي هـذه الآيـات، وكنت أسـخر منها ومنه.. لكني اكتشفتها ورأيتها بحقيقـة عيـني.. لقـد كنت

---

[1] تفسير ابن كثير (8/ 312)

أطالبه بدليل حسي على ما يقوله، وكان حينها يقرأ علي آيات أخرى.. لا أذكرها، ولا أستطيع أن أنطق بها.

قلت: لعله كان يقرأ عليك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22)﴾ [الفرقان: 21 - 23]

قال: أجل.. فهذه الآيات تنطبق علي تماما؛ فأنا مذ رأيت أولئك الملائكة الذين قدموا علي في تلك اللحظات القصيرة قبل موتي، وأنا لا أرى طعم الراحة.

قلت: فقد تألمت إذن عند قبض روحك؟

قال: وكيف لا أتألم.. وقد ذكر لي حينها المصير الذي سأصير إليه.

قلت: أجل.. لقد أخبر الله تعالى أن الموتى يعرفون مصيرهم قبل موتهم، قال تعالى مخبرا عن ساعة الاحتضار: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: 83 ـ 94].. فهل عاينت كل هذا؟

قال: لا .. أنا لم أعاين سوى ما عاينه أمثالي من المكذبين الضالين.

قلت: ولكنك كنت مسلما، وعشت في بلاد المسلمين.. وكل أجدادك مسلمون، ويحملون أسماء إسلامية.. بل إن بعضهم يذكر أن أسرتكم من الأسر الطيبة التي لها تاريخ كبير في الصلاح.

قال: أنت لا تعرف قوانين هذا العالم الذي أعيشه.. فهو عـالم لا يغـني فيـه اسـم ولا نسـب ولا حسـب .. ولا آبـاء ولا أجداد.. لا يغني فيه إلا العمل الصالح.

قلت: فكيف أجبت الملائكة حين سـألوك؟.. لاشـك أنـك أجبتهم بمـا حفظنـاه في دروس التربيـة الإسـلامية.. وبمـا سـمعناه في المسـاجد ودروس الوعـظ، فقـد كنت تقلـدها، وتحفظ الكثير منها.

قال: لقد كنت أحفظها في ذاكرة جسـدي، لا في ذاكـرة روحي.. ولـذلك سـرعان مـا ارتبكت حين سـئلت.. فلم أجـد نفسي إلا وأنا أقول لملائكة ربي: ها ها .. لا أدري..

ثم تـرجيت أن يـتركوا لي الفرصـة لأتـذكر.. لكـني لم أسـتطع، فقـد غـابت عـني حينهـا كـل الحقـائق الـتي كنت أحفظها..

قلت: ولكن .. لم؟

قال: لأني كنت أحفظهـا، ولا أؤمن بهـا.. أو كـان إيمـاني بها لا يتجاوز حنجرتي.. بل كنت أحيانا أسخر منها.

قلت: كيف ذلك.. لم أكن أعلم ذلك.

قال: لم أكن غبيـا حـتى أخـبر النـاس بـذلك.. لأني كنت أجد مصالحي في الإيمان الذي عليه قومي.. لكن قلـبي كـان مستغرقا في الدنيا، لا يرى سـواها.. ولـولا ذلـك مـا شـاركت في تلك الصفقة المشؤومة التي بعت بها كـل مـا عنـدي من بذور الخير، لأشتري بها هذا الكوخ الذي تراه.

قلت: أهذا الكوخ هو ثمن تلك الصفقة؟

قال: أجـل.. لقـد جسـد اللـه لي عملي في هـذا الكـوخ المشؤوم الذي تراه.

قلت: لا بـأس .. فمـا أكـثر الـذين كـانوا يعيشـون في الأكواخ في الدنيا.

قال: أنت لا تعرفه.. هذا ليس مثل الأكواخ التي تعرفها.. إنه كوخ عاقـل مثـل كـل شـيء تـراه..فكلمـا أويت إليـه راح يضـيق علي، ويجمـع لي كـل أصـناف الحشـرات والعقـارب والحيـات، ثم يخـاطبني بكـل مـا يملـؤني بالأسـى والاكتئـاب والإحباط.

قلت: فقد ندمت على تلك الصفقة إذن.

قـال: ولات سـاعة منـدم.. لقـد تمـنيت أن تسـوي بي الأرض، أو أتحول إلى تراب، ولا أكون أجريتها.

قلت: فما سر الحشرات التي أراها؟

قال: ويلك هل هذه حشرات .. هذه أسود وسباع وحيات وعقارب.

قلت: لكني أراها حشرات..

قـال: أنت تراهـا كـذلك.. لأنـك لم تعـاين أفعالهـا في جسدك، ولو عاينتها لعرفت أنه لو اجتمعت جميع سباع الـدنيا وحياتها وعقاربها ما عادلت واحدة منها.

قلت: فهل أنت الذي صنعتها؟

قال: أجل.. لقد كنت في الدنيا أتفنن في صناعة الحيات والعقـارب.. كنت أكـذب وأغش وأحسـد وأمشـي بين النـاس بالنميمة.. وكل تلـك الصـفات تجسـدت لي فيمـا تـراه.. ومـا خفي أعظم.. لقــد شــاهدت اليــوم ككــل يــوم بعض ألــوان العذاب المعدة لي، فامتلأت رعبا.

قلت: إلى متى يظل هذا حالك؟

قال: لا أظن أنني سأخرج من هذه الحال أبدا، فجرائمي كثيرة، وآخرها جريمة قتلي لصديقي الذي قضـى كـل عمـره ينصحني، لكـني كنت مسـتكبرا عن نصـيحته.. وهـا أنت تـرى مصيري.

قلت: هو الآن جارك.. فهل تراه يزورك؟

قال: وكيف يكـون جـاري.. وقـد سـمعت أنـه حشـر مـع الشهداء.

قلت: لكن قصره بجانب كوخك.

قال: أي قصر هذا.. أنا لا أرى أمامي أي قصر.

قلت: ها هو .. حدق ببصرك جيدا لتراه.

قال: أنت تقول ذلك، لأنك لا تعرف قوانين هذا العـالم.. فهو ليس كعالمنا نشترك فيه في رؤية الأشـياء أو الإحسـاس بها.. نحن هنا في عالم العدالة المطلقة.. فلا يـرى أحـد شـيئا أو لا يحس بشيء إلا بحسب ما قدمه من عمل.

قلت: فهل تركت في أهلك من يرسل لـك بعض الهـدايا الصالحة التي قد تنقذك من هذه الحال.

قـال: بـل تـركت فيهم من يرسـل لي كـل حين أنـواع البلاء.. فآثار أعمالي لا تزال في ذلك العالم تملـؤه بالأسـى.. لقـد علمت أولادي جميعـا فنـون الاحتيـال واللصوصـية، وهم الآن يمارسونها، وأنـا أتحمـل كـل أوزارهم من غـير أن ينقص من أوزارهم شيئا.

قلت: لعلك أعنت من قد يرسل لك بعض الدعوات.

قال: وما عسى دعواته تفعل لي.. وخصومي لا يعدون.. وآثار أعمالي لا يمكن إحصاؤها.

2 ـ الباقيات الصالحات:

ما إن وصل من حديثه إلى هذا الموضع حتى غاب عـني هو الآخر، بل تلاشى، وحـل بدلـه شـخص آخـر ممتلئ جمـالا، وتنبعث منه روائح طيبة، ما إن رأيته حتى توهمت أنه يوسـف عليه السلام، وكدت أقول ما قال النسوة عنه: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31]

قلت، وأنـا منـدهش ممـا أرى: من أنت.. هـل أنت من ملائكة الله، أم أحد النبيين أو الصديقين والصالحين؟

قال: بل أنا صديقك فلان.

قلت: لم أرك في حياتي بهذا الجمال أبدا.. بل كان الكل يصفونك بالدمامة، ويعيرونك بها.

قال: كانوا ينظرون إلى جسدي.. والذي لم يكن سوى قناع ابتلاني الله به، وابتلاهم به.. لنكشف من خلاله عن حقائقنا.

قلت: لكني كنت أراك راضيا، بل كنت دائم البشر والابتسامة.

قال: لأني لم أكن أنظر إلى جسدي، وإنما كنت أنظر إلى حقيقتي، وأحمد الله تعالى على أن زين نفسي بالفضائل.. أما جسدي فكنت أراه كما أرى سائر الأشياء، مجرد واجهة ألبسها لمدة محدودة، ثم سرعان ما أتركها.

قلت: صدقت.. فالأخلاق هي الصورة الحقيقية للإنسان.. وأما الجسد فليس سوى قناع عن تلك الحقيقة.

قال: لا أستطيع مهما قلت أن أصف نعم الله علي.. مذ دهستني تلك السيارة.

قلت: ألم تشعر بألم الدهس؟

قال: وكيف أشعر به.. وقد كتبني الله بفضله من الشهداء، ألم تسمع قوله ﷺ، وهو يصف ميتتهم.. فقد قال: (ما يجد الشهيد من مس القتل، إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1]

قلت: بلى.. فأخبرني .. كيف واجهت الملائكة عليهم السلام لأول مرة.. ألم يصبك الفزع؟

قال: وكيف يصيبني الفزع، وأنا في كل حياتي كنت مصاحبا لهم، مشتاقا للالتقاء بهم.. وقد شرفني الله تعالى

1() رواه أحمد (7953)، والترمذي (1668)، والنسائي (3161)، وابن ماجة (2802)، وابن حبان (4655)، والبيهقي (18525)

بـذلك.. آه يـا صـديقي العزيـز لـو رأيت جمـالهم ولطفهم وأنوارهم، إنها وحدها كافية لتمسح عنك كل الآلام.

قلت: فهل حدثتهم؟

قال: وكيف لا أحدثهم.. لقـد تعـاملوا معي بكـل لطـف.. وقد رأيت كل ما ذكره ربي من أنوار وروح وريحـان.. وأنـواع الجمال التي لا يمكنني أن أعبر عنها.. فاللغة التي كنا نتحدث بها لا يمكنها أن تصف هذا العالم الذي نعيشه.

قلت: أنت تسكن الآن في هذا القصر؟

قال: هذا مجرد قصر واحد من قصوري.. وأنا أتردد إليـه أحيانا.. لكني معظم أوقاتي أقف أمام باب الجنة لأشاهد فيها (ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطـر على قلب بشـر)[1]

قلت: لقد سمعت في بعض الأحـاديث أن أرواحكم (في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل)[2]

قال: الله أكرم من أن يضع أرواحنا في جـوف الطيـور.. بل نحن نسرح في الجنة بخلقتنا التي خلقنا الله عليها، والتي تراها الآن.

قلت: أجل.. لقد ذكرتني بمقولـة للإمـام الصـادق يقـول فيها لمن سأله عن أرواح المؤمنين في الجنـة: (في حجـرات في الجنــة يــأكلون من طعامهــا، ويشــربون من شــرابها، ويقولون ربّنا أقم لنا الساعة، وانجـز لنـا مـا وعـدتنا)، وسـئل عن أرواح المشركين، فقال: (في النار يعذبون، ويقولون ربّنا لا تقم لنا الساعة ولا تنجز لنا ما وعدتنا)[3]

---

[1] رواه البخاري رقم (4780)

[2] مسلم (1887)

وروي أنـه قيـل لـه: (جعلت فـداك يـروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العـرش)، فقـال: (لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير، لكن في أبـدان كأبـدانهم)[1]، وفي روايـة: (فـإذا قبضـه اللـه عزّوجلّ صيّر تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيـأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصـورة الـتي كانت في الدنيا)[2]

قال: أجل.. وقد ذكر القرآن الكريم ذلك، بـل صـرح بـه، فقد قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللـه مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ([آل عمران: 169، 170]

قلت: إن هذه الآية الكريمـة تشـير إلى معـرفتكم بأهـل الدنيا.

قال: أجل.. نحن نطلع على كل شيء يحصل فيها، مثلما تطلعون أنتم في وسائل الإعلام على كل ما يحصل في أنحاء العالم.

قلت: ولكنا قد نشارك بآرائنا ومواقفنا.. وربما بأعمالنا.. وقد عزلتم أنتم عن ذلك.

قـال: نحن مختلفـون في ذلـك.. منـا من يكتفي بمـا ذكرت.. ومنهم من يتاح له المشاركة.

قلت: كيف؟

قال: ذلك غيب لا يمكنـني أن أشـرحه لـك.. ولكن اعلم

3() بحار الأنوار: 6/ 269.

1() بحار الأنوار: 6/ 268..

2() بحار الأنوار: 6/ 270..

بأن من جزاء المؤمن أن الله تعالى يكافئة نتيجة زهده في الدنيا وورعه فيها بأن يعطيه كليهما.

قلت: لا أكاد أفهم هذا.

قال: نحن هنا لا نرى إلا الأعمال.. فكل عمل من الأعمال له جزاؤه الخاص المناسب له.. ولذلك لا يمكنك أن تعد أنواع الجزاء، هي تشمل كل ما يخطر على بالك، وما لا يخطر على بالك.

قلت: ألست تشتاق إلى أهلك؟

قال: وكيف أشتاق إليهم، وأنا أراهم كلما خطروا على بالي.. أتنقل إليهم متى أشاء، وقد يتاح لي أن أتدخل في حياتهم بما ينفعهم.

قلت: لم أفهم..كيف ذلك؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 82]؟

قلت: بلى.. وقد ذكر الله تعالى فيها كيف ذهب الخضر وموسى عليهما السلام لخدمة ذينك الولدين بسبب أبيهما الصالح.

قال: فنحن كذلك قد ندعو بعض الصالحين ليفعل بأسرنا ما فعله الخضر وموسى عليهما السلام.

قلت: كنت أظن أن ذلك خاص بهما.

قال: معاذ الله .. فرحمة الله وكرمه أوسع من أن تشمل من عباده شخصا واحدا، ثم تضيق بغيره.

قلت: أخبرني عن هذا القصر.. ما هو العمل الذي عملته حتى نلته؟

قال: خدمات بسيطة قدمتها لبعض الناس.. وقد دعا لي

أحدهم بأن يرزقني الله قصرا في الجنـة بسـبب ذلـك، وهـذا القصر بني في تلك اللحظة التي دعا لي فيها هذا الدعاء.

قلت: كنت أحسبه جزاء خاصا بتلك التضحية الـتي قمت بها في الشركة التي كنت تعمل فيها.

قال: جزاء تلك التضحية لا يمكنك تصوره.. لقد أعطـاني الله به فضلا عظيما بغير حساب..

قلت: هل تتمنى أن ترجع للدنيا؟

قـال: أجـل.. بمجـرد أن رأيت مـا رأيت من فضـل اللـه تمنيت أن أرجع للدنيا.

قلت: ويلك .. أتريد أن أقول لك ما قال الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]

قال: ألم تسمع قوله ﷺ: (ما من نفس تمـوت لهـا عنـد اللّه خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشـهيد، فإنـه يسـره أن يرجع إلى الـدنيا فيقتـل مـرة أخـرى ممـا يـرى من فضـل الشهادة)[1]

قلت: بلى.. وقـد سـمعت معهـا قولـه ﷺ لجـابر عنـد استشـهاد أبيـه: (أعلمت أن اللّـه أحيـا أبـاك فقـال لـه: تمنَّ، فقال له: أردُّ إلى الـدنيا فأقتـل فيـك مـرة اخـرى، قـال: إني قضيت أنهم إليهـا لا يرجعـون)[2] ، وسـمعت معهـا قولـه ﷺ: (والذي نفسي بيده لولا أن رجالا يكرهـون أن يتخلفـوا بعـدي ولا أجد ما أحملهم ما تخلفت لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل)[3]

1() البخارى (3/1029، رقم 2642) ، ومسلم (3/1498، رقم 1877)

2() أبو نعيم فى الحلية (2/4)

3() النسائى (6/20، رقم 3132) ، وابن عساكر (52/135)

قلت: فهل تأكلون وتشربون .. ؟

قال: نحن نمارس حياتنا بكل معانيها.. فنأكل ونشرب ونلبس ونتجول.. ونسيح في ملكوت الله.. ونصحب أولياء الله.

قلت: فهل تتذوقون اللذات مثلما نتذوقها نحن أهل الدنيا؟

قال: لا.. لا يمكن ذلك.

قلت: كيف.. كنت أحسبكم تتلذذون مثلنا.

قال: كل لذات الدنيا منغصة ومكدرة ومملوءة بالشوائب.. أما نحن فلذاتنا خالصة صافية، ليس فيها شائبة.. ونحن نتلذذ بجميع كياننا، لا ببعض أجسامنا مثلما كنا في الدنيا.

قلت: أكل هذا تجسد لأعمالكم؟

قال: أجل.. فمن وهب كل حياته لله.. وهبه الله كل شيء.

قلت: هلا أدخلتني هذا القصر، وقدمت لي بعض الطعام، مثلما كنت تستضيفني في الدنيا..

***

ما قلت هذا حتى استيقظت من تلك الغفوة، وقد كان عجبي شديدا حين لقيت ذلك الذي سميته معلما أثناء غفوتي، يقف بجانبي، وهو يقول لي مبتسما: ليس الآن.. الآن دورك أن تعمل.. أما الجزاء، فقد ادخره الله لك في تلك الدار.. فأرسل من أعمالك الصالحة ما ستجده هناك، فالله لا يضيع عنده شيء.

قلت: من أنت.. هل أنت من الإنس أم من الجن.. من البشر أم من الملائكة؟

قال: ألا تزال تسأل هذه الأسئلة.. ألم يخلق ربك غير

الإنس والجن والملائكة؟

قلت: فهل أنت خلق آخر من خلق الله؟

قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: 31]

قلت: ما الذي حصل لي، وكيف دخلت معي في غفوتي؟

قال: لم تكن تلك غفوة.. ولم يكن ذلك نوم.. بل كنت ترى الحقائق التي طلبتها.. ألم تطلب أن ترى أسرار الفناء والبقاء.

قلت: بلى.. وقد كنت أتصور أني أحتاج لرحلة طويلة لأتعرف على أسرارها.

قال: لقد علم الله تعالى صدقك، فلذلك أرسلني إليك لأريك هذه الحقائق رأي العين.. فلا يمكن لأسرار الفناء والبقاء أن تشرح بأحسن من رؤيتها رأي العين.

قلت: عــرفت أســرار العــداوة والصــداقة والســنن والمقـادير والثبـات والتطـور والفنـاء والبقـاء.. فحـدثني عن أسرار السعادة والشقاء.. وعلاقتها بأسرار الحياة.

قـال: بعـد أن علمت علم اليقين بـأن اللـه قـدر لهـذه الحياة عمرا أطول بكثير من كل تصـور.. بـل عمـرا لا يطيـق الخيــال أن يجســمه أو يصــوره أو يحســبه.. فلــذلك يكتفي المنطق الرياضي بالتعبير عنه بكونه (ما لا نهاية)

بعد أن علمت هذه الحقيقـة العظيمـة.. رحت أبحث عن أهم سر من أسرار الحياة، وهو سر السعادة والشـقاء.. لقـد قلت لنفسي: نعم.. الخلود جميل ولذيذ.. لكنه لا يكون كـذلك إلا إذا كان مصحوبا بالسـعادة.. أمـا إذا صـحبه الشـقاء والألم والكآبة؛ فإن الموت أفضل منه.

وعندما جادلتني نفسي المحبة للحياة في هذا قلت لهـا: ألا تــرين المنتحــرين الكثــيرين.. لقــد وضــعوا نفوســهم بين الشقاء والموت، فاختاروا الموت على الشقاء؟

عنــدما علمت هــذا ســحت في الأرض، ولقيت أقوامــا كثــيرين منهم العــامي البســيط.. ومنهم المفكــر العبقــري.. ومنهم المشــتهر بين النــاس.. ومنهم الخامــل بينهم.. وقــد اكتشــفت من صــحبتي لهم الكثــير من أســرار الســعادة والشقاء.. وسأنقل لك بعض المشاهد الـتي عشـتها، ورأيتهـا، لتكتشف بنفسك تلك الأسرار.

قلت: فلم لا تحدثني عنها جميعا؟

قال: ألم تسمع قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُـصْ عَلَيْـكَ ﴾ [غافر: 78]؟

قلت: بلى .. فما تقصد منها؟

قال: لقد اكتفى الله تعالى لتعريف الأدوار التي قام بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، والحقائق والقيم التي دعوا إليها بذكره لعدد محدود منهم.. حتى لا ينشغل قراء القرآن الكريم بالقصص عن العبرة.

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. فالقرآن الكريم يكتفي بالنماذج والأمثلة ليعبر منها العابرون إلى الحقائق الكبرى..

قال: ولذلك سنستن بسنة القرآن الكريم في ضرب الأمثال لتكون عبرة للمعتبرين.. وسأكتفي لك بأربعة مشاهد منها.

المشهد الأول:

قلت: فحدثني عن المشهد الأول من المشاهد التي اكتشفت بها أسرار السعادة والشقاء.

قال: لقد كان أول مشهد رأيته، مشهدا ملأني بالأسى، فقد كنت أسير في شارع من شوارع الأرجنتين الفقيرة، وهناك التقيت امرأة منبطحة على الأرض[1].. تكاد تلقي بآخر أنفاسها.. فأسرعت إليها، وطلبت منها أن أرسل إلى الإسعاف.. لكنها رفضت، وقالت لي: لا.. لا داعي للإسعاف.. لم يبق لي من الحياة إلا هذه الكلمات التي سأسمعك إياها.. وأخاف أن أموت بحسرة لا نظير لها لو أني لم أسمعك إياها.

قلت: أنت تعرفينني إذن؟

قالت: أنت الذي تبحث عن أسرار السعادة والشقاء؟

قلت: أجل.. وقد بذلت جهدا طويلا في ذلك.

قالت: وأنا (كرستينا أوناسيس)..

تفاجأت من هول ما ذكرت، وقلت: كرستينا أوناسيس!؟.. ابنة المليونير المشهور (أوناسيس) ذلك الذي

---

[1] () أنبه هنا إلى أن القصة حقيقية.. لكني تصرفت في بعضها بما يقتضيه المقام.

يملك المليارات.. ويملك معها الجزر.. والأساطيل؟

قالت: أجل.. لقد مات أبي.. وقبله مـاتت أمي.. وبينهمـا مـات أخي.. وبقيت الوارثـة الوحيـدة مـع زوجـة أبي لهـذه الثروات الطائلة.. أتـدري ــ أيهـا البـاحث عن السـعادة ــ كم ورثت؟

قلت: أعلم أنك من عائلة غنية جدا..

قـالت: لقـد ورثت من أبي مـا يزيـد على خمسـة آلاف مليـون ريـال.. وورثت أسـطولا بحريـا ضـخما.. وورثت جـزرا كاملة.. وورثت شركات طيران.. لكني مـع ذلـك كلـه لم أذق طعم السعادة لحظة في هذه الحياة..

لقد عشت حياة ممتلئة بالشقاء.. أمـا أمي.. فقـد مـاتت بعد حياة مأساوية، كان آخر فصولها الطلاق.. وأما أخي.. فقد هلك بعدما سقطت بـه طائرتـه، الـتي كـان يلعب بهـا.. وأمـا أبي.. فقـد اختلـف مـع زوجتـه الجديـدة الـتي هي (جـاكلين كنـدي).. وقـد اختـار لشـقاوته أن يـتزوج زوجـة الـرئيس الأمريكي السابق (كندي).. لتجعله رغم غناه عبـدا لهـا.. لقـد صرف عليها ملايين الدولارات.. لا لشـيء إلا لأجـل أن يقـال: إنه تزوج بزوجة الرئيس الأمريكي (جـون كنـدي)، ومـع ذلـك فقد عاش معها في شقاء دائم.. لقد كـان عبـدا لهـا بكـل مـا تحمله هذه الكلمة من معان.

بعد أن يئست من أن أجد السعادة في المال بحثت عنها في الرجال.. لقد تصورت أني إن تزوجت سـأعيش السـعادة التي كانت حلمي الأكبر..

في حياة أبي تـزوجت برجـل أمـريكي.. لكـني لم أعش معه إلا شهورا، ثم طلقته.. أو طلقني.. ثم تزوجت برجل من أهـل بلـدي.. يونـاني.. لكن الآخـر لم يكن أحسـن حظـا من الأول.. فلم أعش معه إلا شهورا، ثم طلقته.. أو طلقـني.. ثم تزوجت شيوعيا روسيا.. وقد التقت بزواجنا قمـة الرأسـمالية مع قمة الشيوعية.. أذكر أن الصحفيين سألوني حينها قائلين: أنت تمثلين الرأسـمالية، فكيـف تـتزوجين بشـيوعي؟.. قلت

لهم: أنا أبحث عن السعادة.. ولا يهمني أن أجدها عند رأسمالي أو عند شيوعي.

لقد ذهبت معه إلى روسيا، وبما أن النظام هناك ــ في ذلك الحين ـ لا يسمح بامتلاك أكثر من غرفتين، ولا يسمح بخادمة، فقد جلست أخدم في بيتي، بل في غرفتي.

جاء الصحفيون الذي يتابعونني في كل مكان يسألونني: كيف يكون هذا؟.. فقلت لهم: أبحث عن السعادة.. لكني مع كل هذه التضحيات لم أجد السعادة التي كنت أبحث عنها.. فطلقته كما طلقت من قبله.

لقد أقيمت ـ بتلك المناسبة ـ حفلة في فرنسا، وسألني الصحفيون: هل أنت أغنى امرأة؟.. فقلت: نعم.. أنا أغنى امرأة، ولكني أشقى امرأة..

وهكذا بقيت الحياة تتقلب بي من شقاء إلى شقاء.. ومن ألم إلى ألم إلى أن بعثت بي إلى هذا المحل الذي تراني فيه.. وها أنت تراني أموت بحسرتي وشقائي.. ولم أرتشف طيلة حياتي إلا زخارف من السعادة الوهمية التي لم تزدني ذكراها إلا آلاما.

قالت ذلك، ثم لفظت آخر أنفاسها.. قمت بما وجب علي من تجهيزات.. ورحت أواصل بحثي عن السعادة.

المشهد الثاني:

قلت: لقد آلمني كثيرا هذا المشهد، فحدثني عن مشهد أرق منه وألين.

قال: لك ذلك .. لقد عاينت هذا المشهد في بقعة من بقاع الأرض لم يكن فيها من الحياة إلا اسم الحياة.. ولولا أني وجدت خيمة هناك وأمامها بعض الجمال لسرى إلى ذهني أني في المريخ أو في أي كوكب من تلك الكواكب التي لا وجود فيها لأي أثر من آثار الحياة.

كان الجو كئيبا.. وكان الحر شديدا.. وكان الماء

شحيحا.. وكان الطعام قليلا.. وكان الكلأ الذي تأكل منه تلك الجمال ليس إلا أشواكا قاسية كقساوة الطبيعة التي تحيط بها.. ومع ذلك، فقد شاء الله أن أكتشف في هذا المحل السر الأول من أسرار السعادة.

فبعد أن أصابني الإعياء في تلك الصحراء.. وأخذ مني الجوع والعطش كل مأخذ سرت إلى تلك الخيمة المنفردة المنعزلة الممتلئة في ظاهرها بالكآبة..

وقفت بعيدا عنها.. وأنا متردد في المناداة على صاحبها خشية أن يرميني بسهم من سهامه.. أو خشية أن يأتي بسكينه ليجعلني طعاما لعشائه.. لكني.. ولفرط جوعي وعطشي في تلك الصحراء لم أجد إلا أن أناديه.. ليسقيني ويطعمني.. ولا يهمني بعدها ما يصيبني من سهامه أو من سكينه..

لقد كاد الجوع والعطش يفني جسدي.. ويملؤه بالشقاء..

لقد أثرت تلك القساوة على عقلي.. فلم يعد يستطيع أن يفكر في شيء.. فكلما أراد شيئا ارتسمت صورة المياه وصورة الخبز في مخيلته، فحجبته عن كل فكرة.

في تلك الحال القاسية خرج إلي الرجل صاحب الخيمة.. فلاحظت صورة لا تختلف عن صورة تلك الصحراء.. كانت صورة دميمة بشعة.. قد أثرت فيها تلك الأجواء، فلم تعد تختلف عنها..

لكن قلب الرجل وعقله كانا مختلفين تماما..

لقد أسرع إلي، وأخذ بيدي.. وحملني إلى خيمته.. وقدم لي ما استطاع تقديمه من ماء وطعام.. كانا لا يختلفان في قساوتهما عن تلك الأجواء جميعا..

بعد أن ارتدت إلي روحي نظرت إليه، وقلت: ما مكوثك في هذه البلاد.. إنها بلاد الموت، لا بلاد الحياة؟

ابتسم، وقال: أحيانا تكون بلاد الموت أسعد من بلاد الحياة..

قلت: هذا لا يمكن.. بلاد الموت لا سعادة فيها.. ولا يمكن مقارنتها ببلاد الحياة.

قال: لقد فررت من تلك البلاد التي تسميها بلاد الحياة إلى هذه البلاد التي تسميها بلاد الموت.

قلت: أمجنون أنت.. من أوقعك في هذا الفخ؟

قال: إن كان هذا فخا.. فديني هو الذي أوقعني فيه..

قلت: هذا دين سوء.. فاتركه إلى دين الحياة.. فلا خير في دين يبعث بك إلى الموت.

قال: أنا رجل مسلم..

قاطعته قائلا: مسلم.. وتقول هذا.. لا شك أنك تحمل فهما خاطئا للإسلام.. فالله تعالى يقول :﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:32)

قال: وهو القائل :﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف: 46)

قلت: لا تعارض بين هذا وذاك.. فيمكنك أن تذكر الله وتعيش مع الله وأنت في بلاد الحياة لا في بلاد الموت.

قال: فقد قال الله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء:97)

قلت: وما علاقة هذه الآية بما نحن فيه؟

قال: هذه الآية تخاطبني.. هذه الآية هي التي حركتني

إلى هذه الأرض.. لقد كنت رجلا صاحب مـال ومتـاع وقصـور وجنات.. ولكني كنت مـع ذلـك ممتلئـا بالشـقاء.. جـربت كـل المـذاهب والأديـان بحثـا عن السـعادة، فلم أجـدها.. وعنـدما بحثت في الإسلام وجدت كـل شـيء.. وجـدت كـل مـا أبحث عنه.. لكـني مـا إن أعلنت إسـلامي حـتى راح ذلـك المسـتبد يتهمــني بأبشــع التهم.. ثم راح يصــادر أمــوالي وقصــوري وجنــاتي.. وليتــه اكتفى بــه.. بــل راح يــراودني عن ديــني، ويخـيرني بينـه وبين النفي إلى هـذه الأرض.. فـاخترت النفي إلى هذه الأرض عن أن أبيع ديني الذي لا تتحقـق سـعادتي إلا به.

قلت: أنت تذكرني بمشهد ذكـره القـرآن الكـريم لبعض المؤمـنين الـذين تعرضـوا لمسـاومات في دينهم، فاختـاروا دينهم.

قال: تقصد قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [البقرة: 207]

قلت: أجل.. فهذه الآية الكريمة تتحدث عن شخص فعل مثلما فعلت تماما.

قـال: بـل هي تتحـدث عـني وعنـه وعن كـل من فعـل فعله.. فلا تحصر القرآن في التاريخ.. فالزمن أضـعف من أن يحيط بحقائقه.

قلت: صدقت.. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت: 53]، فقد تركت هذه الآيـة الكريمـة التـاريخ جميعا مجالا لفهم حقائق القرآن الكريم.

قال: لقد كان أول ما طرق سمعي من القرآن الكـريم ـ قبل إسلامي ـ تلك الآية الكريمة.. فرحت أتساءل متعجبا عن هذا الدين الذي يضحي من أجله صاحبه بنفسـه ومالـه.. وقـد كنت صادقا في سؤالي، فهداني الله إلى الإسلام..

قلت: ما الذي حركك في تلك الآية؟

قال: لقد ذكرت لك أني كنت صاحب مال ومتاع.. وكنت مغرما بالـدنيا غرامـا عجيبـا.. ولكـني مـع ذلـك كنت ممتلئـا بالحزن والكآبة..

فقد كنت أنظر بحسـرة لمغيب كـل شـمس.. لأني أعلم أنها بغيابها أقترب خطـوة إلى القـبر.. ثم إلى العـدم بعـدها.. وكان ذلك ينغص علي كل شيء..

لكـني مـا إن أن سـمعت تلـك الآيـات.. وتـأملت تلـك المعاني العظيمة الـتي تحملهـا.. حـتى رحت أبحث وأسـتيقن عن مدى صدق هذه الدعوى العظيمـة.. دعـوى أنـه يمكن أن تكون هناك سعادة لا تعـرف المـوت ولا المـرض ولا الألم ولا الكدورة..

وقد وجدت ـ بحمد الله ـ من رجال اللـه من دلـني على ذلك..

بقيت عنـده أيامـا أتـزود من أسـرار السـعادة مـا ملأني بالعجب.. فالرجل، وعلى الرغم من شظف العيش الذي كان يعانيـه إلا أن حياتـه الحقيقيـة كـانت خاليـة تمامـا من كـل الكدورات، ذلـك أنـه كـان يعيش بجسـده في تلـك الصـحراء القاحلة، بينما كانت روحه تعيش في المصير الذي طلـق كـل شيء من أجله.

المشهد الثالث:

قلت: مـا أجمـل هـذا المشـهد.. فحـدثني عن المشـهد الثالث.

قـال: لقـد حصـل لي ذلـك المشـهد في بعلبـك.. ففيهـا لقيت رجلا في صـلاة المغـرب في بعض مسـاجدها.. عـرفت بعـد ذلـك أن اسـمه (شـداد).. وكـان كأنـه (شـداد بن أوس)[1]

[1] أشير به إلى شداد بن أوس، وقد كان من صحابة رسول اللـه ﷺ، وكـان لـه عبادة واجتهاد.. وقد اخترناه هنا لما روي عنه من الروايات الدالة على اجتهاده بسبب خوفه من عذاب الله.. ومما يروى في ذلك عنه أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول : (اللهم ان النار اذهبت مني النوم، فيقوم فيصـلي حـتى يصبح)، ووصفه بعضهم، فقـال : (كـان شـداد بن أوس إذا أوى إلى فراشـه كـان حبـة

الحقيقي.. ذلك الصحابي الجليل الذي امتلأ قلبه خشية من الله.

وقف يصلي بجانبي في الصف.. وقرأ الإمام حينها قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]

شعرت بجسمه يرتعش جميعا.. وكأنه كما قال الشاعر:

وإنى لتعرونى لذاكراك هزة   كما انتفض العصفور بلله القطر

قرأ الإمام في الركعة الثانية قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: 58]، فشعرت بجسمه يزداد ارتعاشا.. وبدموعه، وهي تفيض من غير حساب..

عندما انتهينا من الصلاة نظرت إليه.. فوجدته هائما مستغرقا، وكأنه ينظر إلى شيء لا أراه، أو يستمع إلى شيء لا أسمع له.

في ذلك الحين خطر على بالي أن أتبعه لأرى حقيقته.. فقد شعرت بأن لديه من أسرار الحياة ما يمكن أن ينفعني الله به..

انتظرت إلى أن أنهى أذكاره.. وصلاته.. وما أجمل صلاته، وما أرقها..

بعد أن انتهى منها جميعا ذهبت إليه، وقلت له: أنا رجل قد انقطعت بي السبل في هذه البلاد، فإن شئت دللتني على مطعم أتقوت منه.. أو فندق أبيت فيه..

افتر ثغره عن ابتسامة عذبة تخفي ألما دفينا، وقال: أولا أدلك على ما هو أفضل من ذلك؟

قلت: وما هو؟

على مقلى فيقول: اللهم ان النار قد اسهرتني ثم يقوم إلى الصلاة)

قال: تذهب معي إلى بيتي، فتأكل معي من فضل اللـه.. وتبيت معي في كنف الله.

قلت: لا يسرني إلا ذلك..

ذهبت معـه إلى بيتـه.. وقـد كـان بيتـا متواضـعا.. ولكنـه يفيض بكل معاني الجمال..

استقبلنا بعض ولده.. وقدموا لنا طعامـا طيبـا.. فأكلنـا.. وبينما نحن كذلك إذ طرق طارق الباب، فأسرع إليه، وأدخلـه معي إلى البيت.. كان الرجل يلبس بذلـة محترمـة تـدل على أن له منصبا مرموقا.. وقد فوجئت به مع تلك الحال يخـاطب شدادا كما يخاطب الموظف البسيط مسؤوله الأكبر.

وفوجئت أكثر عندما علمت من خلال الحديث أن شـدادا كـان صـاحب مؤسسـة كبـيرة تمتـد فروعهـا في جميـع أرض لبنـان.. وأن الرجـل صـاحب الهيئـة المحترمـة الـذي زاره لم يكن إلا موظفا مكلفا بالعلاقات العامة في تلك المؤسسة.

وقد دعاني ذلك إلا التنصت والاهتمام لحديثهما:

قال الرجل: لقد عرضوا علينـا مبلغـا لا يمكن الاسـتهانة بـه.. إنـه مبلـغ يجعـل لنـا القـدرة على فتح فـروع للمؤسسـة خارج هذه البلاد..

قال شداد: والله لو عرضوا علينا أمـوال الـدنيا جميعـا.. فلن أقبل هذا.. إن تلك المبالغ الـتي يعرضـونها علينـا ليسـت سوى جمرات من نار تريد أن تحرقنا وتحرق معنا خلقا كثيرا.

قال الرجل: لقد ذهبت إلى بعض الفقهاء.. وقد وجد لهـا مخرجا.. وها هو نص فتواه.. وعليها إمضاؤه.

قال شداد: ألم تسمع قولـه ﷺ: (اسـتفت نفسـك.. الـبر مـا اطمـأنت إليـه النفس، والإثم مـا حـاك فى نفسـك، وتـردد فى صدرك، وإن أفتاك الناس وأفتوك)[1]

1() أحمد (4/228، رقم 18030) واللفظ له، وأبو يعلى (3/160، رقم 1586)

قال الرجل: بلى .. سمعت الحديث، فأنت تكرره دائما.. ولكن.. ألا تخشى من أن تعدو العوادي على مؤسستك، فتصيبها بالإفلاس الذي أصاب الكثير من المؤسسات؟

قال شداد: أنا لا أخشى إلا عذاب الله والحجاب عن الله.. أما هذه المؤسسة، فأنا مجرد وكيل فيها عن الله.. فإن شاء أن تبقى أبقاها، وإن شاء أن تزول أزالها.. لقد عاهدت الله مذ رزقني من فضله أن لا أسير فيها إلا بما يقتضيه الورع.. وقد وفى الله لي بفضله فأعطاني ما لم أكن أحلم به.. وليس علي إلا أن أوفي بما عاهدته عليه..

قال الرجل: ولكن.. ما تقول في فتوى الفقهاء؟

قال شداد: أنا أحترم فتاوى الفقهاء.. ولكني في هذه المسألة خصوصا أعرف من ثغراتها ما لا يفطن له الفقهاء..

أنا أعلم أن الشريعة رحمة كلها.. وعدالة كلها.. وما تعرضه علي يتنافى مع العدالة والرحمة..

قال الرجل: ولكن السوق وأهلها لا يتعاملون بهذه القيم التي تتحدث عنها.

قال شداد: أنا أفكر في سوق الآخرة.. ولا يهمني ما يفكر فيه أهل أسواق الدنيا.. أنا أفكر في اليوم الذي تتطاير فيه الصحف.. وليس لي في ذلك الحين إلا أمل واحد هو أن لا آخذ كتابي بشمالي..

أتدري ماذا يقول حينها من يأخذ كتابه بشماله.. إنه يقول: ﴿يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 25 - 29]

أتدري ما يقال له حينها.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا

يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)﴾ [الحاقة: 30 - 37]؟

قال الرجل: ولكن الله تعالى أمرنا بمراعاة نصيبنا من الدنيا.. ألم تسمع قوله: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]؟

قال شداد: بلى.. ولكنه أمرنا بألا نبيع ديننا بدنيانا، فسعادتنا لا تتحق إلا بديننا.. أما سعادة الدنيا الخالية من الدين، فهي مجرد أحلام وأوهام وسراب.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: 39]

لم يجد الرجل إلا أن ينصرف، وهو يتأسف لعدم قبول شداد للصفقة.. وقد شاء الله ألا أخرج من المدينة إلا بعد أن أرى العواقب الجميلة التي نالها شداد بسبب ذلك الموقف، ذلك أن كل من قبل تلك الصفقة أقيمت عليه دعاوى لدى القضاء، ثم صودرت أمواله، ولم ينج من ذلك إلا شداد لورعه وتقواه.

قلت: لقد ذكرت لي أنه كان متألما خائفا، فكيف تزعم أنك اكتشفت من خلاله السعادة.

قلا: لم يكن ألمه ألم القانطين، ولا خوفه خوف المكتئبين المحبطين.. بل كان مع خوفه ممتلئا بالرجاء لله، يعاين فضل الله الذي ينتظره، بكل سعادة.

قلت: أراك تذكر الكثير من المعاني المتناقضة.. فهل يمكن أن تجتمع السعادة مع ما ذكرت؟

قال: أرأيت لو أن شخصا كانت له أموال كثيرة، وكان في بيئة مملوءة باللصوص، وكان حريصا عليها، يستعمل كل الوسائل لحمايتها، ولا يثق في أي شخص قد يسلبها منه.. هل تعتبر ذلك شقاء؟

قلت: لا .. بل هذا حرص.. وهو حرص ممدوح.

قال: فكذلك كان شداد.. لقد كان حريصا على السـعادة التي بلغها، فلم يكن ليأذن لأي شيء يسلبها منه.

المشهد الرابع:

قلت: حدثتني عن المشهد الثـالث.. فحـدثني عن المشـهد الرابع.

قال: لقد حصل لي هذه المشـهد أثنـاء زيـارتي لتركيـا.. حيث التقيت فيهـا برجـل اسـمه سـعيد[1].. تعلمت منـه من أسرار السعادة ما أزال عني كل أوهام الشقاء.

التقيت به في (أنقرة) في يـوم من الأيـام الأخـيرة لفصـل الخريف، حيث كانت الدنيا مملوءة بالكآبة.. قلت لـه، وقـد رأيت الشيب قد اشتعل في رأسـه، والـوهن قـد ملـك عليـه جسـده: أراك يا سـعيد تسـير إلى المـوت الـذي كنت تخـاف منـه سـيرا حثيثا.

قال، وهو يبتسـم: نعم كنت أخـاف منـه، وأمتلئ رعبـا من ذكره، وأمتلئ تشاؤما من وجوده.. لكني اليوم أشـعر أن أجمـل الأيام ذلك اليوم الذي يزورني فيه.. فكل أماني أن يزورني، وأنـا في حالة طيبة، حتى ألقى الله بصورة جميلة.

قلت: لكـأني بـك كفـرت بتلـك المقـولات الـتي قالهـا [شوبنهاور]، والتي كنت ترددها علي كـل حين.. لقـد كنت تـذكر لي قوله : (حياة الإنسان كلها ليست إلا نضالا مستميتا من أجـل البقـاء على قيـد الحيـاة مـع يقينـه الكامـل بأنـه سـيهزم في النهاية) .. وقولـه: (ينبغي أن نـدمر في داخلنـا، وبكـل الأشـكال الممكنة، إرادة الحيـاة، أو الرغبـة في الحيـاة، أو حب الحيـاة) .. وقوله: (يُقال أن السماء تحاسبنا بعد المـوت على مـا فعلنـا في الحياة الدنيا .. وأنا أظن أنه بإمكاننا أن نحاسبها أولًا عن المزحـة الثقيلة للوجود الذي فُـرض علينـا من دون أن نعلم لمـاذا؟ وإلى أي هدف؟).. وتردد معهـا مقولـة (فكتـور فرنكـل): (للكثـير من الناس اليوم وسائل للحياة، غـير أنهم يفتقـدون معـنى يعيشـون

---

[1] أشير به إلى بديع الزمان النورسي.

لأجله)[2]

قـال: أجـل.. كنت أردد ذلـك قبـل أن يـذوق قلـبي طعم الإيمان.. لقد كانت القسوة والجفاء والغلظة تطبع حياتي جميعا، نتيجـة تـركي للهـداة الـدالين على الحقـائق، وتمسـكي بأولئـك الدجالين الذي نصبهم الشيطان أئمة للضلال.

قلت: عجبـا.. لطالمـا كنت أسـمعك تـردد علي مقولـة شـوبنهاور الـتي يـذكر فيهـا (أن الـدين هـو من صـنيعة البشـر ابتكروها لتفسير مـا هـو مجهـول لـديهم من ظـواهر طبيعيـة أو نفسية أو اجتماعية، وكان الغرض منه تنظيم حياة مجموعـة من النـاس حسـب مـا يـراه مؤسـس الـدين مناسـبا وليس حسـب الحاجـات الحقيقيـة للنـاس الـذين عن جهـل قـرروا بـالالتزام بمجموعة من القيم البالية)

قال: أجل.. كنت أردد ذلك.. وكنت ممتلئـا بالشـقاء بسـبب ذلك..

قلت: فكيف عرفت الحق؟

قال: باللجوء لأهل الحق..

قلت: فكيف لجأت إليهم؟

قـال: بعـد أن عـرفت دجـل الـدجالين، وكـذبهم، وكـونهم صناعة شيطانية.

قلت: فكيف اهتديت إلى ذلك؟

قال: لقد علم الله صدقي في طلب الحق، ورأى معه عدم تكبري عن أهله.. فلذلك دلني عليهم..

قلت: ولكنك قضيت كل عمرك مع الدجالين.

قـال: ألم يقض سـحرة فرعـون كـل عمـرهم في صـناعة السحر، وخدمة فرعون؟

---

(2) انظر هذه النصوص وغيرها في كتابي [كيف تناظر ملحدا]، ص 380.

قلت: بلى..

قال: ولكن الله شاء أن يختم لهم بتلك الخاتمة الطيبة.. لأنهم مع الشرور الكثيرة التي قاموا بها كان فيهم الكثير من الصدق، ومعه الكثير من التواضع.. وهذان وحدهما كافيان ليصدا كل وساوس الشياطين في أي لحظة من لحظات الوعي.

قلت: لكأني بك تذكرني بقوله ﷺ: (والذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ .. وإياك أن تحسب أن ذلك جبر، أو مخالف للحكمة؛ فتتهم ربك.

قلت: فكيف يكون ذلك؟

قال: ذلك الذي لم يبق بينه وبين الجنة إلا ذراع كان فيه الكثير من التواضع والصدق، ولكنه ربما يكون فيه من الغفلة ما أتاح لأهل الضلال بأن يجذبوه إلى صفهم.. فلذلك ما إن يرى الحقيقة حتى يسرع إليه، في أي عمر كان..

قلت: والذي قضى عمره في عمل أهل الجنة؟

قال: ذلك هو المملوء بالكبر والطغيان.. ولذلك يبدو في ظاهره من الصالحين، لكن باطنه يفوح بتلك الروائح المنتنة التي نطق بها فرعون حين قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، ولذلك يهيء الله من الاختبارات ما تبلى به سريرته، وتظهر به حقيقته، مثلما حصل مع إبليس حين لم تغن عنه كل عباداته بسبب سجدة واحدة استكبر أن يسجدها.

قلت: أجل.. فعد بنا إلى نفسك، وأخبرني كيف حصل لك هذا التبدل الكبير.

1() رواه البخاري 11/ 417، ومسلم رقم (2643)

قال [2] : ذات يوم من الأيام الأخـيرة للخريـف، صـعدت إلى قمة (قلعة أنقرة)، التي أصابها الكـبر والبلى أكـثر مـني، فتمثلت تلك القلعة أمـامي كأنهـا حـوادث تاريخيـة متحجـرة، واعـتراني حـزن شـديد وأسـى عميـق من شـيب السـنة في موسم الخريف، ومن شيبي أنا، ومن هرم القلعة، ومن هــرم البشرية، ومن شيخوخة الدنيا.. فاضـطرتني تلـك الحالـة إلى النظـر من ذروة تلـك القلعـة المرتفعـة إلى أوديـة الماضـي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وأبحث عن رجـاء وعـزاء ينير ما كنت أحس به من أكثف الظلمات التي غشـيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط.

حينها نظرت إلى اليمين الذي هو الماضي باحثا عن نـور ورجاء، فبدت لي تلك الجهة من بعيد على هيئة مقبرة كــبرى لأبي وأجــدادي والنــوع الإنســاني، فأوحشــتني بــدلا من أن تسليني .

ثم نظرت إلى اليسـار الـذي هـو المسـتقبل مفتشـا عن الـدواء، فـتراءى لي على صـورة مقـبرة كـبرى مظلمـة لي ولأمثالي وللجيل القابل، فأدهشني عوضا من أن يؤنسني.

ثم نظـــرت إلى زمـــني الحاضـــر بعـــد أن امتلأ قلـــبي بالوحشة من اليمين واليسار، فبدا ذلك اليوم لنظري الحسير ونظـــرتي التاريخيـــة على شـــكل نعش لجنـــازة جســـمي المضطرب كالمذبوح بين الموت والحياة.

فلما يئست من هذه الجهة أيضا، رفعت رأسي ونظــرت إلى قمة شجرة عمري، فرأيت أن على تلـك الشـجرة ثمـرة واحـدة فقـط، وهي تنظـر إلي، تلـك هي جنـازتي، فطأطـأت رأسي نـاظرا إلى جـذور شـجرة عمـري، فـرأيت أن الـتراب الذي هناك ما هو إلا رميم عظامي، وتـراب مبـدأ خلقـتي قـد اختلطا معا وامتزجا، وهما يداسان تحت الأقدام، فأضـافا إلى دائي داء من دون أن يمنحاني دواء.

ثم حولت نظري على مضض إلى مـا ورائي، فـرأيت أن

---

[2] هذا النص مقتبس بتصرف شديد من اللمعات، ص 322.

هذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في أودية العبث وتنحدر في ظلمات العدم، فسكبت هذه النظرة السم على جروحي بـدلا من أن تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلـك الجهـة خـيرا ولا أملا، وليت وجهي شطر الأمام ورنوت بنظري بعيدا، فرأيت أن القبر واقـف لي بالمرصاد على قارعة الطريق، فاغرا فاه، يحدق بي.

بينما أنا في تلك الحـال، تتـوالى علي صـنوف الوحشـة والدهشة واليـأس والظلمـة، إذا برجـل يقـترب مـني، لسـت أدري من أين جاء.. لكنـه كـان مختلفـا تمامـا عن كـل أولئـك الفلاسفة الذين ملأوا حياتي بالتشاؤم والشقاء.

لقد قال يخاطبني، وكأنه علم ما في نفسـي: مـا أجمـل اسمك يا سعيد..

قلت: بل أنـا شـقي.. فليس لي من السـعادة إلا الاسـم الذي سماني به والدي.. وقد أخطأ خطأ كبيرا في ذلك، فهـذا العالم مملوء بالشقاء، ولا محل فيه للسعادة.

قال: أنا أحسبك يا سعيد عـاقلا، وأحسـب أن مـا حصـل لك لم يكن ناتجا عن كـبرك وتعاليـك، ولكنـه نـاتج عن جهلـك بالذين تأخذ منهم حقائق الحياة.

قلت: ما تعـني.. ألا تـرى أني قـد لجـأت إلى الفلاسـفة، وهم أعقل العقلاء؟

قال: وقد يكونون أكبر المخادعين.. فالعقل الكبـير ليس بالضرورة عقل ناصح، فعقول اللصـوص والمختلسـين الكبـار ممتلئة بالذكاء، ولكنها ممتلئة كذلك بالخداع.

قلت: فكيف أميز بين المخادعين والصادقين.

قال: الصادقون هم الذي لم يتاجروا بالحقائق التي دعوا إليها، وهم الذين ألهم الله قلوب البشر لاتباعهم، وهم الـذين دلوا على مصدر الحقائق، وأخبروا أن كل ما عندهم ليس من بنات أفكارهم، وإنما هو من منبع الحقيقة نفسها.

قلت: أراك تقصد الأنبياء؟

قال: إن لم يدلنا الأنبياء على الحقائق .. فمن يدلنا؟

قلت: لكن أتباع الأنبياء مختلفون.. فكيف أثق فيهم؟

قال: والفلاسفة وأتباع الفلاسفة كـذلك مختلفـون، ومـع ذلك كنت أراك تتبع بعضهم، وتؤمن بما يقول، وتترك غيره.

قلت: صدقت في هذا.. لكن كيف أميز بين الحـق الـذي جاء به الأنبياء من الباطل الذي سار عليه أتباعهم.

أخـرج مصـحفا من جيبـه، وقـال: اقـرأ هـذا الكتـاب.. وسـترى فيـه كـل حقـائق الوجـود.. فقـط كن صـادقا معـه، وامسح عن قلبك كل ذلك الران الـذي ملأه.. وستسـمع اللـه نفسه يحدثك.

كان الرجل ممتلئـا بالصـدق والوقـار، ويظهـر عليـه كـل سيما الصالحين، فلذلك أخذت المصحف منه، وشـكرته، وقـد كـان ذلـك من بـاب المجاملـة، وقطـع الحـوار، لا أكـثر.. فانصـرف، وهـو يقـول: أسـأل اللـه كمـا أمسـكته يـداك أن يمسكه قلبك..

لست أدري كيف خطر لي بعد ذهابه أن أفتحه، وبمجـرد فتحي له، وقعت عيـني على قولـه تعـالى: ﴿كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُـرُورِ ﴾ [آل عمران: 185]

رحت أتأمله، وأتأمل الحقائق التي يحويها.. فإذا بي أرى فيها كل شيء.. فالموت الذي ذكـره القـرآن الكـريم يختلـف عن الموت الذي ذكـره لي فلاسـفة التشـاؤم.. المـوت الـذي ذكره القرآن الكريم مرحلة بسيطة في سلم الحيـاة، وبعـدها تكون السعادة، أو يكون الشقاء.

وقد جعلني ذلك أبحث فيه عن أسرار الفـوز والسـعادة، فوجدتها كلها من الخلال النبيلة والأخلاق الطيبة.. لقـد قـرأت

في القـرآن الكـريم قولـه تعـالى: ﴿قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُـونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَـاةِ فَـاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُـومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُـونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِـدُونَ (11) ﴾ [المؤمنـون: 1 - 12]

وكـل هـذه معـان طيبـة، وأخلاق نبيلـة.. لم يـذكر لي الفلاسفة الذين ملأوني بالتشاؤم منها، لأنهم كـانوا يقتصـرون فقط على ذكـر مـا يرونـه من حقـائق دون أن يربطوهـا بـأي سلوك مؤثر في الحياة.

لا أكـذبك أنـني في ذلـك الحين، ومـع كـون الإيمـان لم يـدخل إلى قلـبي بعـد دخـولا كـاملا إلا أني رحت أحـاول أن أطبق تلك المعاني التي ربـط القـرآن الكـريم السـعادة بهـا، وأولها القيام بخدمة الناس، وإطعام المسـاكين، وتوفـير كـل أصـناف العنايـة بهم.. وكـان الكـل يـدعون لي، فأشـعر مـع دعواتهم بأمطار السعادة، وهي تتنزل على قلبي فتطهره من كل أدناس الشقاء.

وهكـذا بقيت أجمـع مـدة بين تلـك الخـدمات، وقـراءتي الدائمة للقرآن الكـريم إلى أن من اللـه علي فشـرح صـدري للإيمان، فصرت أرى تلك الحقـائق بعيـني.. صـرت أرى أهـل الجنة يتنعمون فيها، وأهل النار يصـيحون فيهـا.. وكنت أعمـل كـل الوسـائل لأبتعـد عن النـار، وأدخـل الجنـة، حـتى أحقـق السعادة الأبدية.

وقد أصبح لحياتي منذ ذلك الحين معنى ملموسا، بعد أن كانت فارغة من أي غايـة، وكـانت لـذلك مملـوءة بكـل أنـواع الشؤم.. وبذلك فإن الإيمان لم ينقذ آخرتي فقط، وإنمـا أنقـذ دنياي أيضا.

هذا الكتاب

تحاول هذه الرواية أن تعرف بأهم الحقائق المرتبطة بالحياة وفق الرؤية الإسلامية التي تعتمد المصادر الأصلية، وما ساندها وأيدها وتوافق معها من الأحاديث والروايات والحكمة.. وهي تبرهن على مدى عقلانية الرؤية الإسلامية للحياة، مقارنة بسائر الرؤى، وبذلك تكون النظرة الإسلامية للحياة، برهانا من براهين النبوة، ودليلا من الدلائل الكبرى على حقانية الإسلام.

ذلك أن التشويهات والتحريفات التي أصابت مصادر الأديان أثرت في نظرتها للحياة، وهو ما أثر في سلوكها ومواقفها.. ذلك أن من ينظر إلى الحياة نظرة خاطئة، سيمارس لا محالة كل أعماله، ويقف كل مواقفه بطريقة خاطئة..

ولهذا كان من مهام الدين الكبرى التعريف بحقيقة الحياة، ومعناها، وأهدافها، وسر كونها بهذه الصفة، وكل ذلك أجابت عنه المصادر المقدسة للإسلام، ولا نجد مثلها، ولا ما يدانيها في سائر الكتب المقدسة.